



أغسطس 2016

414

الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل



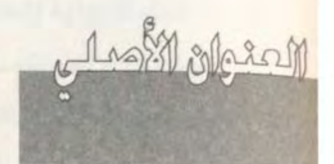
18.12.2016

رواية

تأليف: جِلْبير سِيْنُوِيه
ترجمة: د. محمود المقداد
مراجعة: د. حمادة إبراهيم

الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل

رواية



Gilbert Sinoué

L'homme qui regardait la nuit

Roman

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 414

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل

رواية

تـــألـــيـــف: جِلْبير سِيْنُوِيه

تـــرجـــمـــة: د.محمود المقداد

مـــراجـــعـــة: د.حمادة إبراهيم



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-510-5

مقدمة المترجم

هذه الرواية واحدة من سبعة وعشرين عملاً منشوراً للكاتب المصري - الفرنسي ذي الأصول السورية - اللبنانية (جِلْبير سِينُويه)[1] Gilbert Sinoué، وقد أحصينا عشرة أعمال منها تمت ترجمتها إلى العربية، وترجمتنا الراهنة هي العمل الحادي عشر حتى الآن، كما ترجمت معظم أعماله إلى لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية الحية، ومن أبرزها: الإيطالية، واليونانية، والتركية، والإسبانية، والإنكليزية، والألمانية.

(1)
المؤلِّف
(جِلْبير سِينُويه)

تعصف بالناس أحياناً عواصف الحدثان، فتطوِّح بهم، اختياراً أو اضطراراً، من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد، وهذا دأب البشرية مذ كانت على وجه الأرض. تقاسمت القبائل الأرض، وتصارعت عليها، وتقاسمت الأمم الأرض ولا تزال تتقاتل عليها، ويلحق الأفرادَ من ذلك وغيره ضيمٌ قليل أو كثير، ويتعرَّضون لضنك خفيف أو ثقيل، فتكون رحلتهم في سبيل العيش أو البقاء، ويَضرِبون في الآفاق، ويلقون عصا الترحال حيث وجدوا الأمن والأمان، والراحة والاطمئنان، وربما قلقوا

(1) كتب بعض المترجمين اسمه الأول في العربية (جيلبيرت)، ولكننا فضلنا كتابته كما يُنطق في الأصل الفرنسي (جِلبير)، نظراً لأن الرجل، وإن كانت أصوله عربية اللغة على الأقل، فإنه متفرنِسٌ، علماً بأنه كان يشعر بتمزُّق الهوية ووهن الأصالة في الانتماء إلى مصر وإلى فرنسا معاً.

مـرة ثانيـة وثالثـة ورابعـة، فأمضوا العمـر في التنقُّل وشـقائه، ومعاركة الرعب وبلائه.

كانت أسـرة جد كاتبنا (جلبير سـينويه) أو أسـرة جد أبيه من الذين انتقلوا من لبنان قبل أن يصبح له كيان مستقل إلى مصر إثر الأحداث الدامية التي وقعت سـنة 1860 في لبنان وسـورية، وكانت هذه الأسـرة تدين بالنصرانيـة الكاثوليكية، وهم ينتمون إلـى آل (كسَّـاب)[2] هنالك؛ فـكان مولـد والـد (جلبير) ونشـأته وزواجـه - بطبيعـة الحـال - في مصر، وكانت هـذه الهجرة طلباً للأمن والرزق والحرية معاً، ومن المؤكَّد أنها كانت نقْلَة اضطرارية. وفي أجواء القاهرة ولد كاتبنا يوم 18 شباط/فبراير سنة 1947، وكانت أمه فرنسـية الأصل ومـن أم يونانية تعيش في مصر، وقد انتظـم فـي هـذه المرحلـة منـذ صغـره في مـدارس اليسـوعيين الخاصـة في (القاهـرة) من البداية إلى أن نـال الثانوية العامة، وكانت معظم دراسـته، إن لم نقل كلها، باللغة الفرنسـية، ويسَّـر لـه إتقانها أنها لغة أمه. ولذا افتتح أعماله الأدبية بسـيرة حياة أحد البابوات الشـهداء في المرحلة المبكرة من انتشـار النصرانية وكفاحه كما سـنرى[3]. وكان - بطبيعة الحال - ملمّاً بالعربية، أو علـى الأقل باللهجة العامية المصرية منها. وكانت أسـرته تتمتع بشـيء مـن الثـراء والرخاء فـي هـذه المرحلة، وقـال - في بعض

---

(2) انظـر مقالة الكاتبة الصحافيـة والروائية اللبنانية (كارول داغـر) في صحيفة (لوريان - لوجور) L'OLJ البيروتية باللغة الفرنسية: عدد يوم 2013/2/11.

(3) ويكشـف لنا في روايته التي بين أيدينا، التي كان لسـيرته نصيب من شخصية بطلها، لأنها مزجت بين حياته والخيال السـردي الإبداعي في خط الرواية الدرامي الخاص، يكشف لنا عن اسـتراتيجية تعليم اليسوعيين في مدارسـهم بقوله إن تلاميذهم «كانوا قد تعلّموا نهر (السين) la Seine قبل نهر (النيل)، و(جيد) Gide قبل (محفوظ)، و(لامارتين) Lamartine قبل (أبي نُوَاس)»، ولهذا دلالات خطيرة بطبيعة الحال (انظر ذلك في هذه الرواية لاحقاً).

مقابلاتـه التلفزية - بـأن المرء مرتبط دومـاً بطفولته، ويعترف بأنه عاش في مصر طفولة سعيدة جداً، وبأنه يهيم بذلك البلد.

وثانيـة النقلتـين نقلـةُ عودة أسـرته إلـى لبنان سـنة 1968، بعد أن أخذت الأوضاع الاقتصادية لأسـرته في مصر تسـوء منذ سـنة 1956، بعـد قـرارات التأميم الناصرية ومصـادرة الأراضي والشـركات والمصالـح، وكانـت هذه النقلـة ذاتَ شـعبتين: الأولى اضطرارية لأسرته، وقد عبّر عنها في روايتنا الراهنة قائلاً: «كان اللجـوء إلى (لبنان) لوالـدي»، والثانية كانـت اختيارية لكاتبنا، وقـد قـال عنها: «وإلى لجوئـي (باريس)»، ثم طرح سـؤالاً وأجاب عنـه: «لماذا (باريـس)؟ لأنني كنتُ أحلم - على غِـرار جميع أبناء ديني - بـ(فرنسـا) منذ مولدي، فقد نشـأت علـى حب هذا البلد الـذي لـم أعرفه إلا من خلال الكتب المدرسـية والسـينما»[4]. ثم يؤكِّـد ذلك بقولـه: (رحلتُ إلى ثقافتي ولغة أمي). وكان في نحو العشـرين أو الحادية والعشرين حين سـافر إلى باريس، على نية دراسة الموسيقى في مدرسة المعلمين للموسيقى، التي تحمل اسم مؤسسها سـنة 1919 بباريس الموسيقي (ألفريد كورتو) Alfred Cortot، للتخصص بآلة (الغيتار) التي كان مولعاً بها وهو في مصر.

ويبـدو أنه تخرج فيها، واسـتقر في فرنسـا، وعمـل في تعليم الموسـيقى فـي المـدارس. وقد كانـت مرحلة الاهتمام بالموسـيقى (1968 - 1987) مرحلة غامضة في حياته، لم يفصح كثيراً عما كان فيها من أنشطة، غير أنه يذكر أنه كتب كلمات أغانٍ بالفرنسية لعدد من مشاهير الغناء في فرنسا، ويذكر أن أول أغنية له كانت

(4) انظر ذلك في هذه الرواية لاحقاً.

لـ (إيزابيل أوبريه) I. Aubret، كما أنه كتب أغنيات أيضاً لكل من (كلود فرانسوا) Cl. François، و(داليدا)[5] Dalida، و(جان ماريه) J. Marais، و(ماري لافوريه) M. Laforêt، و(جان - كلود باسكال) J. - Cl. Pascal، و(شيلا) Sheila، و(شارل أزنافور) Ch. Aznavour، وغيرهم. وقد مارس هذا النشاط - كما يظهر لنا - في مرحلة تعليمه الموسيقى واهتمامه بها. ويبدو أنه كان في هذه المرحلة يعزف على الغيتار مع بعض الفرق الموسيقية في ملاهي باريس الليلية، ويغنّي فيها بعض الأغاني القصيرة من تأليفه أيضاً.

ونجده، في سن الأربعين، يوقف كل شيء - كما كتب فيما بعد - ويتوجّه إلى الكتابة، بعد أن نشر روايته الأولى سنة 1987، عن كفاح رجل مغمور مؤمن يدعى (كاليكست) Calixte ليصبح في نهاية المطاف البابا السادس عشر باسم (كاليكستوس الأول) من سنة 217 إلى سنة 223م، ولينتهي به مصيره ليصبح شهيداً من شهداء الاضطهاد الروماني للنصارى، وكان عنوانها (الأرجوان وشجرة الزيتون)[6].

ويبدو أن شعوره بأنه سيمارس الكتابة يوماً ما بدأ في مرحلة مبكِرة من حياته، وذكر أن هذا الأمر راوده في سن الرابعة عشرة، أي نحو سنة 1961، وهو يصحب أباه على المركب السياحي الذي يملكه في نهر النيل، فقد كتب يقول: (وفي هذا الوقت بالتحديد، تملّكني يقينٌ، وبشكل غريب، بأنني سوف أكتب يوماً ما)، وتأخر هذا اليوم عن ذلك الوقت نحو عشرين عاماً، وقد

---

(5) من جملة ما كتب لها باللغة العربية تلك الأغنية الشهيرة (حلوة يا بلدي).
(6) انظر الرواية ذات الرقم (1) لاحقاً من آثار الكاتب الأدبية.

فسَّر هذا التأخر فيما بعد بأنه الخوف والهلع من الكتابة، غير أنه في سن الأربعين رأى أن الوقت قد حان لذلك.

استغرق (سينويه) في كتابة روايته الأولى هذه - كما ذكر - نحو أربع سنوات، قضاها ما بين كتابتها وإعادة كتابتها مراراً. يُضاف إلى ذلك ضياع سنة حتى وافق أحد الناشرين على نشرها، وهو يعترف بذلك في قوله: (وبعد رفضها عدة مرات، قرَّرتْ «منشورات أوربان Éd. Orban» أن تنشرها)[7]. وهذه المعلومة تقتضي انحرافه نحو الكتابة في حدود سنة 1982، وهو في الخامسة والثلاثين.

أما فيما يتعلَّق بأسرته الصغيرة، فقد أصبح أباً لطفل سنة 1997 تقريباً، ولا نعلم شيئاً كثيراً عن تفاصيل حياته الخاصة.

(2)
شخصيته

لقد وصف (سينويه) شخصيته بنفسه في عمله (كتاب حِكَم من الشرق)، وهو ذو الرقم [8] لاحقاً، وللقارئ الكريم أن يستنبطَ من هذا الوصف ما في هذه السطور وما بينها بنفسه أيضاً، فقال:

(إنني أُشْبِه هذا الكائنَ الغريب المعروفَ في كل الشرق منذ زمن طويل، وهو نصفُ مجنونٍ، ونصفُ عاقِلٍ، ويُلَقَّب ب «المجدوب»؛ يُبالِغ في جنونه حينما يحاوِل أحدهم أن يعامله على أنه عاقِل، ويصبِح ثاقبَ الفِكر حينما يَسْخَر أحدُهم من

(7) سيمر بنا بعد قليل أن ناشر هذه الرواية هو (دونويل وفوليو) لا (أوربان)، إلا إذا كانت الطبعة الأولى عند الأخير، ومن ثم أعيد طبعها عند الأول.

جنونه. ويمكننا أن نقابلَه في بعض الأماسي في طرقات بغداد، وحلب، أو القاهرة، يتقدَّم متقَلقِلَ الرأسِ على صورة الدراويش، غيرَ مبالٍ - في الظاهر - بالناس الذين يحيطون به؛ فأنا هو).

وهو بهذه الصفة يكشف عن طبيعة معاندة، تجعله يخالف ظن المرء فيه بأن يجد عكس ما هو متوقع، وهذا يعني أنه من الصعب القبض على أفكاره أو أسراره العميقة، وهو دليل ذكاء، ليَظْهَر غير مبال بالأمور، في حين إن عينه عليها جميعاً ويتابعها بعمق.

(3)
آثاره الأدبية

كان (جلبير سينويه) يتميَّز بغزارة الإنتاج، وواضح أنه كان يصدر في كل سنة تقريباً كتاباً، وهذه قائمة بكتبه المنشورة من سنة 1987 إلى نهاية سنة 2015[8]. وقد تميزت كتاباته عموماً بالطابع التاريخي[9]، وقد اجتذب بهذا اللون من الروايات جمهوراً واسعاً من القراء متعطشاً إلى معرفة الوقائع المدهشة والغريبة والشخصيات الوازنة في التاريخ[10]، وعلى وجه

---

(8) لما كان من الصعب استيعاب المعلومات عن كل كتاب في صف واحد من جدول، فقد لجأنا إلى طريقة الترقيم والتوالي الثابت بعده للمعلومات المتعلقة بكل كتاب، ووفق التسلسل التاريخي لنشر هذه الأعمال، على النحو التالي: الرقم، العنوان العربي للعمل، النوع الذي ينتمي إليه، عنوان العمل الأصلي (مع العنوان الفرعي إن وجد)، دار النشر، سنة النشر (في طبعته الأولى)، الترجمة إلى العربية وغيرها من اللغات الحية، ثم نختم بأي ملاحظة مختصرة حول موضوع العمل للاستئناس بها، ونذكر الجائزة التي نالها المؤلف عليه (إن وجدت).

(9) كتبت إحدى المعجبات بكتاباته هذه على الـ (فيسبوك) تقول: (شكراً لك جِلْبير سينويه، لأنك تروي لنا التاريخ من خلال الروايات المحببة اللطيفة للقراءة) (كليمانتين كونستانتيني Clé. Constantini). وكتبت (مارال باليان Maral Balian - وهي صاحبة مكتبة بباريس - في مراجعة قصيرة لروايته (يريفان)، ذات الرقم (19)، تقول عنه: (إنه مؤلف متخصص بالمواضيع التاريخية المروَّاة (التي حُوِّلَتْ رواية)، ولكن بطريقة موثَّقة جداً، وجادَّة جداً).

الخصــوص في المشــرق العربي. لكنه لم يكــن مؤرِّخاً محضاً ولم يكن في الوقت نفســه يكتب الرواية الفنية الخالصة، ونعني بها تلك الرواية التي يخترع كل ما فيها من شــخصيات وأحداث من خيالــه الإبداعي، وإن اســتعمل الأمكنة والأزمنــة المألوفة لدينا، ولعــلّ روايتــه الراهنة (الرجل الــذي كان ينظر إلــى الليل)، ذات الرقم (23)، هي الرواية الفنية الوحيدة التي ينطبق عليها هذا الوصف - كما سنرى - وتجري أحداثها في زمننا المعاصر.

وهذه قائمة بكل أعماله حتى أواخر سنة 2015[11]:

1 - (الأُرجُــوان وشــجرة الزيتــون)، روايــة تاريخيــة، La Pourpre et l'olivier، منشورات (دونويل وفوليو) Dénoel et Folio، ســنة 1987، ترجمــت إلــى الإيطاليــة والإســبانية والألمانيــة، موضوعهــا ديني حــول كفاح البابا 16 (كاليكســتوس الأول) Calixtos I واستشهاده 217 - 223م، ونال عليها جائزة (جان دور) J. D'Heurs، والجائزة الأدبية الأولى.

2 - (ابــن ســينا: أو الطريــق إلــى أصفهان)، روايــة تاريخيــة، (Avicenne ou La route d'Ispahan)، منشــورات (دونويــل وفوليو)، ســنة 1989، ترجمها إلــى العربية

(10) عندما نقول عن عمل إنه (رواية تاريخية) فإننا نعني بذلك أننا أمام كتاب أدب تمَّ تطعيمُه بحقائــق تاريخية، أو أننا أمام كتاب تاريخ تم تطعيمه بالخيال الإبداعي والســردي والأســلوبي الأدبي، وهذا يعني أن ما فيه من حوارات وســرد، وحتى شــخصيات أحياناً، إنما هو من إبداع الكاتب، ولذا لا يمكن عده تاريخاً محضاً ولا أدباً محضاً، وإنما هو منزلة بين المنزلتين، ولا يحتج بــه في التاريخ، لأنه لا يقوم علــى حقائق قطعية، وإنما على وجهة نظر الكاتب وميوله وعواطفه بوجهيها المحبّة والكارهة على السواء.

(11) قصَدْنا بســرد أعمال (ســينويه) الأدبية جميعاً حتى أواخر العام المذكور أن نعطي القارئ العربي الكريم صورة كاملة عن جهوده الأدبية في المرحلة الثالثة من حياته، بعد المرحلة المصرية، والمرحلة الموسيقية، وأن نكشف ساحته الأدبية كاملة ليتم تقويمه تقويماً صحيحاً من قبل المهتمين من النقاد العرب بهذه الجهود.

ضمن منشـورات (الجمل) بكولونيا (ألمانيا) سنة 1999، الأستاذ التونسـي (آدم فتحـي)، كمـا تُرجِمتْ إلى سـبع لغـات أخرى من أبـرزها: الألمانية والإيطالية، جعل المؤلِّف السـرد على لسـان (أبي عبيـد الجوزجانـي) كاتبِ سـيرة ابن سـينا، وكأن (سـينويه) كان يبدو فيها مجرَّد مترجم لما كتبه عنه.

3 - (المصرية)، روايـة تاريخية، L'Égyptienne، منشـورات (دونويـل وفوليـو)، سـنة 1991، ترجمهـا إلـى العربية الأسـتاذ المغربي (محمد بنعبود) في منشـورات (الجمل) ببيروت - بغداد سـنة 2005، وترجمت إلـى الألمانية بعنوان (شـهرزاد الجميلة)، وإلى الإسـبانية، تروي ثلاث قصص حب خلال حملة (نابليون)، نال مؤلفها عليها جائزة الحي اللاتيني.

4 - (ابنة النيل)، رواية تاريخية، La fille du Nil، منشورات (دونويل وفوليو)، سنة 1993، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمل) الأسـتاذ (محمد بنعبود) سنة 2007، كما ترجمت إلى التركية، يقول المؤلِّف في كلمته عنها إنها (تتمةُ «المصرية»).

5 - (كتاب الحجر الكريم «سَفِير»)، رواية تاريخية، Le livre de Saphir، منشـورات (دونويـل)، سـنة 1996، ترجمهـا إلـى العربية بعنوان (اللوح الأزرق) الأسـتاذ التونسي (آدم فتحي) في منشورات (الجمل) سنة 2008، كما ترجمت إلى تسع لغات أخرى أبرزهـا: الإيطاليـة والإسـبانية والألمانية والتركيـة والإنكليزية، يتناول فيها البحث عن الحقيقة بين الأديان السـماوية الثلاثة: اليهوديـة، والنصرانيـة، والإسـلام، في ظل الصراع بين الإسـبان والعـرب ومحاكـم التفتيش قبيل سـقوط غرناطة سـنة 1492.

نال مؤلفها عليها جائزة أصحاب المكتبات لسنة 1996.

6 - (الفرعون الأخير: محمد علي (باشا) 1770 - 1849)، سيرة حياة، Le dernier Pharaon: Méhémet Ali 1770 - 1849 -، منشورات (بيغماليون) Pygmalion، سنة 1997، ترجمت إلى العربية، وإلى الإسبانية، يتحدَّث فيها المؤلف عن حياة محمد علي باشا وإنجازاته العظيمة في مصر في جميع المجالات من خلال شخصيته القوية وذكائه الحاد وبعد نظره.

7 - (طفل بروج)، رواية تاريخية، L'enfant de Bruges، منشورات (غاليمار) Gallimard، سنة 1999، ترجمت إلى الإيطالية والألمانية والفلامندية (الهولندية)، موضوعها خطورة معرفة بعض الأسرار على النفس، وقضية الموت في ظروف غامضة لبعض المبدعين.

8 - (كتاب حكَم شرقية)، مختارات من حِكم لمفكرين شرقيين، Le livre des sagesses d'Orient، منشورات (كالمان - ليفي) Calmann - Lévi، سنة 2000.

9 - (إلى ابني في مطلع الألفية الثالثة)، دراسة، À mon fils à l'aube du troisième millénaire، منشورات (غاليمار)، سنة 2000، ترجم إلى الإيطالية والليتوانية، موضوعه محاولة التساؤل عن التركة التي سيتركها الجيل الحالي لأبنائه نتيجة التلوث الخانق تدريجياً للبيئة والحياة على الأرض في البر والبحر والجو، وكان دافعه إلى تأليف الكتاب كارثة تسرُّب 37 ألف طن من النفط مقابل سواحل إقليم (بريتاني) الفرنسي، إثر غرق الناقلة (إيريكا) Erika في 2 ديسمبر/كانون الأول سنة 1999.

10 - (أيامٌ وليالٍ)، رواية فلسفية كوميدية، Des jours et des nuits، منشورات (غاليمار)، سنة 2001، ترجمها إلى العربية في دار (ورد) بدمشق الأستاذ (عدنان محمد)، كما ترجمت أيضاً إلى عدد من اللغات أبرزها: الإسبانية والألمانية والإيطالية، تَطرَح هذه الرواية من خلال بطلها تساؤلات حول قضية التناسخ والتقمُّص، وعيش الإنسان وموته، ثم عيشه وموته، إلى ما لا نهاية.

11 - (السفيرة)، رواية تاريخية، l'Ambassadrice، منشورات (كالمان - ليفي)، سنة 2002، ترجمت إلى الألمانية بعنوان (إيمَّا: حياة الليدي هاملتون)، وإلى الإنكليزية بعنوان (الليدي هاملتون).

12 - (صمت الإله)، رواية بوليسية، Les silences de Dieu، منشورات (البان ميشيل) Albin Michel، سنة 2003، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمل) الأستاذ المغربي (شكير نصر الدين) سنة 2015، كما ترجمت أيضاً إلى الإيطالية واليونانية، وموضوعها جريمة قتل تحقق فيها كاتبة روايات بوليسية، ويتابع فيها المؤلف مناقشة الحقيقة بين الأديان السماوية الثلاثة التي عالجها في رواية (كتاب الحجر الكريم: سَفِير) أو (اللوح الأزرق) (رقم 5 آنفاً)، ونال المؤلف عليها الجائزة الكبرى في الأدب البوليسي لسنة 2004.

13 - (أخناتون: الإله اللعين)، رواية تاريخية، Akhenaton: Le dieu maudit، منشورات (فلامّاريون) Flammarion، سنة 2004، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمل) الأستاذ المغربي (عبد السلام المودني) سنة 2011.

14 - (سفينة إلى الجحيم)، رواية توثيقية، Un bateau pour l'enfer، منشورات (كالمان - ليفي)، سنة 2005، ترجمت إلى الإيطالية والإسبانية، تروي مأساة اللجوء اليهودي من ألمانيا النازية إلى دول العالم، من خلال سفينة خرجت، سنة 1938، من ميناء ألماني وهي تحمل 937 من اليهود بينهم 550 امرأة وطفلاً، كان المقرَّر أن يتم لجوء مَنْ فيها إلى (كوبا)، وفي اللحظة الأخيرة تمنع الحكومة الكوبية دخولها موانئها، فتتوجه إلى بلدان العالَم الحر: أولاً (الولايات المتحدة) فترفضهم، ثم إلى (كندا) فترفضهم، ثم إلى دول أمريكا اللاتينية فترفضهم، فتتوه في عرض البحار، وتكون حجة لـ(هتلر) أن أحداً لا يتقبَّل اليهود، ليصعِّد حملته عليهم أكثر فأكثر.

15 - (المَلِكة المعَذَّبة)، رواية تاريخية، La Reine crucifiée، منشورات (ألبان ميشيل)، سنة 2005، ترجمت إلى الإيطالية والإسبانية والتركية. وموضوعها وصف معاناة (إينيس دو كاسترو) Inès de Castro حبيبة وريث العرش البرتغالي (دون بيدرو) سنة 1340م.

16 - (الكولونيل والطفل - الملك)، رواية توثيقية، Le colonel et l'enfant - roi، منشورات (ج. - س. لاتِّيس) G. - S. Lattès، سنة 2006، يقصد بالكولونيل: البكباشي (المقدَّم) جمال عبد الناصر، وبالطفل: أحمد فؤاد، وريث عرش مصر بعد خلع أبيه فاروق، ويتناول المؤلِّف فيها التطور السلبي ما بين الجيل الجديد من النساء وجيل أمهاتهن وجدَّاتِهن الأكثر تحرُّراً وانطلاقاً منهن.

17 - (أنـا، يسـوع)، رواية تاريخية، Moi، Jésus، منشـورات (ألبان ميشـيل)، سـنة 2007، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمـل) الأسـتاذ المغربي (سـعيد بوكرامـي) سـنة 2012، كما ترجمـت إلى الإيطالية، وموضوعها الحديـث عن بعض الوقائع غيـر اليقينيـة في حياة المسـيح عليه السـلام ومحاولة الوصول إلى يقين بشأن عدد منها.

18 - (سـيِّدة المصبـاح: حيـاة فلورانـس نايتِنْغتـال)، سـيرة حيـاة، La Dame à la lampe: vie de Florence Nightingtale، منشورات (كالمان - ليفي)، سنة 2008، ترجمت إلـى الإيطاليـة، موضوعهـا حيـاة ممرضـة إنكليزيـة (1820 - 1910) كانت مومسـاً ومدمنة على الكحـول، ثم عملت ممرِّضة للقوات الإنكليزية في حرب القرم سنة 1854، وكانت تسعى ليلاً بمصبـاح كاز بـين خيام الجرحـى، وطورت عمـل التمريض على أسس علمية، وأسست لذلك مدرسة للتمريض ومشفى في لندن سنة 1860.

19 - (يِرِيفـان أو أرمينيـا: الروايـة العظيمـة لشـعب)، رواية تاريخيـة، Erevan ou Arménie: Le grand roman d'un peuple، منشـورات (فلامّاريـون)، سـنة 2009، ترجمت إلى الإيطالية واليونانية، موضوعها محنة الشـعب الأرمني أيام السلطان عبد الحميد ومأساته في الحرب العالمية الأولى، وكتب المغنـي الأرمنـي المتفرنس (شـارل أزنافور) كلمة شـديدة اللهجة تمهيداً لها.

20 - (نَفْحـةُ الياسَـمين) الجزء الأول مـن روايـة (إن شـاء اللـه - INCH 'ALLAH)، رواية، Le Souffle du

jasmin، منشـورات (فلامّاريـون)، سـنة 2010، ترجمـت إلـى اليونانية والتركية والإيطالية، موضوعها أربع أسـر: إسـرائيلية، وفلسـطينية، وعراقية، ومصرية تحاول أن تعيش في اللجة التي فرضها عليهم الغرب من سـنة 1916 إلى سنة 2001، ويتساءل دبلوماسـي فرنسـي: هل سـيغطي صوتُ القنابل إلـى الأبد على نفحـات اليـاسَـمين؟ وذكر النـاشـر أن هذه الرواية تحاول تفسـير تسلسـل الظروف التي أدت إلى هجمات 11 سـبتمبر/أيلول سنة 2001 على الولايات المتحدة.

21 - (صرخـة الحجارة) الجـزء الثانـي مـن روايـة (إن شـاء اللـه - INCH 'ALLAH)، روايـة Le Cri des pierres، منشـورات (فلامّاريـون)، سـنة 2010، ترجمـت إلـى اليونانيـة والتركيـة والإيطاليـة، موضوعهـا حياة أفـراد الأسـر الأربع في الجـزء الأول مـا بين (حـرب الأيـام السـتة) أو 5 يونيو/حزيران سـنة 1967، وحرب أكتوبر/ تشـرين الأول أو (الغفران) (كيبور) سـنة 1973، واجتيـاح لبنـان سـنة 1982، وانتفاضـة الحجارة أواخر سـنة 1987، بعد كل هذه الأحداث مال بعض المتصارعين إلى طريق السـلام، واختار بعضهم الآخر الاسـتمرار في الكفاح المسلح: فهل يبقى بعد ذلك مكان للحب؟

22 - (اثنتـا عشـرة امـرأة مـن الشـرق: غيَّـرت التاريخ)، مجموعـة سِـيَر، 12 femmes d'Orient: qui ont changé l'Histoire، منشورات (بيغماليون)، سنة 2011، ترجمت إلى الإيطالية، تناولت سِيَر مجموعة من النساء كُنَّ مؤثِّرات في الناس والتاريخ، ولكن ليس إلى حد تغييره كما ورد في العنوان، من أبرزهن: حَتْشِبْسُوت Hatchespout، وزنوبيا، وعائشة، والكاهنة، وهدى شعراوي، وأم كلثوم.

23 - (الرجل الذي كان ينظر إلى الليل)، رواية، L'homme qui regardait la nuit، منشـورات (فلاماريون)، سنة 2012، ترجمت إلى اليونانية.

24 - (ليالـي القاهرة)، روايـة، Les nuits du Caire، منشـورات (آرثو) Arthaud، 2013، تحكـي قصة رجلٍ مصري في نحو السـبعين من العمر، هو (كريم)، غادر مصر سنة 1967، وهـو في مطلع شـبابه، وقـرَّر أن يعود إلى الجـذور، ويتعرف على مصيـر حبيبتـه (مـريم)، وكان ذلـك في ينـاير/كانـون الثاني من سنة 2011، فوجد القاهرة تغلي في انتفاضة جماهيرية عارمة.

25 - (ليلـة «ماريتسـبورغ») (مدينة فـي جنـوب أفريقيـا)، رواية، La nuit de Maritzburg، منشـورات (فلامَاريون)، سنة 2014، تتناول حياة (مُهَندَس غاندي) منذ أن أرسلته شركة هندية، وهو لا يزال محامياً صغيراً ناشئاً، إلى جنوب أفريقيا، ليدافع عن مصالحها هنالك، وكيف اكتشف فيها التفرقة العنصرية والإذلال مـن البيض للسـود والملونين، وحتـى لمواطنيه الهنـود فيها، فقرَّر خوض حرب ضد هذا التمييز، ولكن من غير سـلاح سـوى سـلاح (المقاومة السلبية)، فتحول المحامي الصغير الخجول، والجنتلمان علـى الطريقـة البريطانية، يوماً بعد يوم، عملاقـاً وخصماً كبيراً لبريطانيـا الاسـتعمارية واحتلالهـا للهنـد، حتـى اسـتحق لقب الـ (مهاتما) أي (الروح العظيمة) للهند وشعبها.

26 - (النَّسْرُ المصـري: ناصِر)، سـيرة حيـاة، L'Aigl égyptien: Nasser، منشـورات (فلامَاريـون)، سـنة 2015، يتحـدَّث فيهـا عـن الوجـوه المختلفـة لعبـد الناصر منـذ تولى السلطة سنة 1954 إلى وفاته سنة 1970.

27-(رسول الله: حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم)، سيرة حياة، L'Envoyé du Dieu: Une vie du Prophète Muhammad، منشورات الـ (أرخبيل) L'Archipel، سبتمبر/ أيلول سنة 2015، يتصور المؤلِّف رجلاً كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتكونت لديه قناعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله كلَّفه مهمة مقدسة هي جمع كل ما يعرفه عنه من معلومات وأخبار وأقوال، وكتابته ليطلع عليه الناس.

ومن هذا العرض لآثار (سِينُويه) نلاحظ أنها تنتمي إلى ثلاثة مستويات من حيث المضمون، على النحو التالي:

1 - سِيَر الحياة: وهي تتعلَّق بحيوات شخصيات تاريخية من مختلف العصور ومختلف البلدان ومختلف المواقع في حركة التاريخ أو المجتمع أو نوع الخدمة التي قدمتها كل شخصية للإنسانية في التاريخ سواء أكانت خدمة إيجابية أم سلبية، ونجد لدى (سينويه) نحو إحدى عشرة سيرة حياة للشخصيات التالية: أخناتون، يسوع عليه السلام، كاليكست، محمد صلى الله عليه وسلم، ابن سينا، إينيس، ليدي هاملتون، محمد علي باشا، فلورانس، غاندي، عبد الناصر.

2 - القضايا الإنسانية: كقضايا الاضطهاد والمجازر والتهجير التي تعرَّض لها الأرمن واليهود والفلسطينيون في القرن العشرين، إلى جانب قضايا الحب والعلاقات الإنسانية المحضة.

3 - القضايا الفلسفية والدينية: التي تتعلق بمسألة الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام من حيث الاتفاق والاختلاف والصحة والشك، وقضية الوجود الإنساني والخلق والمصير والغاية، وقضية البيئة على الكرة الأرضية،

وقضية العيش مراراً والتقمص والتناسخ لدى البشر.

4 - الرواية البوليسية: وهي (صمت الآلهة)، ويمكن ضمها إلى المستوى الثالث من حيث المضمون الفكري الذي عالجته.

ومما يُذكَر، هنا، أن بعض كتب (سينويه) هذه كانت تُدَرَّس في بعض الثانويات الفرنسية لما لها من أهمية في توعية الناشئة.

(4)
أنشطة أخرى للمؤلِّف

كانت لكاتبنا (سينويه) أنشطة أخرى متنوعة سوى تأليف الروايات، إذا ما استثنينا - بطبيعة الحال - مرحلة النشاط الموسيقي والغنائي في العشرين سنة التي سبقت مرحلة التأليف، ومن أبرزها:

1 - أنه كان يُستضاف في القنوات الثقافية الفرنسية أو في بعض البرامج الثقافية في القنوات الأخرى لإلقاء الأضواء على عمل معين تم نشره مؤخراً، أو لإعطاء صورة عامة عن أدبه وإنتاجاته.

2 - وأنه كان يستضاف أيضاً في المحطات الإذاعية الثقافية الفرنسية أو في بعض البرامج الثقافية في محطات إذاعية أخرى.

3 - وأنه كان يحاضر في بعض المنتديات الأدبية والمراكز الثقافية حول أدبه أو حول شأنٍ ما من شؤون الأدب أو بعض القضايا المتصلة بالشأن العام، أو يوقِّع على كتاب صدر له حديثاً للمعجبين من القراء القدماء أو الجدد.

4 - وأن الصحافيين كانوا يجرون معه لقاءات يتحدث خلالها عن أدبه عموماً أو عن آخر إصدار له أو عن آرائه في

الحركـة الأدبية والثقافية في زمنه، كما كانت بعض مواقع النت الثقافية والأدبية تجري معه لقاءات حول ذلك.

5 - كمـا كتـب سـيناريو وحـوارَ مسلسـلٍ متلفز بعنـوان (قَدَر الدكتور كالفيه) Le destin du docteur Calvet، بالاشتراك مـع (دُنِي كوكـولا) Denis Cocula، بُثَّ على القناة الفرنسـية (FR1) في جزأين من سـنة 1989 إلى سنة 1992 في نحو150 حلقة كما ذكر (سـينويه) نفسـه، ومتوسـط مدة الحلقة نحو 26 دقيقـة. كما أنـه حوَّل روايته (أيام وليـالٍ) ذات الرقم (10) فيلماً متلفزاً أيضاً من جزأين سنة 2005 (على قناة France 3).

6 - شارك في كتابة سيناريو مسلسل متلفَز بعنوان (أسطورة المفاتيـح الثلاثـة) La légende des trois cléfs، وبُـثَّ فـي ثـلاث حلقـات آخـر سـنة 2007 وأول سـنة 2008، علـى القناة (M6)، وهـي القنـاة الثالثة من حيث كثرة عدد المشـاهدين بعد القناتين (TF1) و(France2).

(5)
تأثُّراته

1 - البيئة المصرية:

كان كاتبنـا (سـينويه) متأثـراً تأثراً عميقـاً بالبيئة المصرية التي ولد وترعرع وشب فيها إلى مطلع شبابه، فانغرست طبيعة الحياة القاهرية خاصة في أعماق ذهنه وفكره بكل ما فيها من نكهـات ومظاهر للحياة والعلاقات العامـة وهذا التنوع والثراء الـذي عاصره فيها، فكان وفياً لمصر بإبـراز عظمتها في الماضي ومـا يجول فيهـا في الحاضر، وكان يعبر عن حبه لها من خلال

زياراته المتكرِّرة إلى مصر كلما شعر بشوق إلى مرابع الطفولة، أو كلما سنحت له الفرصة. وقد ألقى بعض الصحافيين، الذين زاروا (سينويه) في مكتبه، نظرة على محتويات هذا المكتب، وكتب يقول: (كلُّ شيء في مكتبه يُذَكِّر باهتماماته: فهنالك عدة كتبٍ جميلة عن مصر، وهنالك نارجيلة كان يحب أن يدخِّنها من حين إلى حين. وصورة المركب الشهير لوالده[12]، الذي قضى عليه القسم الأعظم من طفولته). كما أنه كان يضع (رباعية الإسكندرية) للكاتب الإنكليزي (لورانس دوريّل) Lawrence Durrell [13] قرب سريره، لأنه كان دائم النظر فيها، وهذا يدل على حنين دائم إلى ربوع الوطن الأصلي الذي تكوَّن فيه أولاً.

ولذا كان اهتمامه الكبير في كثير من رواياته ينصب على مصر القديمة أو مصر ما قبيل حملة نابليون وخلالها وبعدها إلى يومنا هذا، وتشهد على ذلك رواياته التي مرت بنا، وهي ذوات الأرقام التالية (3 - 4 - 6 - 13 - 24 - 26).

2 - بعض الكتاب المصريين:

يبدو لنا أن كاتبنا (سينويه) كان متأثراً في تجربة الكتابة الروائية أو التوثيقية أو التسجيلية التاريخية بتجربة الكاتب

---

(12) ذكر (سينويه) أن هذا المركب كان ملكاً للملك فاروق، فاشتراه منه.

(13) لورانس دوريل: كاتب روائي وقصصي ومسرحي وشاعر وكاتب أدب رحلات إنكليزي مغترب (1912 - 1990)، ولد في الهند وتوفي في فرنسا، عاش خلال الحرب العالمية الثانية في الإسكندرية، واستوحى من أجوائها روايته الرباعية (The Alexandria Quartet)، وعناوين أجزائها حسب توالي نشرها: ج1 - جوستين 1957 (Justine)، ج2 - بالتازار 1958 (Balthazar)، ج3 - ماونتوليف 1958 (Mountolive)، ج4 - كليا 1960 (Clea). وقد ترجمت أجزاؤها إلى الفرنسية بعنوان (Le Quatuor d'Alexandrie). وله أعمال أخرى كثيرة في المجالات التي ذكرناها آنفاً.

المصري (نجيب محفوظ) (2006م) في الكتابة التاريخية حين نشر في بداياته الأولى روايات ثلاثاً عن مصر الفرعونية: (عبث الأقدار: أو حكمة خوفو) 1939، و(رادوبيس) 1943، و(كفاح طيبَة) 1944. وكان نجيب محفوظ - فيما يبدو لنا - متأثراً أصلاً بترجمته، وهو طالب فلسفة في السنة الثانية، لكتاب (مصر القديمة) لـ (جيمس بيكي) Games Baikie، سنة 1932.

كما أنه - فيما يبدو لنا - كان يضع نصب عينيه روايات الكاتب (جرجي زيدان) (1914م)، وهو من أصل سوري - لبناني مثل كاتبنا (سينويه)، هاجر إلى مصر في القرن التاسع عشر، وأسس في القاهرة، سنة 1892، مجلة (الهلال) التي أصبح لها مؤسسة كبيرة باسمها هذا، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، وقد ألّف عدداً كبيراً من الروايات التاريخية (نحو 23 رواية)، كان يمزج فيها الوقائع التاريخية بالوقائع الدرامية والخيال، ويضع الحوار على ألسنة الشخصيات التاريخية ويضيف إليها شخصيات فنية من عنده، ويجعل للرواية خيطاً يربط بين بعض شخصياتها بعاطفة الحب والغرام ليكون عنصراً تشويقياً جاذباً، ومن رواياته تلك: (أرمانوسة المصرية) و(الأمين والمأمون) و(العباسة أخت الرشيد) و(شجرة الدُّرّ). ويوجه بعض النقاد إلى أعمال (زيدان) الروائية التاريخية أنه اتَّجه في أغلب أعماله (إلى الفترات المظلمة التي تمثِّل صراعاً على السلطة والنفوذ)، أما (سينويه) فقد كان على عكسه، لأنه اختار - في معظم أعماله - الفترات المشرقة أو الشخصيات المجيدة في التاريخ العربي والإسلامي.

وربما تأثّر أيضاً بشيء من مسرحيات (توفيق الحكيم) (1987م) التاريخية، من مثل: (شهرزاد) و(سليمان الحكيم)، أو بشيء من رواياته، من مثل: (عودة الروح) و(عصفور من الشرق).

وهكذا نجد (سينويه) - في رأينا - يسير على خطى (زيدان) و(محفوظ) و(الحكيم) على الأقل في اتجاهاتهم التأليفية التاريخية.

3 - ثقافته الأجنبية:

كان بحكم إلمامه العميق باللغة الفرنسية لديه اطلاع واسع على الثقافة الفرنسية من جهة، وعلى الآداب والتواريخ والفلسفات التي ترجمت إليها من مختلف اللغات من جهة أخرى. ويبدو أنه كان قارئاً نهماً، ولكنه كان يؤثِر عدداً من الكتّاب الغربيين على غيرهم، ويرتاح إليهم، ولذا نجده يعلِّق صورهم في مكتبه، وهم: الأول الكاتب الفرنسي (غوستاف فلوبير) (1821 - 1880) G. Flaubert مؤلف رواية (مدام بوفاري) فقد كان يعلِّق له صورة عَقْد اتفاق هذه الرواية مع ناشرها بقيمة (800 فرنك فرنسي). والثاني هو الكاتب الإنكليزي (لورانس دورّيل)، صاحب الرواية الرباعية (الإسكندرية) التي جعلته في مصاف عمداء الأدب الإنكليزي، وقد تناول فيها أربع قصص حب من وجهات نظر مختلفة كانت تجري في ظل الأحداث نفسها، وفي ذات الأماكن (الإسكندرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن 20). وقد وصفها أحد الصحافيين - كما رأينا آنفاً - بأنها كانت الكتاب الذي يضعه (سينويه) تحت المخدّة، كناية عن إدمانه مطالعة أجزائها بالترجمة الفرنسية. والثالث هو الكاتب الإيطالي

(دينـو بوتسـاتي)[14] Dino Buzzati، الـذي اشـتهر برائعتـه الروائيـة (صحـراء التارتـار)[15] Le désert des Tartares، وكان (سينويه) يضع هذه الرواية أيضاً قرب سريره لشدة إعجابه بها ليقرأها أيضاً مراراً.

ويعتـرف (سـينويه) بأن هذا المزيج العرقـي والثقافي فيه هو سـر النجاح الذي لقيته أعمالـه[16]، بل إنه هو الذي صنع الروح التي تنتشر في كتبه.

4 - ثقافته الدينية:

كان لتكوينـه التعليمـي في مدارس اليسـوعيين تأثير عميق فـي كل مـا كتب من كتـب تتعلق بشـخصيات نصرانية أو ببعض القضايـا الجدليـة في هـذه الديانـة أو القضايـا المقارنية بينها وبين اليهودية والإسلام، وقد تجلى ذلك في مطلع صلته بكتابة الروايـة التاريخيـة أو التوثيقيـة حين كتب سـيرة حيـاة (البابا كاليكستوس الأول) وهي ذات الرقم (1) آنفاً، وفي الروايات ذوات الأرقـام (5 - 10 - 12 - 17 - 20 - 21)، وإن كان يبـدو لنـا غيـر ملتزم بالنصرانيـة إلا ظاهرياً، لأنـه كان - فيما يبدو لنا - ارتيابياً متشكِّكاً في أمور الأديان عموماً، لكنه كان منفتحاً - من

---

(14) دينو بوتسـاني: كاتب روائي وقصصي وشاعر وصحفي ورسام إيطالي (1906 - 1972)، نشر روايته المذكورة بالإيطالية (Il deserto dei Tartari)، فأثبتت قدمه بين كبار الأدباء في القرن 20، وترجمت إلى الفرنسية سنة 1949.

(15) هو الاسم التشويهي عند الغربيين لـ (التَّتَر)، لأنه اسم مكان في جهنم يعذب فيه المجرمون، وأطلق الاسم هنا في الرواية على صحراء، ولا يعرف سبب ذلك.

(16) وهذا يذكرنا بأصول أمير الشـعراء أحمد شـوقي الذي كان ثمرة خليط عرقي متنوع قال عنه د.شـوقي ضيف في كتابه (شوقي شـاعر العصر الحديث، ص9): (وكان أول ما أعدَّت ربة الشـعر له ميراثَ دمه وأعراقه، فقد جاءت به من عنصر تركي، وآخر شركسي، وعنصر يوناني، وآخر عربي وكردي، فتآزرت فيه هذه العناصر، وأخرجت منه شاعراً ممتازاً، لعلَّ مصر لم تظفر بمثلِه في عصورها المختلفة).

منطلق الموضوعية والفضول - على الإسلام مثلاً في آخر كتاب له عن سيرة الرسول الكريم، وهو ذو الرقم (27) آنفاً.

كان (سينويه) يضع أمامه في مكتبه (التوراة) la Bible. وكان يقرأ بانتظام (القرآن) و(التوراة)؛ إما محبَّة، وإما فضولاً، لمحاولة العثور على جوابٍ للسؤال الأزلي: ماذا نفعل نحن على الأرض؟ فهل وجد الجواب عن هذا السؤال؟ ربما، ولكن هذا الجواب - بالتحديد - هو ما كان يبحث عنه عبر كل كتبه. ويبدو أن اهتمامه بالديانات كان يرمي إلى هذه الغاية المهمة التي حيَّرت ولا تزال تحير بال المفكرين والفلاسفة والأدباء من القديم إلى يومنا هذا.

وينظر (سينويه) إلى التطورات السلبية والعشوائية القائمة على الجهل بحقيقة مقاصد الدين بعين القلق، فهو يدين ضمناً أي عنف أو تطرف غير منضبط باسم الدين، ويرى أن كل ما ركز عليه دعاة الحركات السياسية باسمه تركز على الشكليات كتغطية وجوه النساء وإطلاق لحى الرجال.. ومعاملة المرأة معاملة دونية، والخلافات المذهبية التي تغطي على الأولويات الجوهرية. كما يدين الازدواجية التي تظهر في سلوك كثير من المسلمين بين الالتزام بتعاليم الدين في الظاهر والتحلُّل منها في السر والخفاء وفي خارج بلدانهم، وبخاصة في الغرب. وكان يرى مصر، على سبيل المثال، وهذا ما ورد في الرواية الراهنة أيضاً، يستشري فيها الدعاة المزيفون الذين زاحموا الدعاة الحقيقيين، ليحوِّلوا المجتمع المصري المنفتح إلى مجتمع متزمِّت لدرجة الانغلاق على التيارات العالمية خيراً كانت أم شراً، بعد أن خرجت من هذا المجتمع المغلق إثر الحملة الفرنسية

وفي زمن محمد علي باشا وفي عهد الخديوي إسماعيل. ولعل ما في الرواية الراهنة من وجهات نظر للمؤلف، بهذا الصَّدد، جاءت تلخيصاً لما ورد في روايته (الكولونيل والطفل الملك) ذات الرقم (16).

5 - رؤيته ومواقفه المبدئية وقناعاته:

يلاحظ المرء في روايات سينويه تعاطفه مع الإنسان عموماً بغض النظر عن انتمائه، ونجده يدين القوى الظالمة له أياً ما كانت، فقد كان معجباً بفلسفة (غاندي) في مقاومة الإنكليز في الهند، والتمييز العنصري في جنوب أفريقيا، فخصَّه بكتابه ذي الرقم (25)، وله موقف صارخ من المسألة الأرمنية في روايته ذات الرقم (19)، ومن اليهود في الرواية ذات الرقم (14)، ومن الفلسطينيين في الروايتين ذواتي الرقمين (20 و21)، وكان ينظر بعين الريبة إلى حكم عبد الناصر ويتهمه بالاستبداد والطغيان، مع أنه أنصفه في بعض إنجازاته في الرواية ذات الرقم (26)، وكان يحن إلى فترة حكم الملك فاروق في الرواية ذات الرقم (16). وتحدث عن معاناة بعض الشخصيات وكفاحاتها كما في الروايات ذوات الأرقام (7 - 15 - 18). كما تطرَّق إلى عواطف الحب في الروايات ذوات الأرقام (3 - 4 - 11). ولم يهمل التعبير عن إعجابه بأحد علماء المسلمين في ميدان الطب خاصة في الرواية ذات الرقم (2).

ويمكن القول، باختصار، إن (سينويه) كان سفيراً معرفياً لكثير من زوايا الشرق لدى الغرب؛ فقد عرّفهم ببعض الشخصيات القديمة والحديثة، وبعدد من النساء الشهيرات، وبِحِكَم المفكرين الشرقيين، وببعض همومهم وقضاياهم.

(6)
الرواية الراهنة
(الرجل الذي كان ينظر إلى الليل)

لعل هذه الرواية هي الروايةُ الفنية الوحيدة المتكاملة التي ألفها (جلبير سينويه) حتى اليوم، وقد اعترف هو نفسه بذلك حين عبَّر عن تحولُه عن نهج الرواية التاريخية فقال: (وذات يوم، لم يعُد لديَّ رغبةٌ في التحدُث عن الأموات. فقد قدَّمتُ كل ما كان عندي وأنا أروي عن الشرق)، ثم قال: (يجب أن يتعلَّم المرءُ كيف يمكن أن يغيِّر طريقه في وقتٍ ما).

وقد كتبَت الصحافية والروائية اللبنانية (كارول داغر) في صحيفة (لوريان - لوجور) البيروتية يوم 2013/2/11، مقالة بالفرنسية، بعنوان صارخ عن هذا التحول هو (جلبير سينويه يهجر التاريخ)[17]، قالت فيها: «إن (جلبير سينويه) كاتب الروايات التاريخية الكبير، وهي الأكثر رواجاً، اختار أن يقلب صفحة مهنته المتألقة، ليكتب نوعاً آخر من الرواية أكثر ذاتية». ثم استشهدت بكلام على لسان الكاتب نفسه في بعض تصريحاته حين يقول: (هذا الكتاب يعني لي الكثير، وقد وضعتُ فيه الكثير مني، من ذاتي، وهذا ما لم أصنعه في أي عمل آخر)[18].

وإذا ما تساءلنا، في محاولة منا لفهم حقيقة عنوان هذه الرواية، الذي اختاره المؤلف لها: لماذا كان هذا الرجل، دائم النظر

---

(17) وقد ترجمت صحيفة (الحياة) العربية بباريس هذا المقال ونشرته يوم 2013/3/6 بالعنوان نفسه.

(18) ونجد إحدى المعجبات بالرواية تكتب تعليقاً عن معالجته للطبيعة البشرية فيها، فتقول: (اكتشافُك للطبيعة البشرية قويٌّ جداً كما في أعمال شكسبير) (أمل دوزي A. Douzi).

إلـى الليـل؟ هل كان يسـتطلع فيه جمالياته من ضـوء القمر أو تناثر النجوم أم هو معجب بهذا السـكون الذي يلف به الكائنات والطبيعة؟ فيمكن أن نجيب عن هذا السـؤال، من خلال معايشة هذه الرواية، بأن هذا النظر إلى الليل إنما كان نظرة إلى الجانب المظلـم، والمخفـق، والمهـزوم، والحزيـن، والمتشـائم مـن الحيـاة. والدليـل على ذلـك أن الطبيـب العجوز (باباداكيـس)، الصديق العجـوز لـ (تيوفـان) ينصحه قائلاً: (إن أفـكارك تعمل كمنقِّياتِ (فلاتـر) على جهـاز تصوير، فغيِّر منقياتـك، أعني طريقتك في رؤية العالَم، وسـيتكيَّف جسـدُك مع إحساسك الجديد)، ويقول له مرة أخرى: (غيِّر منقِّياتِك، غيِّرها بسـرعةٍ، وكُفَّ عن أن تُرشِد الليلَ إلى خلاياك).

ولكن هذه النظرة المظلمة إلى الحياة سـتزول أخيراً، لتصبح فـي خبر (كان) الذي ورد فـي العنوان، وينتقل للنظر إليها نظرة تفـاؤل وحـب وتعلُّق وأمل، فانتقل في نظـره إلى (النهار) إن جاز التعبيـر. وعاد ينظـر إلى الليل نظرته الرومانسـية الباحثة عن اللذة والجمال فيه.

من هو بطل الرواية؟

لقد اختار (سـينويه) لروايته هذه بطلاً سماه (تيوفان دِبّانِه) زعـم أنـه جاء مـن (مصر) ليـدرس الطب فـي (باريـس)، فانكب علـى دراسـته وكان ينجح كل سـنة نجاحاً باهراً لفـت إليه أنظار أسـاتذته، فأبدوا إعجابهم به، ورشحوه لمتابعة دراساته العليا في الطب، وتخصص بجراحة القلب، وتخرج في جامعته، وراح يعمل في المشافي في هذا المجال وبرع فيه واكتسب شهرة عالمية، جعلت منـه خليفـة لأول من أجـرى عملية في العالم، وهو (كريسـتيان

بارنارد)[19] (م2001) الذي أجرى أول عملية نَقْل قلبٍ بشري في العالم، وفي تاريخ البشرية كلها، وزَرَعَه في صدر مريض قلب تم استئصاله، في أحد مشافي جنوب أفريقيا يوم 1967/12/3، وتابع هذه العمليات وخرَّج كثيراً من المختصين بها في العالم حتى سنة 1983.

وقد أصاب الدكتور (تيوفان دِبّانه) مجداً عظيماً وحقق ثروة طائلة، وصار الجميع يتقرّبون منه ويطلبون صداقته أو رضاه، وعمد إلى اختراع طريقة خاصة به لإجراء العمليات في القلب. ولكنه عندما طبقها وقع في خطأ بسيط أودى بحياة المريض، ففقد الثقة في نفسه، وانكفأ على ذاته، ولم يتحمَّل عذاب الضمير، وقرَّر الانسحاب من عالم جراحة القلب والأضواء والشهرة والمال.

وبالفعل، يحزم أمتعتَه ويسافر سراً إلى إحدى جزر الأرخبيل اليوناني في شرقي بحر إيجة تدعى (باتموس)، كانت جدته لأمه تنتمي إليها، وهي جزيرة نائية وهادئة وسكانها بسطاء. وقد عُرِفت تاريخياً بأنها كانت ملاذ (يوحنا اللاهوتي) الرسول، وفي إحدى مغاراتها كتب (رؤياه) الشهيرة التي نقرأ نصها في آخر الأناجيل الأربعة، فأسبغ بذلك على هذه الجزيرة نوعاً من القدسية في تاريخ النصرانية.

(19) بارنارد: هو (كريستيان Christiaan -) طبيب من (اتحاد جنوب أفريقيا) (1922 - 2001)، أصبح مشهوراً بعد نجاحه في إجراء أول عملية لنقل قلب بشري وزرْعه في 1967/12/3، استمرت عشر ساعات، نقل خلالها قلب شابة توفيت بحادث سير، عمرها 25 سنة، إلى جسد رجلٍ عمره 53 سنة. وقد توفي (بارنارد) نفسه في (بافوس) Paphos بقبرص عن عمر 78 عاماً بنوبة قلبية، وكان قد كفّ عن إجراء العمليات منذ سنة 1983، إثر إصابته بروماتيزم اليدين (المترجم).

لقد اختار الدكتور الشهير (تيوفان) هذه الجزيرة، وزعم لأهلها أنه طبيبٌ عام، وأخفى عنهم حقيقته؛ وظلّ يحمل في صدره آلاماً تعكِّر عليه صفو حياته، وهو يكتم السر الدفين فيه عن جميع الناس، وقد هجرته زوجته نهائياً، وكان ابنه (تيمور) فتى مراهقاً، دائم اللوم لأبيه لمسؤوليته في مغادرة أمه بيت الزوجية. ويتعامل مع أبيه تعامل الند للند، ويتحمَّل منه أبوه نقده اللاذع والثقيل، لأنه كان يراه على حق في كثير من الأحيان ويتأفَّف منه في بعضها، إلى درجة أن (تيمور) يجرؤ أن يقول لأبيه: (أنا إذاً أخوك الأكبر). وكان أبوه يقول له: (نحن الاثنان كلٌّ منا سجينٌ في الآخر. فأنت أنا، وأنا أنت: فكيف الخلاص؟). وما يثير فضولنا ذات مرة أن (الباشا) سأل (تيوفان) إن كان عنده ولد فتجاهل السؤال.

ومنذ وصوله تعرَّف على عدد من الأفراد الذين أصبحوا أصدقاء حميميّين له، وبحكم كون جدته يونانية من هذه الجزيرة نفسها، فقد كان يتفاهم معهم باليونانية لأنه يتقنها، وأحياناً يكلِّم بعضهم بالفرنسية لدراستهم في فرنسا، وكان في كل يوم يزور مرضاه قبل الظهر ويتفرّغ للذهاب بعد الظهر إلى المطعم - المقهى، وهو إلى ذلك يشرب ويلعب طاولة الزهر. وكان يدخن في البيت مساء، يعزف على (الغيتار) الذي هو آلته الموسيقية المفضلة، ويحب سماع بعض الكونشرتات والقطع الموسيقية المشهورة عالمياً. وكان يسارع إلى إسعاف أي حالة طارئة في أي وقت من النهار أو الليل وفي أي جوّ. وكان له حصان أحضره معه من فرنسا سماه (جيهول أو جيول) يمارس عليه هواية ركوب الخيل على الشاطئ كلما شعر بضيق، وقد عهد به إلى أحد

الفلاحين في (باتموس)، كما كان يمارس رياضة السباحة في البحر هنالك. وكان من أبرز أصدقائه:

1 - باباداكيس: وهو طبيب ومثقف ثقافة عالية ومتقدِّم في السن، ومتفلسف من الدرجة الأولى، ودائم النقاش مع (تيوفان)، حول قضايا فكرية وفلسفية وطبية وعلمية.

2 - ديمتري: وهو صاحب مزرعة عنب، ويعصر منها نوعاً فاخراً من الخمر، وهو رجل بدين يحب الطعام والشراب والنساء والتدخين ولعب طاولة الزهر، ويطمع في شراء أرض مجاورة لمزرعته ليتوسَّع في عمله.

3 - بيبا: وهي امرأة ذات تاريخ معقد جداً، تبلغ الخامسة والأربعين تقريباً، اشترت نزلاً في الجزيرة لتديره بنفسها، وكان لها ابنة مشلولة الساقين من سن 12 تدعى (أنطونيا)، وتبلغ الآن 26 سنة، جميلة، لكنها عنيدة ومنطوية على نفسها، ومتشائمة من وضعها، إلى أن طلبت أمها الطبيب (تيوفان) ليعالجها من حمى، فكان لقاؤهما في البدايات عدوانياً من قِبَلها، ثم استأنست به ونشأت بينهما مودة خاصة، تحولت إلى إعجاب شديد وحبّ. ويحاول الطبيب أن يعيد إلى ساقيها بعض التحسن قدر الإمكان، وينجح في ذلك تدريجياً، ويعترض ابنه (تيمور) على علاقتهما. وكان لـ (أنطونيا) أخ أصغر هو (أليكسيس) مراهق ويحب تحطيم الرقم القياسي في كتْم النفَس تحت الماء في البحر.

4 - الباشا: صديق قديم لـ (بيبا)، يبلغ قرابة 76 سنة، يوناني الأصل كانت أسرته تسكن في الأناضول، واضطرت أسرته - وهو صغير - للجوء إلى مصر، وترعرع وشبَّ فيها وخالط

أهلها، وأحبّ (ليلى) المصرية المسلمة الجميلة، وتحول إلى دينها الإسلامي، ولو ظاهرياً، ليتزوج منها لشدة حبه لها، لم ينجبا، ثم ماتت ليلى وترمّل وبقي عزباً بعدها إلى أن تعرّف، وهو في نحو الستين، على (بيبا) لمجرد الصداقة، وبسط من وقتها رعايته عليها وعلى ابنيها اللذين أصبح بمنزلة الوالد لهما، وكان يعيش معهم في الجزيرة بعد انتقالهم إليها من (أثينا) العاصمة. واكتسب لقب (الباشا) من هيبة طلعته ووقاره وغناه وأريحيته، تأثراً بسمعة الباشوات العثمانيين أو اليونانيين في العهد العثماني في اليونان. وربما اكتسبه على الطريقة المصرية في إضفاء لقب (الباشا) على كل متميز بالسلطة أو المال أو المنصب أو العلم أحياناً من باب الإجلال أو الاحترام.

كان في حياة (تيوفان) سر عميق يجعله دائماً غامضاً وحزيناً، وكانت (بيبا) أول من أدرك وجود سر يقلقه باستمرار: (إن هذا الرجل يخبِّئ سراً كبيراً)، لكنها لم تعرف ماهيته، وتحاول مع (الباشا) و(أنطونيا) وصديقيه (باباداكيس) و(ديمتري) أن يدفعوه إلى البوح بما يثقل كاهله، ويتم لهم ذلك بعد أن تنفُض له (بيبا) كل ما في جعبتها من أسرار خطيرة مليئة بالفضائح والعذابات في حياتها، ويلعب اهتمامُ الطبيب (تيوفان) بـ(أنطونيا)، وإجراءُ جراحة ناجحة لأخيها في القلب، بعد أن علمتْ أنه كان في الأصل جرَّاحَ قلبٍ مشهوراً لا طبيباً عاماً، في إخراجه من المتاعب النفسية التي كان يعانيها، ويتخلّص من تأنيب الضمير الذي كان يلاحقه باستمرار، ليعيش مع نفسه ومع الناس ومع من حاول أن يخرجهم من آلامهم، وليتصالح مع الحياة عموماً. وتكشَّف السر الكارثي بصورة مفزعة ورهيبة،

وظهر لنا السبب الحقيقي وراء هروبه الطوعي إلى العزلة عن عالم الشهرة والمجد والثروة والطبقات المخملية التي كان يعيش فيها ويتمتع بملذاتها النفسية والمادية.

(7)
فلسفة الرواية

كانت حياة (تيوفان) رحلةَ طموحٍ، وتحقيقِ مجد، وإخفاقٍ، ونجاح، وسرور وألم، وتعالٍ وتواضع، وعَيش في برج عاجي وتحوُّل إلى وسط الناس العاديين والبسطاء، أو من الطبقة الوسطى، وكان يعبر عن أزمة الهوية الضائعة ما بين مصر وفرنسا واليونان، أو أزمة انعدام الجذور التي كانت تشعره بأنه خارج المكان وإن كان فيه، وخارج الزمان وإن كان يحسّ به. علماً أن (أنطونيا) في هذه الرواية تعيده إلى هويته العربية لمجرَّد تسليمه بـ(المكتوب) تأثُّراً بقيم الإسلام الذي عاش في وسطه بمصر، حين تقول له: (أنت بعدَ ما يقرب من ثلاثين عاماً في الغرب تظلّ في النهاية عربياً).

كانت فلسفة هذه الرواية تقوم على انبثاق النور من وسط الظلام، وخروج المرء من آلامه من خلال معالجة آلام الآخرين أو التخفيف منها، وهذا يقترب من بعض المقولات السائدة بيننا - نحن العرب - وهي أنَّ مَنْ رأى مصائب غيره هانت عليه مصيبته، وأنْ ليس بعد الشدة إلا الفرج. واختيار الكاتب لبطله منفى في جزيرة (باتموس) دون غيرها من عشرات الجزر اليونانية، كان القصد منه السير على طريق النور الذي سار عليه (يوحنا اللاهوتي الرسول)، وبالفعل نجح الكاتب في تعريفنا بهذه الجزيرة وقيمتها التاريخية والدينية في النصرانية بخاصة،

كمـا أظهـر لنا جماليات هـذه الجزيرة الطبيعيـة، مما قد يغري القارئ الكريم بزيارتها يوماً ما.

تطرح الرواية مشـكلة الإعاقة عند الإنسـان، ويرى الكاتب أن معظم الناس معاقون بشـكل أو بآخر، حتى (تيوفان) كان يشـعر بـأن لديه إعاقة نفسـية لأن ماضيـه كان يجثم على صدره ويكاد يخنقه بحمله سراً ثقيلاً منه، وكان يرى أن (أنطونيا) هذه الفتاة الشابة هي التي سوف تعالجه من هذه الإعاقة النفسية وتشفيه منها. وقد تحقق لكلٍ منهما هذا الهدف في نهاية المطاف، فأقبلت الفتاة بتفاؤل على الحياة، وتجاوزت عقدة الشعور بإعاقتها، ولم تعد ترى في نظرات الناس إليها نظرات شفقة وإنما نظرات حب وإعجـاب ولامبالاة. واسـتعاد هو ثقته في نفسـه وعاد إلى عمله الجراحي بنجاح بعد أن باح بكل ما في صدره من أسـرار الماضي التي تفاجئنا وتصدمنا وتشعرنا بالحزن والألم الذي طالما شعر به هو نفسه وحاول كتمانه قدر ما استطاع.

لقد كان يمارس ركوب الخيل، على حصانه (جيهول) الذي كان يقـول عنه: (جيهـول هو طبيبي)، ويقول عـن ركوب الخيل بحد ذاتـه إنه (يريحني ويخفِّف من عصبيتي)، كان ذلك قبل التعرف علـى (أنطونيـا) التي حاول أن يدمجها فـي الحياة ويدخلها في دائـرة التفـاؤل، وكان يـرى فـي علاجها علاجـاً له بالـذات، وقد اسـتعمل وصفة الركوب علـى الخيل معها أيضـاً، وعلى حصانه نفسـه. وقد صـرَّح لها بأن بعض الناس يعالجون أنفسـهم ولكن عن طريق ممارسة الفن أو السياسة أو غيرهما، وهذا يكشف لنا عن صدق ما يقوله علماء النفس من أن الأدب والفن وسـواهما تنفيس عن كرب عند من يمارسهما.

كتبت قارئة معجبة تعليقاً على قراءتها هذه الرواية تقول: (تبدأ هذه الرواية معتمة جداً.. وفي القسم الأخير منها يظهر النورُ، والحبُّ، والتحرُّرُ، وساعةُ الخلاص)، وكان حقاً ما قالت.

(8)
بانوراميةُ المواضيع

يلاحظ القارئ - أثناء رحلة قراءته هذه الرواية - أن حياة (تيوفان) الطبيب المشهور، بتفاصيلها الكبرى، تسير على خطٍّ يكاد يكون متوازياً مع خطِّ حياة مؤلِّفنا الكاتب (سينويه)، فكلاهما انطلق من مصر، وكلاهما حقَّق طموحه في النجاح الذي كان يريده، وكلاهما مرَّ بأوقات سعادة وشقاء، وكلاهما يشعر بتذبذب هويته في ميزان الانتماء الذي لا يرحم. لقد كانت قضية الهوية والاندماج والشعور بالغربة هاجساً للبطل وللكاتب في آن معاً[20]، أي أن هذه الرواية تكاد تكون سيرة ذاتية للكاتب ولكن في قميص طبيب من بنات أفكاره. ولذا قالت الكاتبة (كارول داغر) في مقالتها التي أشرنا إليها: (إن أوجه الشبه بين الدكتور «تيوفان» والروائي «جلبير سينويه» واضحة ولا تحتمل الشك).

وهذا يؤكِّد ما قلناه آنفاً من أن هذه الرواية كانت الرواية الفنية الوحيدة الكاملة أو المتكاملة، خلافاً للروايات التاريخية التي تغلب عليها - بطبيعة الحال - النزعة الموضوعية والتقيد

(20) ولكن مما يعزِّي كاتبنا في هذا المجال أن غيره من الجنسيات والبلدان الأخرى تفرنسوا وكتبوا بالفرنسية واشتهروا بذات الطريقة وربما عانوا ما عانى وأكثر، من أمثال: يونسكو، وبيكيتّ، وآداموف، وآسيا جبَّار وغيرها من الجزائريين والمغربيين والأفارقة واللبنانيين، وغيرهم.

بالمعطيات التاريخية الثابتة عموماً. وهي سيرة شبه شخصية للكاتب، مما يدلّ على تأثير كتاباته السابقة في السِّيَر والتراجم الروائية التاريخية تأثيراً عميقاً في قلمه وفي تفكيره.

لقد كانت مصر التي خرج منها إلى بلد ثقافته - كما كان قد زعم - دائماً في تفكيره، وبدلاً من أن يغنينا - من خلال ثقافته الفرنسية - بشيء عن فرنسا وحضارتها أو حضارة الغرب، راح يغني الثقافة الفرنسية والغربية بما يعرف عن مصر بخاصة والشرق بعامة. وكانت ذكرياته، التي هي نسخة محفوظة في ذهنه عما عاشه عملياً في القاهرة والإسكندرية وغيرهما، كثيراً ما تطفو على سطح أوراقه في هذه الرواية، فيسردها بشيء من الحنين.

ولذلك نجد في هذه الرواية وقائع تاريخية وسياسية واجتماعية وفنية وأماكن وأحداثاً وشخصيات ومعلومات وأسماء حقيقية كثيرة تجعل كثيراً من فصول هذه الرواية تكاد تكون تسجيلية. ومن خلال هذه الحقيقة نستطيع أن نحكم على هذه الرواية بأنها كانت بانورامية المواضيع، لأنه التقط فيها لقطات كثيرة بشأن مواضيع لا يكاد يجمعها جامع سوى اهتمامات الكاتب، وتعرض علينا شرائح من الحياة متنوعة. وكان لمصر نصيب كبير من هذه الشرائح واللقطات. ووقف عند طبيعة التعليم اليسوعي في مصر، وقد ذكر بعض المعلومات عن شخصيات مصرية عامة: رياضية وغنائية وفنية وسياسية أيضاً.

وقد بثّ الكاتب في روايته بعض الألفاظ العربية التي بقيت في ذاكرته، كما أن بعض الكلمات العربية وردت على لسان (الباشا) الذي عاش في مصر ردحاً من الزمان قبل أن يعود إلى اليونان.

وبث الكاتب أيضاً على لسان (بيبا) و(ديمتري) كثيراً من الكلمات والعبارات اليونانية لتأكيد إلمامه بشيء من هذه اللغة التي تنتمي إليها جدته لأمه وعيشه حقيقة، ولو في الخيال، على أرض اليونان، وقد كان يستعمل الحروف الفرنسية في التعبير عن أصوات هذه الكلمات، وقد قمنا بإثبات أصلها باللغة اليونانية. كما عرَّفنا على كثير من المأكولات والحلويات وأنواع الأشربة وبعض أنواع الفنون والآلات الموسيقية في اليونان. وأهم من هذا ومن ذاك أنه عرَّفنا على استغراق اليونانيين في أساطير أجدادهم، وأطلعنا على بعض المعتقدات التي تتعلَّق بجملة من الآلهة التي كانت موزعة الاختصاصات كما هو معلوم على مختلف أنشطة الحياة البشرية. وقد تطرَّق إلى القدسية التي تحملها جزيرة (باتموس) في الدين النصراني وسبب ذلك. وبيّن كيف يعيش اليونانيون اليوم بين قطبين: الدين النصراني والأساطير القديمة الميتة - الحية في عقولهم. ووصف بعض أخلاق هذا الشعب المتوسطي العريق، وعرَّفنا ببعض شعراء اليونان وأدبائها المشهورين في العصر الحديث.

وسجَّل مواقف سياسية واجتماعية ودينية وإنسانية كثيرة من خلاله أو من خلال (الباشا) أو (بيبا)، وهو يندِّد دوماً بالأنظمة الشمولية والاستبدادية. ويتعاطف مع الشعوب التي عانت الاضطهاد والعنصرية والتصفية العرقية والاحتلال والإجلاء. وذكر حريق القاهرة سنة 1952، وما تلاه من ثورة الضباط الأحرار بمصر في السنة نفسها، وتأميم قناة السويس سنة 1956، وما تلاها من إجراءات، وكان له موقف من عبد الناصر، وموقف آخر من انقلاب الضباط أو العقداء في اليونان سنة

1967. كما كان يستنكر ما يجري في العالم من هتك لحقوق الإنسان في مختلف البلدان. ويستنبط القارئ أنه كان يرى أن ما جرى في مصر والأقطار العربية - بعد خروج الشاه من إيران وحلول الخميني محله - قد انعكس في صورة تحوّلات سلبية نحو التزمُّت والتيارات السياسية الدينية العملية القائمة على التطرف أو الجهل بمقاصد الدين الحنيف الحقيقية والصحيحة، مع الانغماس في الشكليات دون الجواهر، والميل إلى العنف المناقض لطبيعة الدعوة السمحة، والانفصام عن الواقع المعاصر ومتطلباته الجديدة التي تحتاج إلى مرونة وصدق في الاجتهاد وحلٍّ المشكلات في كثير من الميادين بما يتناسب مع تطور الحياة عبر ألف وخمسمئة سنة من الزمان.

وأدخل في الرواية كثيراً من المعلومات الطبية المتعلقة بجراحة القلب، وبعض الأمراض كشلل الأطفال، والأزمات ومهنة الطب، ووصَف وصفاً علمياً مخيفاً كيفية تحلُّل الجسد البشري بعد مفارقة الروح إياه ودفنه.

وكان الكاتب يطرح بعض القضايا الفلسفية والعلمية والدينية التي تتعلق بالوجود والمصير والغاية من الحياة البشرية، وغير ذلك من القضايا التي تشغل بال الناس العاديين والفلاسفة والعلماء والمفكرين منذ أقدم أزمنة التاريخ الإنساني. ويدخل في جدال حول ذلك مع بعض أصدقائه. وكثيراً ما كان إبراز قيمة الحياة البشرية وإنقاذ الناس من آلامهم يتردَّد على لسانه ولسان بعض الشخصيات الأخرى. وحين يلتفت إلى ما في العالم من مظالم كان يرى أن الإنسانية لا تستحق هذا الكوكب الجميل الذي تعيش عليه.

ومن أبرز الجوانب الإنسانية في الرواية تسليط الضوء على قضية الإعاقة عند كثير من الناس. وتسلط الرواية الضوء على موقف (الباشا) من إنجاب الأطفال، وعلى التأثير الذي وصفه (تيوفان) بأنه أقوى من أي مخدِّر للمجد، والشهرة، والقوة. كما تطرَّق إلى عناد الشباب ومخالفته لأفكار الشيوخ من جيل الأجداد والآباء.

(9)
تقنيات بناء الرواية وأسلوبها

1 - من المسلَّم به أن المضمون الذي يتناوله الكاتب يتحكَّم عادة بطبيعة الكتابة التي تحيط به وتستوعبه، فتناولُ موضوعٍ تاريخي يختلف تماماً عن تناول موضوع ذاتي، وقد عبَّرَ (سينويه) عن هذا الاختلاف بين تجربتيه في كتابة الرواية التاريخية والرواية الفنية الراهنة، فذكر أن كتابة الرواية التاريخية تتطلَّب منه التقيُّد بما يحفظه التاريخ، وأن يظلّ ملتزماً به، أما كتابة رواية تغوص في الذات الإنسانية، فإنها تمنحك قوة استثنائية، وأضاف قوله عن تجربته في الرواية الراهنة: (وأنا أكتبُ هذه الرواية كنتُ متحرِّراً من كل شيء: من التاريخ ومن قيود الشكل والمضمون. تنقَّلتُ بحرِّيَّة من غير أن أوجِّه لنفسي الأسئلة والحلول، وشعرت بأنني أكتبُ وهواء الحرية يعصِف من حولي).

لقد كانت حرية الكتابة، بلا قيد من تقنيات الشكل والمضمون، هي التقنية الجديدة التي كانت تدير كتابته وتتحكم بها في هذه الرواية.

2 - قسَّم (سينويه) روايته أربعة وعشرين فصلاً مرقَّماً بلا أي عنوان لأي منها. وكانت هذه الفصول تتميَّز إجمالاً بالقِصَر، وتكاد تكون مساحاتها متساوية تقريباً.

لم تكن الرواية تقليدية من حيث الخط الدرامي الذي يتصاعد حتى يخلق فينا توتراً تعبِّر عنه الحبكة، ليليها الحل واختتام الأحداث بإغلاق دائرتها أو بتركها عند حد معين. بل كانت سرداً أشبه باليوميات أو المذكرات التي تتراكم صعوداً وعرضاً فصلاً بعد فصل.

3 - يعتمد الكاتب على تقنية استعادة بعض المشاهد أو العبارات بحذافيرها عن طريق تقنية الاستذكار. كما أنه كثيراً ما كان يقطع اللحظة الراهنة التي كان مستغرقاً فيها بفاصل من الذكريات مفاجئ قد تستدعيه فكرة، أو موقف، أو صورة معينة، أو سؤال ما، أو لحظة ألم، وكانت ذكريات حنينه إلى مصر التي ولد وعاش فيها نحو عشرين سنة بكل ما فيها من نكهات خاصة لكل شيء، تثير فيه الدفء واللذة، وكانت صورة العملية الجراحية المخفقة تلاحقه وتثقل على ضميره، وكانت بعض صور السعادة تتردَّد على ذاكرته، إلا أن ابنه (تيمور) كان قد رأى أن كل أنواع الذكريات كانت تثير فيه الحزن عموماً، ولذا نصحه بقوله: (تخلَّص من ذكرياتِك، فإن الذكريات ساعات جدارية متوقِّفَة).

4 - وكانت الواقعية شبه المطلقة تشكل عند (سينويه) تقنية أساسية في كل الرواية، لأنه كان يصوِّر البشر كما هم في الواقع، فيسرد علينا رذائلهم وفضائلهم كما هي بلا وعظ، ولا دعوة إلى التحلي بما هو مثالي، ولا مبالغة. وربما أجرى على السنة

شخصيات روايته أنفسهم ما هم عليه مما يدل على شجاعة هذه الشخصيات وثقتها بنفسها.

5 - كانت هذه الرواية تحمل روحاً مسرحية، نظراً لأن الحوار كان طاغياً فيها على السرد طغياناً يكاد يحوِّلها مسرحية بأقل جهد، وربما كان طغيان الحوار هذا قد قام، هنا، بوظيفة السرد نفسها، لأن الحوار يكشف طبيعة الشخصية وصفاتها وسماتها، لأن العرب تقول: (المرء مخبوء تحت لسانه)، ولا يدرك الآخَرُ طبيعةَ هذا المرءِ حتى يسمع كلامه، وهنا تعبّر الشخصية عن نفسها بنفسها، كما في المسرحية تماماً. ونلاحظ أن الرواية بهذه السمة يمكن أن نحكم عليها بأنها بين المسرحية والرواية، ويمكن وصفها بأنها (مَسْرِوايةٌ)، إن جاز لنا هذا الوصف لهذه الطائفة من الروايات التي تنطبق عليها هذه السمة الوسطية بين نوعين سرديين لهما في الأصل شروطهما النوعية المستقل بعضها عن بعض.

6 - كان الكاتب يتحدث عن بطله بضمير الغائب، إلا حين يجري الحوار على لسانه، وألسنة الشخصيات الأخرى فيتنقل الضمير ما بين هو وأنت وأنا ونحن.

7 - لعلَّ التجربة المريرة التي مر بها آدم عليه السلام في قصة الخلق، وهي النقلة من النعيم إلى الشقاء بسبب هفوة، هي التي ألهمت (سينويه) الخط العام لروايته، وكأن لسان حاله يقول ما قال شاعرنا الفرزدق في العصر الأموي حين طلَّق زوجته المحبوبة (نوَاراً):

نَدمْتُ نَدَامةَ الكُسَعيِّ لمّا ... غَدَتْ مني مُطَلَّقَةً نوَارُ
وكَانتْ جَنَّةً فخرجتُ منها ... كآدَمَ حيْنَ أخْرجَه الضِّرارُ

مع فارق واحد هو أن بطل روايتنا الدكتورُ جرّاحُ القلب الشهير، عاد إلى السعادة التي كان قد فقدها، بحب جديد ومجد كان يرتسم تحت ناظريه في مستقبل جديد، بعد أن تغيَّرت نظرته إلى الحياة، واكتسب تجارب جديدة جعلته أقرب إلى النبض الإنساني الذي هو جوهر مهنة الطب منذ أن وضع أبو قراط لزملائه عبر التاريخ إلى يومنا هذا قَسَمَه الشهير، والذي يخالفه الكثير منهم - للأسف الشديد - في هذه الأيام.

8 - من ميزات هذه الرواية الأسلوبية حشده لعدد كبير من الإشارات والوقائع والأحداث التي كانت تحتاج إلى قارئ واسع الثقافة - حتى في الغرب - ليتمكن من الإلمام بها جميعاً، وهذا ما اضطرنا إلى الوقوف عند هذه الإشارات لتفسيرها وتوضيحها على وجه العموم.

9 - كان (سينويه) ينقل النصوص المقتبسة من مصادرها بدقة وأمانة، كما فعل في خبر الرياضية الدانماركية المعوقة مثل (أنطونيا) في الخمسينيات حين كانت تمارس الفروسية وتدرِّب عليها. وحين نقل مقاطع من (رؤيا يوحنا اللاهوتي) في آخر الأناجيل الأربعة المعتمدة.

10 - النزعة التسجيلية التي رأيناها في وقوفه على كثير من الوقائع السياسية والاجتماعية، وكأنه لا يزال واقعاً تحت تأثير كتاباته التاريخية السابقة.

11 - النزعة البانورامية في عرض المواضيع التي كان يتطرق إليها، حتى بدا لنا في الرواية خط عمودي عريض ومستقيم يبدأ بليل وينتهي بنهار، تتفرع على جوانبه مجموعة تفريعات موضوعية أشبه بالأغصان المنبثقة من جذع شجرة.

12 - كان الكاتب يستعمل في بعض جوانب روايته تقنية حديث النفس الداخلي أو التفكير بصمت، ليتيح لشخصياته أن تكشف ما حولها، وتوازن بين الأمور، وتحدِّد المواقف، لتتخذ لنفسها موضع قدم بين الشخصيات الأخرى في الواقع الذي تحدِّده العلاقات فيما بينها، أو ربما لمجرَّد فهم ما يجري حولها.

(10)
دور الإنترنت في عمله الأدبي

كنا قد استنبطنا، عند ترجمتنا رواية (إني أتعافى)[21]، أن مؤلفها (دافيد فوينكينوس) كان بارعاً في الإبحار عبر مواقع الإنترنت، وكان يفيد منها معلومات يحشدها في روايته، ويبدو أن كاتبنا (سينويه) كان يتبع النهج ذاتَه في مثل هذا الإبحار، ولعل هذه السمة كانت عامة بين كتّاب الأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية عند الكتّاب المعاصرين منذ أن أصبح الإنترنت المرآة السحرية للبشرية كلها من الناحية العملية منذ تسعينيات القرن 20 وإلى يومنا، وهي تزداد أهمية يوماً بعد يوم لما تقدمه من زاد معرفي لا حدود له. ولذا نجد كاتبنا (سينويه) يقول بكل صراحة عن مصير (الغيتار) الذي شغل هوايته منذ فترة مراهقته بمصر، حتى دفعه إلى دراسة الموسيقى بـ (باريس) والانغماس في أجوائها مدة عشرين سنة تقريباً، وكان صديقه ورفيقه الدائم، حتى إنه رافق (تيوفان) بطل روايتنا الراهنة أيضاً، يقول بعد أن صرف اهتمامه الرئيسي في مرحلته الثانية من حياته إلى الكتابة: (وتَمَّ رَكْنُ الغيتار في زاويةِ صامتاً، لأنه

---

(21) العدد 407 من سلسلة إبداعات عالمية، يونيو سنة 2015.

كان ينتمـي إلـى الماضـي. وحـل الكمبيوتـر محلَّه اختيـاراً)، ثم أضـاف قوله عـن دور هـذا الكمبيوتر: (كنـتُ أبدأ بحوثـي غالباً على الإنترنت). ويفسِّر لنا لماذا لا يأخذ إجازة، أو فترة راحة، بين كتابـين، فيقـول: (أولاً لأنني أعيش من قلمـي، ومن ثَمَّ كان عليَّ أن أُصارِعِ الجانب الشرقيَّ في نفسي. وكان لديَّ أيضاً ميلٌ مُزعِجٌ إلى السباحة في الخيال، وإلى تركِ الحياة تحملني حيث تريد).

وقـد أشـرنا من قبل إلى بعض المواضع التـي تدل على إفادته من هذه المرآة السحرية التي تدل على عبقرية الإنسان، ونضيف إلـى ذلـك أن للكاتب موقعاً على الإنترنت يمكـن متابعة أعماله وبعـض المعلومـات والصـور عـن حياتـه وميوله مـن خلاله وهو (sinoue.fr).

الختام:

لا يسـعني، في ختام كلامنا عن هذا الكاتب العربي المستغرِب والمبدع، إلا أن أتمنى له مزيداً من العطاء، ولا سيما أنه قد ختم هذا العام بما يعرِّف - بطريقته - الفرنسيين بخاصة والغربيين بعامة، برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، سائراً في ذلك على خطى الشـاعر والكاتب الفرنسي الشهير (ألفونس دو لامارتين) (1869م)، الـذي كتـب عن (حياة محمد) كتابـاً من أروع ما كُتِب فـي الغرب بموضوعية وإنصاف، وقد تُرجِم كتاب (لامارتين) هذا ونُشِـر في مؤسسة عبد العزيز سـعود البابطين للإبداع الشعري العربي بالكويت، بمناسبة عقد ندوة في مبنى اليونسكو بباريس في خريف سنة 2006 بعنوان (شوقي - لامارتين). كما أتمنى أن يكـون في ترجمة الرواية الراهنة إغنـاءٌ للغتنا العربية العريقة،

وإمتــاعٌ للقارئ العربي الكريم بما يجـد فيها من تجارب جديدة في الحياة، وتقنيات مفيدة في فن الســرد على الطريقة الغربية في آخر مراحلها. والله ولي التوفيق.

دمشق - الأربعاء 2015/11/5

د.محمود المقداد

«ولكنْ عَمَّ تبحث أرواحُنا،
وهي تسافر هكذا من ميناء إلى ميناء
على هياكلِ سفنٍ مهترئة؟
ناقلةً أحجاراً لامعةً،
مستنشِقةً رطوبةَ أشجار الصنوبَر بصعوبة أكبر،
كل يوم،
تارةً في مياه بحرٍ، وتارةً في مياه بحرٍ آخر،
بلا احتكاكٍ، ولا أناسٍ،
في بلد ليس بلدنا،
ولا بلدكم أيضاً.
لقد كنا نعلم أن الجزُرَ كانت جميلة،
في أيِّ جهة قربَ المكان الذي نذهب إليه بلا تبصُّر،
سواءٌ أكان أخفض قليلاً، أو أعلى قليلاً،
على مَبْعَدَةٍ طفيفة».

(انظر: ميثولوجيا Mythologie لجورج سيفيريس[22] Georges Séféris، المقطع الثامن).

---

(22) شاعر ودبلوماسي يوناني (1900 - 1971)، اسمه باليونانية (جورجوس سيفيرياديس Georgios Seferiades، وهو من أشهر شعراء اليونان في القرن العشرين، كان من جيل الثلاثينيات، نال جائزة نوبل للآداب لسنة 1961، ولد في (أورلة) Urla قرب (إزمير) التركية لأب كان محامياً وشاعراً، ثم غادر مع أسرته إزمير سنة 1914 إلى اثينا إثر نشوب الحرب العالمية الأولى، وعمل أستاذاً جامعياً ومترجماً، وقد تابع الابن دراسته الثانوية في أثينا، ثم سافر إلى باريس لدراسة القانون في السوربون ما بين سنتي 1918 و1925، ثم عاد إلى اليونان في السنة الأخيرة، وعين في وزارة الخارجية سنة 1926، وقد حرَّر الأتراك إزمير من اليونانيين سنة 1922، فلم يرَ الابن إزمير حتى سنة 1950. تأثر في شعره بكل من (كافافيس) Kavafis، و(ت.س.إيليوت) T.S.Eliot، و(عزرا باوند) Ezra Pound. تزوج سنة 1941، عشية غزو الألمان لليونان، فانضم إلى حكومة اليونان الحرة في المنفى، وشارك سنة 1944 في تحرير أثينا. عين وزيراً مفوضاً في كل من سورية ولبنان والأردن والعراق من سنة 1953 إلى سنة 1956. منح درجة الدكتوراه الفخرية من جملة جامعات غربية (المترجم).

(1)

لم يكن (تيوفان) Théophane يتعرَّق.

وما كان يتذكَّر أنه تعرَّق قط، لا ببذل الجهد، ولا نتيجة القلَق.

واليوم أيضاً، لم ترشَح قطرةٌ واحدة من جبينه. مع أنه كان، منذ أكثر من ساعتين يناضل داخل هذا التجويفِ الصدري، مستكملاً اللمسات الأخيرة، التي كانت تسمح لقلب المريض، المتوقف حتى الآن، بأن يخفُق ثانية.

توجَّهتْ نظرتُه للحظة وجيزة نحو وجه المريض النائم، مدركاً أنه لن يراه، نظراً لكونه مستتراً بقنطرة يقف وراءها خبير التخدير. وقد فكَّر بهذا الجسَد، المحروم افتراضياً من الحياة، وفي معجزة الطب والتقنية التي تجمِّدُ كائناً على حدود العدم. لقد تخيَّله في فضاء آخر، في درجة حرارة - 32، نتيجة تبريد أعضائه، بفضل المحوِّل الحراري.

بأي شيء كان الدماغ، الغاطس في هذه المنطقة العازلة no man's land، يحلم؟ ثم، هل كان يحلم؟ والروح؟ هل كانت ترتعب من عدم علمِها إن كان الوقت قد حان لمغادرة الجسد أم لا؟ إنها 21 غراماً.. حسبَ نظرية أذاعها عالِمٌ أمريكي، تقول إن

الإنسان يملك روحاً تقدَّر بـ 21 غراماً. وفي لحظة الموت، تفرُّ من المتوفَّى الذي يجد نفسه وقد تخفَّف بذلك من هذا الوزن. إنه لشيءٌ تافهٌ.

نصَّ تشخيصُ المرض قبل ذلك بشهر على وجود (اتصال أُذَيْنيّ في القلب)، لا شيءَ غيرُ عادي. فالأمر يتعلَّق بتشوُّهٍ خَلْقِيّ شائع في القلب[23]، هو ثَقْبٌ داخل الحاجز الذي يفصل بين الأُذَيْنَين ينسَدّ عادة بعد الولادة.

لا شيءَ غيرُ عادي.

قرَّر (تيوفان)، خلافاً لكل الآراء، أن يُجرِي العملية، كاسحاً بقفا يده الطريقة التقليدية للقصّ الصدري الأوسط، واختار جراحةً أقلَّ رَضِّيَّةً، وذلك بشقٍّ صغير مستقيم في الصدر. أما نَشْرُ القصّ، فسيحدث ضرراً لهذا الجسَد. أوَلَم يكن (تيوفان دبّانِه) Th. Debbané، من جهة ثانية، أكبر جرَّاحٍ حيٍّ بعد (بارنارد)[24] Barnard؟ وهو الذي كان حتى نظراؤه يلقِّبونه بـ(يَدَي المعجزة)؟

مدَّ (تيوفان) راحته نحو مُناوِلة الأدوات (الجراحية). لم تكن عِشْرتُهما القديمة تحتاج إلى الكلام، وكانت الإشارة بينهما تكفي، فوضعتْ المرأة فيها مِقَصّاً (طبّياً).

---

(23) يولَد 9 أشخاص من كل ألف تقريباً بمثل هذا التشوُّه الخَلْقي في القلب، غير أن كثيراً من حالاته يتمّ إصلاحها ذاتياً، ولا يَحتاج إلى علاج أو جراحة، والقليل جداً منها يتطلب أحدهما (المترجم).

(24) بارنارد: هو (كريستيان Christiaan –) طبيب من (اتحاد جنوب افريقيا) (1922 – 2001)، اصبح مشهوراً بعد نجاحه في إجراء أول عملية لنقل قلب بشري وزرْعه في 1967/12/3، استمرت عشر ساعات، نقل خلالها قلب شابة توفيت بحادث سير، عمرها 25 سنة، إلى جسد رجل عمره 53 سنة. وقد توفي (بارنارد) نفسه في (بافوس) Paphos بقبرص عن عمر 78 عاماً بنوبة قلبية، وكان قد كفَّ عن إجراء العمليات منذ سنة 1983، إثر إصابته بروماتيزم اليدين (المترجم).

وتحت النور الأبيض للمصباح عديم الظل، ثقَبَ (تيوفان) شرياناً كي يُفرِغ بقايا الهواء التي يحتوي عليها، ولاحظ الدفقات الأولى من الدم تصبُّ في تجاويف القلب. وبصدمة كهربائية صغيرة، شَرَع القلب بالخفَقان إزاء المِلْقَط. في البداية، كانت هنالك تَعْتَعةٌ عضلية على استحياء، ثم انتظمتْ. ولكن انبجس، في الحال، نَزْفٌ لم يبدُ أنه أثَّر في (تيوفان)، فهو نتيجة طبيعية، لأن ثَقْب التفريغ لم تتِمّ خياطتُه بعدُ. وبعد نحو ثلاثين ثانية، وبعد التأكُّد من أن القلبَ قد استأنف خفَقانَه الذاتي، أمر (تيوفان) مناولَة الأدوات قائلاً:

- أعطيني خيط 0/4

وكانت هي قد استَبَقَتْ هذا الطلب. عقَد (تيوفان) الخيط ببراعة، وشَدَّه، وأبدى من وراء كمَّامتِه ابتسامة رِضا. لقد نجح! وأثبتَ للتوّ، بعكس كل التحذيرات، أن بالإمكان إصلاحَ الاتصال الأُذَيْنيّ في القلب من غير تطبيق طريقة نشر القص الصدري sternotomie، وكان على وشك الالتفات نحو مساعده، ولكنه أعاد النظر قائلاً لنفسه: غريب، إن النزفَ يستمر على الرغم من الخياطة، بل إنه يتفاقم. ثم قال:

- تبَّاً لهذا!

وفهم الأمر.

فهو عندما قام بثَقْبِ الشريان لتفريغ الهواء، نفَذَ الثَّقْبُ من جانب إلى آخَر.

أصدَر أمره إلى الجرَّاح الثاني قائلاً:

- اسحب الهواء! فإنني لا أكاد أرى شيئاً.

قام المساعد بدس أنبوبة في التجويف الذي بدا فجأة أنه قد انكمش. لعله توهُّمٌ.

أخذ الدمُ الآن يُغرِق موضعَ العملية. ولم تكن تظهر سوى الواجهة الأمامية - اليمنى من الشريان. قال (تيوفان):

- اِوْعَ! تَنَحَّ!

وأخذت الأوامرُ تصطَكُّ.

جلس المساعد على الجانب الأيسر من طاولة العمليات، وجلس (تيوفان) على الجانب الأيمن، منحنياً على صدر المريض، ووجَّه نظرةً إلى زميله المتضايق تعني أنه يعمل بلا تبصُّر.

جرُؤ المساعدُ على تقديم اقتراحٍ قائلاً:

- (تيوفان)! هذا لن يجدي، يجب تطبيق التوسيع أو التحويل.

التوسيع يعني تكبير الشقّ إلى ما تحت لوحِ الكتِف. أما التحويل فكان يؤدِّي للعودة إلى طريقة نشر القص الصدري. لا مناص! في الحالتين إقرارٌ بهزيمته.

وتردَّد صوت المخَدِّر بدوره قائلاً:

- عنده حقٌّ، يا (تيوفان)، فالمريض سوف يُفْلِتُ منا. لا يمكنك أن تستمر.

كانت (الدَّوَّارةُ) - وهو اسم غريب أُطلِق على الممرِّضة الموكلَة بالأدوات (الجراحية) المرتَّبِة داخل خزانة ذات واجهة زجاجية - تَقبَع عند زاوية طاولة العمليات، وهي تكظِم رِعْدَةً انتابتْها. كانت في الثانية والخمسين من العمر. ولقد ساعدت بما يكفي في المداخلات، بحيث لا تنخدع بما كان يجري. وكانت تعلَم

تماماً في أيِّ وقت كان مخطَّطُ الجرّاح المتوقَّع يحتاج إلى إعادة نظر، وتعلم أيضاً في أيِّ لحظةٍ كان السباقُ يبدأ مع الساعة، ومن ثَمَّ مع الموت.

قال (تيوفان) لمساعده:

- تَنَحَّ!

كان صوتُه مضطرباً. إن خياطة الشريان في طريقة نشر القص الصدري التقليدية كانت لعبةَ أطفال. ولكن الأمر هنا كان يظهر أكثر تعقيداً بكثير.

قال المخدِّر:

- إننا نخشى من صدمة نَزْفية.

وألحّ الجراح الثاني قائلاً:

- أرجوك، يا (تيو)، وسِّعْ أو حوِّلْ!

لم يكن (تيوفان) يسمع. كان وحدَه في مواجهة العدُوّ، ولن يتركه يفلت.

كانت الساعة المعلَّقة على أحد جدران الغرفة تشير إلى 11.04.

وعندما وصل العقرب الكبير إلى الدقيقة السابعة، نهض (تيوفان) وقال:

- لقد فزنا!

لاحظ الجميع اضطراباً جديداً في صوته.

التفت (تيوفان) إلى مساعده، وقال:

- يمكنك أن تُغلق.

كان جبينُه مبلَّلاً بالعِرق.

* * *

- هل أُزعِجك يا أبي؟

أثَّر صوت ابن (تيوفان) فيه تأثير العاصفة، ونقله دفعةً واحدة من الماضي إلى الحاضر. فأخذ نَفَساً، ومسح راحتي يديه الرطبتين بسترته بشكل عصبي. فهو منذ ذلك اليوم المشؤوم على أبواب الليل، أصبح يتعرَّق لأقل انفعال.

تمتم (تيوفان) قائلاً:

- (تيمور) Taimour؟ هل وقعت من السرير؟ فالساعة ليست سوى الثانية عشرة.

- لقد حقَّقتُ تقدماً، أليس كذلك؟ بالأمس أفقتُ في الثانية عشرة وعشر دقائق.

- مدهش.

راقب (تيوفان) الصبيَّ. وفكَّر: من أين جاءه انطباعٌ بأنه قد كبر منذ الأسبوع السابق؟ فقد كان، وهو في الخامسة عشرة، يبدو في السابعة عشرة. ربما كان السببُ شعرَه المشبَّك، وعينيه الداكنتين جداً بشكلهما اللوزتي، وقامتَه التي تقارب 170 سم، وتمنحه هيئة راشدٍ مبكِّرٍ جداً. لَكَمْ كان يشبه أمَّه! وإذا كان (تيوفان) أيضاً ذا عينين متوسِّطيَّتَين[25]، والشعر أسود، فإن الصفات المشتركة بين الأب والابن تقف عند هذا الحد. وقد كانت لـ (تيمور) ملامح رقيقة شبه أنثوية، وكان أنفه الدقيق يشكِّل خطاً مستقيماً تماماً. أما (تيوفان) فقد وُهِبَ أنفاً معقوفاً كمنقار العُقاب، في وجهٍ غليظٍ وجامد.

قال لابنه:

- هل نمتَ جيِّداً؟

(25) كأن المؤلِّف يرى هنا تشابهاً في عيون أهل حوض البحر المتوسط (المترجم).

- بُفْ! ما زلت أرى هذه الصور المرعبة.
- النهر الأسود؟
- وصاحب زورقٍ بلا عينين.
- إنه كابوس بسيط.
- غريب. إنه حلُمٌ يتردَّد بشكل سيِّئ.

تناول (تيوفان) سمَّاعتَه الطبية، ودسَّها في حقيبةٍ صغيرة من جلد أسود. وقال:

- عليَّ أن أذهب. هذا وقت نوبتي. نلتقي بعد قليل.
- أُوكِّي (OK) بعد (plusÀ)..
- قليل.. (tard)
- ماذا؟
- يُقال: (بعد قليل)[26] tardplusÀ.
- أُوكِّي، بعد قليل، يا أبي.

ودار على عقبيه قائلاً:

- بَعْد قليل.

* * *

وما كاد (تيوفان) يجتاز عتبة البيت حتى غمَرتْه الحرارة. كانت السماء زرقاءَ داكنة. وكانت زرقتُها اليونانية التي لا تُوصَف هذه تذكِّره بسماء (مصر). وكان البحر على بعد بضع خطوات. ووراء ذلك البحر أيضاً، كان على الآلهة في (لِسّ)Lisse أن يهدأ بالها في أمسيات الشك. في 2 آذار/مارس سنة 1986. قبل ثلاث سنوات. ثلاث سنوات في بطن هذه الجزيرة التائهة على تخوم بحر (إيجة)، جزيرة (باتموس)، هذه الجزيرة المقدَّسة.. ثلاث

(26) تعبير فرنسي مختصر دارج يراد به (نلتقي أو يرى بعضنا بعضاً بعد قليل) (المترجم).

سنوات أم ثلاثة آلاف سنة؟ لماذا؟ وبأيٍّ سِحْرٍ يُولَد شخصٌ في (مصر)، ويترعرع فيها، ومن ثَمَّ يعيش في (فرنسا)، ثم يجد نفسه منفياً على جزيرة يونانية؟ لماذا؟

والقَدَر، بوصفه نقَّاشاً غيرَ مرئيٍّ، هل ينقُش في راحات أكُفّنا خطوط حَيَواتنا؟ والدم الذي يجري في أوردتنا، هذا السائل الأُرجُوانيّ، الذي يجرف البداية والنهاية، هل ينقشها هي أيضاً؟ لم يكن (تيوفان) يخطِّط لشيء، أو بالأحرى: نعم، كان يخطِّط بالضبط لعكس ما كان يعيشه: «إنْ كنتَ ترغبُ في أن تستغرق السماء في الضحك، فتحدَّث لها عن مشاريعك». فعلى المرء أن يحبس بعض مشاريعه في سجون الجحيم.

يبلغ (تيوفان) الخامسة والأربعين من العمر. ولم يكن يملك شيئاً. فقد تم الاستيلاء منه على كل شيء. إنه أرضٌ محروقة.. خراب. ففي ليلةٍ ذات قَمَرٍ متَّسِخ رديءٍ، دخل النقَّاش غيرُ المرئي إلى منزله ليسرق كنوزه الأكثر وَضَاءَةً. فطُرحتْ حياتُه المنكسِرةُ أرضاً. ولحسن الحظ أبقى له الطفلَ، الطفلَ وهؤلاء الناسَ البُسطاءَ الذين أغدق عليهم منذ ثلاث سنوات، عنايتَه، في مقابل شيء يسير: كالبيض، وحليب الماعز أو الجبنة، وهذا ما كان يمثِّل، بكل اعتبار، قيمةً أنبلَ بكثير من جميع أموال العالم.

كان (تيوفان) قد جمع من المال ما فيه الكفاية، وكدَّس منه، خلال حياته السابقة، أكثرَ مما يستطيع أن يصرِفه. ثم بماذا يفيد التكديس؟ ولأي غاية؟ إن هذه الفلوس التي يخزِّنها المرء سنةً تِلوَ سنةٍ إلى الوقت الذي يصل فيه، إلى أرجل سريرنا الشبحُ

الـذي يلاحِق فـي ليلة عيد الميلاد البخيلَ (المسـتر سـكروج)[27] M. Scrooge، فيقـول لـه البخيل: «أنت مقَيَّـدٌ؟ (قلْ لي لماذا؟)[28]»، فيجيبـه: «أنـا أحمـل القيـد الـذي صنعتُـه خلال حياتـي كلها، (لقد صنعتُه حلقةً حلقة، وياردةً ياردة، وأحطتُ به نفســي بملء إرادتي الحرة. وسـأظلّ أحمله بإرادتي الحـرة)[29]. فهل يبدو لك تصميمـه غريبـاً؟[30] أو لعلَّك تحبُّ أن تعـرف وزن القيـد الغريب الـذي تحملـه أنت نفسُـك مع طوله؟ لسـوف أذكر لـك ذلك: إن قيدَك أثقل وأطول من القيد الذي تتأمّلُه عليَّ في هذا الوقت».

واليـوم، فإن (تيوفان)، حاملُ البَلْسَـم المجهول، ومُفرِّجُ الآلام، بلباســه الجديد، حطَّم قيدَه، تحطيمــاً جزئياً على الأقل. بعيداً

(27) (إيبينيزر سـكروج - Ebenezer) هو الشـخصية المحورية في روايـة الكاتب الإنكليزي (تشـارلز ديكنـز Charles Dickens، التـي تحمـل عنـوان (أنشـودة عيـد الميـلاد) A Christmas Carol المنشـورة سـنة 1843. ومن أبرز صفات (سكروج) أنه كان شديد البخل، وقاسـي القلب، وكارهاً للبشـر، ويكره عيد الميلاد، وقد وصفه (ديكنز) بقوله: (كان البرد يجمِّد ملامح وجهـه العجوز، ويقرص أنفه مدبَّبَ الطرَف، ويجعل عينيه حمراوين، كما يجعل شـفتيه الرقيقتـين زرقاويـن، ويتكلم بدهاء بصوته المزعج)، وقد ظهر له فـي ثلاثة أعياد للميلاد ثلاثةُ أشـباح وحاوروه لمحاولةإصلاحه. وكانت له لازمة تتردَّد على لسـانه هي كلمة (هُراء!) أو (كلام فـارغ)! humbug! أما الكاتب (ديكنز) (1812 - 1870) فهـو صاحب مجموعة من الروائع السردية مثل: (أوليفر تويست)، و(ديفيد كوبرفيلد)، وغيرهما، وأكثرها مترجم إلى العربية. وكان المؤلف يتناول فيها بالنقد المتشـائم جوانب عديدة من المجتمع الإنكليزي في عصره. وقد مُثِّلتْ (أنشـودة عيد الميلاد) فيلماً سـينمائياً سـنة 1984 من إخراج (كليف دونَر) Cliv Donner، بالإضافة إلى تمثيلها في أفلام رسوم متحركة (المترجم).

(28) تتمة سـؤال (المستر سكروج) للشـبح الأول، وهو لشريكه السابق في حياته المدعو (يعقوب مارلي) Jacob Marley، حين رآه مثقلاً بالسلاسـل الحديدية مـن العنق حتى القدمين، وقد عُلِّق عليها ما يشـبه صناديق المال الحديدية المقفلة، ولعلَّه يكنّي بذلك عن أن الأموال المكدسـة سـتكون أغلالاً يحملها المرء بعد الموت، وهذه دعوة إلى نبذ البخل بالمال، وإلى إنفاقه فيما ينفع ويفيد صاحبه ومن يخصه أو يحيط به من الناس لتعم فائدته، وقد نجح في تحويل سـلوكه نحو الخير (المترجم).

(29) تتمة مفيدة من أصل رواية (ديكنز) بالإنكليزية أغفلها المؤلف من السياق (المترجم).

(30) وردت ترجمة التعبير هُنا بصيغة الخبر لا الاسـتفهام: (قد يبدو تصميمه غريباً)، فأثبتنا صيغة الأصل الإنكليزي بالاستفهام (المترجم).

عن صخب المُدن التي يعتقد المرء فيها أنه يستمع، في حين إنه يستمع لنفسه، وحيث الأيادي الممدودة ليست سوى قبضات مغلقة. أما هنا فقد كان مُنسجِماً مع شيءٍ ما ربما كان ينتمي إلى الحقيقة.

* * *

مشى نحو فيسبا، من نوع (بيادجو)[31] Piaggio، المركونة قرب باب المدخل، وثبَّتَ حقيبته على حمَّالة الأمتعة، ودفع الدراجة إلى الطريق.

- مرحباً، أيها الطبيب[32]!

- أهلاً، يا (ستافروس) Stavros. هل يوجد بريد؟

توقَّف الرجلُ الضئيلُ ذو الشاربين، وهو على دراجته الهوائية، ووضع رجله على الأرض، وقال:

- لا. ربما في الأسبوع القادم؟

كان (تيوفان) قد طرح سؤالَه كمن يسأل آلياً عن الجو كيف هو؟ في حين إنه لا يبالي بأن يعلم أنه سيكون جميلاً أم لا، وكان كمن لا ينتظر إجابات من أحد، ما دام لا أحد لديه أي فكرة عن المكان الذي نعيش فيه.

وفيما كان ساعي البريد يهمّ بالانصراف، سأل (تيوفانَ):

(31) بيادجو: اسم شركة إيطالية لتصنيع الدراجات الهوائية والنارية والسكوترات ذات العجلتين المتجاورتين، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا (المترجم).
من طريف المصادفات أن أكون، أنا المراجع، من قام بترجمة الكتيِّب الخاص بهذه الفيسبا أثناء عملي في إيطاليا في السبعينيات من القرن الماضي وPiaggio تُنطق «بيادجو» وليس «بياجيو» (المراجع).

(32) وردت الكلمة بلفظ عربي وحروف لاتينية (toubib)، وهي كلمة شعبية دارجة في جزيرة (باتموس) بحكم قربها من الشواطئ التركية، أو بحكم سيطرة الأتراك عليها زمن العثمانيين المتأثرين أصلاً هم ولغتهم باللغة العربية (المترجم).

- هل أنت على علم بشأن نُزُلِ (بانسيون) الأسرة؟
- تعني البيت الواقع أسفل القلعة؟
- بالضبط. لقد تمّ شراؤه.
- حسناً. إنه مبنى جميل. بقي مدة طويلة جداً مهجوراً. وهل تعلَم مَنِ المشتري؟

قال (ستافروس) (باليونانية) وقد مَطَّتْ ابتسامةٌ خبيثةٌ شاربيه:

- Ena yinéka [33].
- امرأة؟ يونانية؟
- محتملٌ. وإلاَّ فإن الناس هنا سوف يلتهمونها نيِّئةً تماماً[34]. تحيةً، أيها الطبيب!

بقي (تيوفان) لحظةً بلا حَرَاكٍ، وهو يتابع بعينيه الرجل الضئيل، ثم ركِب دراجته وأخذ طريق (شورا) Chora.

انقضى وقته مثلَ أغلب أوقاته فيما بعدَ الظهر. كان، في هذا اليوم، قليلٌ من الانفعالات الخطيرة: فقد كان هنالك ولد من أولاد الشوارع ضحيةُ ورم لمفاوي غير خبيث بسببِ خرمشات قطٍّ هائج من فرط مضايقته. وكانت هنالك أيضاً حالة إسهال بسيطة أصيب بها مقاتلٌ نازلٌ عند أحد السكّان، وهو هشٌّ كأغلب الأمريكان، بسبب هوسهم بالتطهير. وكانت

(33) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتعني (امرأة)، وهي بالحروف اليونانية (γυναίκα ένα) (المترجم).

(34) يشبه هذا التعبير اليوناني، هنا، قولنا في التعبير العربي الدارج، كنايةً عن الشيء الشهي الذي يسارع المرء بتناوله للذته، ومن غير أن يحاول أن يضيف إليه ما يجعله مستساغاً أكثر، كالملح مع اللحم، مثلاً: (سوف يأكلونها بلا ملِح)، ولهذه الكناية - في مجال الشر - معنى آخر يتعلق بالقدرة والسيطرة والتغلب بسهولة وسرعة (المترجم).

هنالك حالة نَزلةٍ وافدةٍ (إنفلونزا/كريب). وحالة التهاب لوزتين. وبعض (الجراح والحروق والنزوف البسيطة)[35] de la bobologie إجمالاً. فهو لم يواجه، خلال السنوات الثلاث، سوى حالتين خطيرتين: الأولى الـ (حمَّى القُلاعية) (Behçet). والثانية اعتلال عضلة القلب بسبب فقر الدم الموضعي. وبقدر ما واجه من صعوبات في وضع اسم للإصابة الأولى (قُلاع فموي، التهاب عيون، إسهالات)، بقدر ما كان التحقُّق من اعتلال عضلة القلب بسبب فقر الدم الموضعي واضحاً: أوَلم يكن يملك مفاتيح القلب؟

في الحقيقة، أخذ (تيوفان)، منذ أن عاش على جزيرة (باتموس)، يستطيب هذه الزيارات إلى البيوت. وقد نسي التقاليد التي نشأ عليها في المهنة أو أوشك على نسيانها. كانت هنالك سرعة، وجنون، وهروب إلى الأمام، ووَرَقِيّاتٌ: كيف كان زملاؤه يستطيعون التصرف؟

لقد كان هو نفسُه، خلال سنوات مجده، مقتصراً، في إغداق عنايته، على أولئك الذين يتّخذون القرار من مكتبه، وكان علّامةً مزهوّاً بنفسه في قمّة بُرجِه، بينما هو، في هذه الجزيرة، لم يتعلَّم أهمية الاستماع فقط، ولكنه أدرك أن الروح ليست تلك التي يتصوّرها الطبيبُ الأمريكاني المشعْوِذُ، ولكنها تلك الأخرى، الهبةُ الإلهية، هذه الروح تتعذب ومن فرط العذاب تنقل العذاب إلى الجسد.

(35) تستعمل في الطب كلمة (bobos) للجمع بين هذه الحالات، ويتمّ العمل عليها ضمن مجال الطب العام (المترجم).

وصار يُدرِك كيف يسأل نفسَه: «وأنت يا (تيوفان): كيف حال روحِك؟ لقد كان عليها أن تغادرَك منذ مدة طويلة. ألا تعتقِد ذلك؟ من المعجز أنك لا تزال على قيد الحياة. ثم هل أنت حيٌّ؟».

* * *

وحين وصل إلى ميناء (سكالا) Skala، الملتف على نفسه، داخل برزخٍ يفصل بين الأجزاء الشمالية والجنوبية من الجزيرة، ركَنَ درّاجتَه قرب المقهى[36] (Kafeneion). وكانت أجراسُ الدير - القلعة، القائم على جبل (كاسْتِلّي) Kastelli، تصدر، في الوقت نفسه، جملة من الإشارات الرصينة التي تتحدَّث إلى الرهبان. جلس (تيوفان) إلى الطاولة الأولى. وكان سطح البحر قد أصبح أكثر اخضراراً مع اقتراب المساء الذي كان يغمر المرسى شيئاً فشيئاً. وكانت مراكب الصيد البيضاء والزرقاء تهتز على المياه. وكانت الزوارق تتراقص. قال النادل:

- كالعادة، أيها الطبيب؟

- كالعادة.

وبعد بضع لحظات، صفَّ النادل على الطاولة كأساً مترعةً جداً من شراب الـ (أُوزو)[37] ouzo، وزيتوناً، وفُستُقاً.

أشعل الطبيبُ سيجارة، وهذه عادَةٌ مُؤسِفةٌ رجَع إليها منذ وصوله إلى الجزيرة، ثم سحب نَفَساً منها. وسمع صوتاً يقول:

- أتلعبُ دورَ طاولة، أيها الطبيب؟ فأنا مدين لك بغُلْبٍ.

(36) كلمة يونانية كتبت بالحروف اللاتينية، وهي بالحروف اليونانية (καφενίο)، والكاتب كثيراً ما يذكر مثل هذه الكلمات اليونانية في هذه الرواية بهذه الطريقة (المترجم).
(37) وهو الشراب الأكثر شعبية في اليونان (المترجم).

وقبـل أن يُتـاح لـ (تيوفـان) الوقتُ للإجابة، ارتمـى رجلٌ على الكرسـي الشـاغر، دافعـاً أمامه كرْشـاً على شـكل يقطينة، فكان كأنه توْءَم (فالسـتاف)[38] Falstaff، القصير الغليظ، برقبة ثور تظهر من ياقة قميص ضيِّقة جداً.

- مهـلاً، يا (ديمتـري)! Dimitri، دعني هادئـاً. لقد ربحتُ الدور منك البارحة بمعجزة.

فتـح اليونانـيُّ طاولـة الزهـر المكوَّنـة مـن حُجْرتـين، ورتَّـب الحجـارة علـى المثلثـات الرماديـة والسـوداء فيهمـا، متجاهـلاً اعتراض (تيوفان).

أشار (تيوفان) لمحدِّثه بسبابته إلى البطن الكبير، وقال:

- متى ستَتَّبِع نظام الحِمْيَة (الريجيم)؟

- إن أمامي الموتَ كلَّه! ثم إنني ضخمٌ، ولكنني لستُ مجنوناً!

ثم ضرب على صدره وقال:

- كل شيء صلبٌ في الداخل! والدليل أنني لم أزُر طبيباً قطّ، ولا أزال بعدُ على قيد الحياة.

ثم أشار إلى سيكارة (تيوفان)، وقال:

- وهذه.. هل تعتقد أنها أفضل؟

ثم إنه نادى النادلَ قائلاً:

- هات شيئاً من (المزّة)[39] mezzes، يا (سبيروس)! Spiros.

(38) هو (السـير جون فالسـتاف - Sir John): شـخصية خيالية ظهرتْ في مسرحيتين لـ (شكسبير) هما: مسـرحية (هنري الرابع) بجزايها، وكان فيها رفيقاً للأمير (هال) Hal، الذي أصبح فيما بعد الملك (هنري الخامس). ومسرحية (زوجات وندسور) حيث كان مهرجاً لامرأتين متزوجتين. كما ظهر فـي أوبيرا لـ (فردي) Verdi الإيطالي وغيره، وكان يتميز بالقوة وضخامة الجثة (المترجم).

(39) المـزّة: ما يوضع على الطاولة مع المشـروب من أنواع المقبّلات والمشـهّيات: كالبابا غنّوج، والحمص المدمس، والتبولة، والزيتون، والمخلّلات، والمكسَّـرات، إلخ (المترجم). والكلمة تسـتعمل في العامية المصرية. (المراجع)

ثم ناول زَهْرَ اللعب للطبيب، قائلاً:

- والآنَ، العَبْ.

دحرَج (تيوفان) المكعبات العاجية الصغيرة على طاولة اللعب.

مـرّتْ بذهن (تيوفان) قعقعات مألوفة. وذكريات من طفولته. يبدو أن هنالك كيمياء عجيبة في الدماغ تربط، بصورة غامضة، الأصـوات بالصـور؛ فهـا هو خيال جدِّه (يوسـف بـك) Joseph bey، وعلى رأسـه طربوش، يسـير في شـارع (سـليمان باشا)[40]، غيرَ مبالٍ بالحرارة. وبعد خمسمئة متر، كان يجلس على رصيف مقهاه المفضَّل.

وكان فـي المقهـى مذيـاع يبـثّ أغنيـة للرائعـة (أم كلثـوم)، وسـط بقبقـات النراجيـل. وعلـى بعـد خطـواتٍ، يجـرّ تاجـر جـوّالٌ عربة مليئة بالأسـمال الباليـة، ويصيح: «روبـا فِكّيا! روبا فِكّيـا!»[41] Roba vecchia! Roba vecchia! والأمر الغريب هو أن هذا العربي كان يصيح على بضاعته بالإيطالية[42].

وكان هنالك نادلٌ من أصل يوناني يتلقى الطلبات. وقد انضمَّ إلـى (يوسـف بـك) رجلٌ ذو لحيـة بيضـاء، كانت بدلتـه من ثلاث

---

(40) من شوارع الإسكندرية الشهيرة (المترجم).

(41) هذا هو النطق السـليم لصيغة النداء، وهي تتألف - في الأسـاس - من كلمتين إيطاليتين تعنيـان (حاجة عتيقة) أو (ثياب عتيقة) أي مسـتعملة، وكان التاجـر بتجواله يبيع ما عنده منها ويشتري ما عندٍ الناس، وحُرِّف النداء على ألسنة هؤلاء التجار ليصبح (روبا بيكيا)، وصار يفهم منه مع الزمن كل شـيء (مسـتعمَل) من ثياب وأثاث وأدوات وخرداوات وسواها (المترجم). حتى الآن، مـا زلنـا نصحو في الصباح الباكر على نداء البائع الجائل الذي غالباً ما يقصر نداءه على الكلمـة الثانية من العبارة الإيطالية، فيقول: «بيكيا! بيكيا» ثـم يتبعها بالعربية كل حاجة قديمة للبيع! (المراجع).

(42) في الحقيقة، ليس في الأمر غرابة، لأن أبناء الجالية الإيطالية في الإسـكندرية والقاهرة علـى وجه الخصـوص هم الذين فتحوا باب هـذا النوع من التجارة، ثم انتقلت مع اسـمها إلى المصريين أنفسـهم، ويحدث مثل ذلك فـي أمور اجتماعية وفنية أخرى أيضـاً بتأثير الجاليات الأجنبية أيضاً (المترجم).

قطع[43]، ومتقنة التفصيل، من نسيج (دورمُوي)[44] Dormeuil.

كانت أحجار الطاولة تقرقع: وأين سِحرُ هذه اللعبة إن لم تقرقِع أحجارها؟

Chehe yak، Bing yak، Dauche [45].

ومن الغريب أيضاً أن هؤلاء المصريين يحسبون النقاط، (في لعبة الطاولة)، بمزيج من اللغتين الفارسية والتركية[46].

صاح (ديمتري) (في (تيوفان) الشارد):

- ويعد! أنت تحلُم أم تلعب؟

فردَّ وقد تخلَّص من الذكريات:

- أنا ألعب.

وبعد سلسلة من العبارات الحادة وتعليقات اليوناني الملتهبة، أبدى (تيوفان) ملاحظة قائلاً:

---

(43) يبدو أن المقصود بالقطع الثلاث هنا تلك البِدَل التقليدية المؤلَّفة من: بنطال، وصدرية، وجاكيت (المترجم).

(44) هذا الاسم علامة تجارية (ماركة) لهذا النسيج، هذا النسيج ليس قديماً إلى هذا الحد، بدليل أنني شخصيًا وأبنائي نملك حللاً وجلاليب (دشاديش) من هذا النسيج (المراجع)، ولا يزال هذا النوع من النسيج أو الأجواخ يحمل هذه العلامة إلى يومنا هذا، وهنالك شركة للخياطة بهذا الاسم، وقد علَّق أحد مواقع صناعة الألبسة على بدلات هذه العلامة بالقول: «عبر ستة أجيال، أصبح مشروع (دورمُوي إخوان) اسماً كبيراً للأناقة مع أجود أنواع النسيج في العالم» (المترجم).

(45) من المعروف أن قراءة الزهر في لعبة الطاولة تكون رقمين رقمين، ولذا نجد نقصَ رقم في الزوجين الأخيرين، والكتابة الإجمالية لما ذكره بالحروف اللاتينية حسب النطق العربي بها لا النطق بلغتها: شيش يَك! بنج يَك! دو!

أي: ستة واحد! خمسة واحد! اثنان!

ونلاحظ هنا أن المؤلف أو الطبّاع أخطأ في كتابة (Chehe) التي يجب أن تكتب Cheche، كما أخطأ في كتابة (Dauche) التي يجب أن تكتب Dau أو Do فقط (المترجم).

(46) في الواقع كانت الأرقام التي تذكر في لعبة الطاولة جميعاً من اللغة الفارسية، فيما عدا الرقم beş=5 الذي ينطق به (بيش) ويرجع أصله إلى اللغة التركية، ويستعمله اللاعبون أحياناً بديلاً للرقم الفارسي بنج=5. أما الأصول الفارسية للأرقام المكتوبة بالحروف العربية، فهي: يك=1، دو (ويلفظ مثل: Do=2)، سه (ويلفظ مثل حرف: c بالفرنسية)=3، چهار=4، پنج=5، شش=6. أما الأرقام التركية المقابلة فهي بالحروف اللاتينية المستعملة اليوم للتعبير عن أصواتها: üç=3 ، dört =4 ، beş =5 ، altı=6 ، bir=1 ، iki =2 (المترجم).

- ها هي عَبّارة الساعة السابعة.

- ماذا تقول؟

كرَّر (تيوفان) قوله، مشيراً إلى مدخل البرزخ:

- عَبّارة الساعة السابعة.

في الحقيقة، كانت الكتلة الضخمة لسفينة (النجمة الزرقاء) Blue Star قد دخلت إلى المرسَى.

قال (ديمتري):

- إنها تتقدَّم. وبعد؟ ألا ننهي هذا الدور؟

ألقى الطبيب زَهرَه للمرة الأخيرة، فأصدر صديقه فوراً صرخةً مروِّعة، قائلاً:

- سِتَّتان[47]! لقد كسِبتَ أيضاً! هل تعلَم ماذا يُقال عندنا؟ يقال: حتى الدِّيكُ يضع بيضاً للمحظوظ!

ثم أغلق طاولة الزهر بعنف، وقال:

- أنت لا تعرِف شيئاً في هذه اللعبة! وتلعبُ بلا أيِّ استراتيجية، وتترك أحجارك مكشوفة، ومع ذلك تجد سبيلاً للتغلُّب!

ردّ (تيوفان):

- لا عليك! إنها مجرَّد لعبة.

- أنت مخطئ! لك جَدَّةٌ يونانية، وتتكلَّم لغتنا، ولكنك فقط لا تفهم عقليتنا. فدور الطاولة ليس لعبةً، وإنما هو الحرب العالمية!

(47) ورد في الأصل (double six !) أي (ستة مضاعفة)، يعني أن كلاً من الزهرين سجل رقم 6 (أي: شِش)، وهذا قمة ما يشتهي اللاعب الحصول عليه، لأنه نادر الوقوع (المترجم).

ثم غَطّس قطعةً من الخبز في صحن (تساتسيكي)[48] tzatziki، والتقمها لقمةً واحدة. وقال بغتةً بسأَم مفاجئ:

- تجري الأمورُ بشكل سيِّئ، ولا أدري إن كنتُ أتمكن من التحمُّل مدة طويلة.

-ولكنك تنتج خمراً ممتازة. وعنبك الـ(فوكيانو) fokiano طيِّبٌ ومن أجود الأعناب المحلية في (اليونان). وتملك الكرم الوحيد في الجزيرة، وليس لك منافس.

- لا تبالغ! فالمنافسة موجودة، وهي تأتي من القارَّة[49]، ومن كل مكان. ومن أجل مواجهتها، يجب عليَّ أن أضاعف إنتاجي ثلاثة أضعاف، وهذا يتطلَّب امتلاك قطعة الأرض المجاورة. ولكن فقط هذا الوغد (سيفاكيس) Sifakis لا يريد أن يستمع إلى أي كلام عنها. وهو يفضِّل أن يهلك على أن يبيعني إياها!

- لماذا؟

- لأنني قبَّلتُ أختَه من ثلاثين سنة، ورفض أن يزوِّجني إياها. يا له من غبي!

لم يسمع (تيوفان) أكثر، فقد كان يراقب زورقاً أوشك على الرسوِّ عند الشاطئ. كان هنالك بحَّاران يرفعان باحتراسٍ امرأة شابة على كرسيٍّ متحرِّك. كانت سمراء، وفي حدود السادسة والعشرين من العمر تقريباً. وكانت، على الرغم من الحرارة، تضع حِراماً صوفياً يغطي جسدها حتى مستوى العنق. وفي

(48) التساتسيكي: نوع من الصلصة اليونانية يتكوَّن من لبن الزبادي والخيار المفروم مع الثوم والنعناع والفليفلة البيضاء وعصير الليمون والملح (المترجم).

(49) قد يفهم من (القارّة) هنا أحد أمرين: الأول القسم القارِّيّ المتصل بأوربا من (اليونان)، والثاني القارَّة الأوروبية نفسها. ونغلِّب الأمر الأول، لأنه لن يستطيع المنافسة على مستوى أوروبا بالتأكيد (المترجم).

الحال لحق بها صبيٌّ فَتِيّ تماماً. بعد ذلك ظهرت امرأة سمراء أيضاً، كان جسدها الدائري والممتلئ يُذكِّر (تيوفان) بممثلة إيطالية في سنوات الخمسينيات. ماذا كانت تُدعى آنذاك؟ وبعد أن تبادلت المرأة بعض الكلمات مع البحَّارَين، أشارت إلى الصبيّ، فأمسك بمقبضي الكرسي المتحرِّك، ودفعه على طول رصيف المرفأ. وكانت هنالك سيارة أجرةٍ في انتظارهم.

علَّق (ديمتري) الذي لمحهم قائلاً:

- Koukla[50] ، إنها دُمْيَةٌ حقيقية، وفاتنة.

- أيٌّ منهما؟

- هل تمزح؟ إنها الشابة بالتأكيد.. لا العجوز.

- عجوز؟ إنها في مثل سني.

- أنا لا أحب النساء إلا ما بين الثامنة عشرة والعشرين من العمر، وما عدا ذلك فإنك تنام على ذكراهن. وهذا مثبِّطٌ للهِمَّة.

ثُمّ غيَّر الموضوع قائلاً:

- إنني أتساءل مَن هم هؤلاء الثلاثة؟ إنهم ليسوا سوّاحاً على كل حال.

تدخَّل النادل الذي كان قريباً فقال:

- هذه هي ((بيبا) Béba[51]) المالكةُ الجديدة للمنزل الواقع أسفل القلعة.

رفع (ديمتري) حاجبيه وقال:

- وكيف عرفتَ ذلك؟

(50) كلمة يونانية بالحرف اللاتيني تعني (دمية أو لعبة) تعبيراً عن جمال المرأة، وهي بالحروف اليونانية (κούκλα) (المترجم).

(51) اضطررنا إلى وضع اسم المرأة هنا لاقتضاء السياق وضعه، لأن (ديمتري) سيذكره بعد قليل، مع انه لا يعرفه، ولم يصرح به النادل الذي يعرف المرأة (المترجم).

- لأنها أخبرتني بذلك. فقد كانت، قبل ثلاثة أسابيع، تجلس إلى طاولتكما نفسها.

- والصغيرة؟ والصبي؟

- لا أدري. فهذه هي المرة الأولى التي أراهما فيها. ربما ابناها.

- هذه الـ (بيبا) تخطِّط لإقامة نُزُل (بانسيون) مع ابنةٍ مُعاقة في ذراعيها؟ إنها مجنونة!

قال (تيوفان):

- على رِسْلِك، يا (ديمتري)! إنْ كانت هنا فالمحتمَل أنها تملك القدرة على ذلك.

- فَسِّرْ!

- لا، ليس الآن. فأنا مُرهَقٌ. سأعود إلى البيت. ربما أفسِّر لك ذلك في مرة أخرى.

كان الأصيل قد محا ضوء النهار.

وخيَّم الظلام.

رمق (ديمتري) الطبيبَ، الذي كان يركب دراجتَه، بنظرةٍ شَزْراء، وقال للنادل:

- سأذكِّرك، يا (سبيروس): إنْ سكنتْ هذه المجنونة في (باتموس)، فسيضعها الطبيب في رأسه.

(2)

كان منزل (تيوفان) أبيض اللون وذا نوافذَ زرقٍ. ومن الشرفة كنتَ ترى، على مدِّ البصر، البحرَ والفاصلَ الأسود للأفق. لقد كان يحب هذه الأوقات التي كانت الظلال تتلاشى فيها، وكان القلب فيها يخفق، حيثُ لا يضطرب النظر ولا الفكر بآلاف من أنواع الصخب السخيف. وقد حاول أن يتصوَّر ما الذي كان الآخرون يفعلونه في هذه اللحظة المحدَّدة عبر العالم: هنالك جندي كان يسقط بالرصاص في بلدٍ ما في حالة حرب، لأنه ما زال هناك حرب في مكانٍ ما. وفي (لندن) أو (شنغهاي) Shanghai كانت هنالك صرخاتُ تدوِّي من طفل يندفع من بطن أمه. وكان هنالك بريءٌ يُعَذَّب في سجنٍ بـ (كابول) Kaboul. وهنالك زوجان ينفصلان. وآخران يبحث أحدهما عن الآخر. جانب من ظلام وجانب من نور. إنه الزمن الأزرق.

أمسك بـ (الغيتار) الموضوعِ إزاء الجدار، وعزف بعض (النوتات). لقد كان في شبابه، المولَعِ بهذه الآلة، يحلم بأن يعزف

يوماً ما (كونشرتو آرانجويز)[52] Concertod'Aranjuez في وسط (أوركسترا) كبيرة. وهو عملٌ ساحر.

إنــه صراع غرامي بين (الغيتار) و(الأوركســترا). وكان عليه أن يخفِّف من غلوائه. وهو أمر شـديد القسـوة. لقـد كان (الغيتار) و(الكمـان) قـد أصبحـا آلتَيْ تعقيـد مثبِّط للعزيمة مـا إن نبدأ بعزف الموسيقى الكلاسية le classique.

فجأة، صدر صوت من شبه العتمة يقول:

- «كنــتُ غيــر مرئي في وقت ما. وكنت أعيش قربه. ثم وجدتُ نفسي في المملكة عن كثَب».

اقترب (تيمور) ببطء.

- ماذا تُهَذرِم يا بُنَيّ؟

- الحقيقة.

- هذه الكلمات ليست لك.

- يمكــن أن تكـون كذلـك. إنك تشـكّ فيهـا، أعلـم ذلك. في الواقع، أنت لا تعرفني حقيقةً. إنني ابنُك، ولكنك لا تعرفني.

- أنت إذن متأكِّد جداً من ذلك؟

- لو كنتَ تعرفني، لما كنت أخلفت كل هذه المواعيد معي، ومع أمي.

(52) هــو بالإســبانية (كونثيرتــو دي آرانخيــث Concierto de Aranjuez)، ويعزف على (الغيتار) بصحبة (أوركسترا)، وهو من أعمال المؤلِّف الموسيقي الإسباني الشهير (خواكينرودريغو Joaquin Rodrigo، الفه ســنة 1939، أثناء السنة الأخيرة من إقامته في (باريس). وكان قد كتب خمسة (كونشرتوهات) لـ (الغيتار)، وكان هذا (الكونشرتو) أولها وأشهرها. وقد استلهم هذا (الكونشــرتو) من جمال حدائق القصر الملكي (آرانخيث)، الذي بني في (مدريد) لملك إســبانيا (فيليــب الثاني). وكان قصدُ المؤلف أن ينقل المســتمعين من خلاله إلــى فضاء آخر وزمن آخر. وقد ذكر هو نفســه أن عمله يأســر عبيــر (المنيوليا) magnolia، وتغريــد العصافير، وخرير النوافير في حدائق قصر (آرانخيث). ولد المؤلف في إقليم (بَلَنسِيَة) Valencia ســنة 1901، وتوفي في (مدريد) سنة 1999، واسمه الكامل (خواكين رودريغو فيدرِه) Vidre (المترجم).

استغرق (تيوفان) وقتاً لإشعال سيكارة قبل أن يبدي ملاحظة بالقول:

- ألا تعتقد أن لي ظروفاً مخفِّفة؟

- هذا ما كنتَ تقوله لها أيضاً؛ ظروفٌ مخفِّفة.

- هل يمكن تغيير الموضوع؟ أنت تثيرني!

- وها أنت ذا، تتهرَّب. لستَ شجاعاً جداً.

- توقَّف، يا (تيمور)!

وساد صمت قصير قطعه الفتى المراهقُ أولاً بقوله:

- هل أحببتَ أمي حقاً؟

- أعتقد نعم.. حباً قوياً جداً.

- تعتقد.

- بصورة ناقصة، أعترف بذلك للأسف. وهكذا يكون الحب دائماً. بصورة ناقصة دوماً. يعتقد المرء بأنه يقدم الأفضل. في حين إنه يقدِّم في الحقيقة ما يقدر عليه. وقد قدَّمتُ ما قدرتُ عليه.

- لقد خنتَها كثيراً، لماذا؟ بينما كنتَ تحبها؟

- سوف تتعلَّم فيما بعد أن الرجل صيَّادٌ يتصوَّر أنه يصيد، في حين إنه هو الفريسة. إن النساءَ هن دوماً اللواتي يقرِّرْنَ.

- أنت الضحية إذاً، إنني أشفق عليك.

- لقد تجاوزت الحدود. انتبه!..

- سأؤلمك: أنتَ لم تقدِّم ما تقدر عليه. لقد كنتَ تُخادِع. وقد راقبتُك طيلةَ هذه السنوات. لقد كنتَ تقضي أوقاتك بالخداع. وقد لقبتُك سِراً بـ (حفَّار الآبار) le puisatier. فقد كنتَ تنقِّبُ

داخل القلوب. حفرتَ، وحفرتَ، وحفرتَ لتروي عطشك. وها أنت ذا في الصحراء.

نفَثَ (تيوفان) سحابةً من الدخان نحو السماء المرصَّعة الآن بالنجوم، واحتفظ بوجهه متَّجهاً نحو الليل. وكان يمعِن النظر فيه، كأنه يحاول أن يكتشف فِيه وجوداً يعزِّيه، فلا يرى سوى مخلوقٍ قبيح بألف وجه.

إنه محكومٌ عليه، محكومٌ عليه بأن يعيش في جحيم.

إن الخطأ الذي ارتكبه قبل ثلاث سنوات لسوف يلاحقه حتى يومه الأخير. وليس هنالك غفرانٌ ممكِنٌ له ولا فداء. يحيا، يواصل الحياة، يموت.

لقد أكَّد رجُلُ (الناصرة)[53] Nazareth للخاطئة قائلاً: (إيمانك قد شفاكِ)[54]، وقال للمفلوج: (مغفورةٌ لكَ خطاياكَ)[55]. فهل يتعيَّن عليه أن يمتلك الإيمان، أم عليه - في المطلَق - أن يلتقي رجلَ (الناصرة). إذ إن الربانيَّ نجَّار الهياكلِ لم يعد يتردَّد على المدن منذ زمن طويل.

أمعن (تيوفان) النظر في الفتى المراهق، وقال:

- إن لديك ضراوةَ الشباب، يا (تيمور). وهي لا تعرف الصفحَ لأنها تربّت على عدم اليقين. فالشباب يحلفون بأن الأرضَ مسطَّحة فقط لأن الراشدين يؤكِّدون لهم العكس. إنك على بعد مليون سنة ضوئية عما يجول في رأس أناس من سِنِّي، وأنت لا تعرف شيئاً عن العواصف العابرة.

---

(53) يعني المسيح عليه السلام (المترجم).

(54) انظر: الكتاب المقدس، الترجمة المنشورة في المطبعة الأمريكانية ببيروت، سنة 1913، العهد الجديد (المترجَم عن اليونانية)، إنجيل (متَّى)، الإصحاح التاسع، من الفقرة 22 (المترجم).

(55) المصدر السابق، إنجيل متَّى، الإصحاح التاسع، من الفقرة 2 (المترجم).

- وعندما يموت الشباب قبل الأوان بسبب الراشدين؟

- والحالة هذه، فإن الراشدين يموتون أيضاً..

- ومع ذلك، فأنت حيّ.

- أنا أتظاهر بأنني أحيا.

ومن بعيد، كان صوت دراجة نارية يطقطق. وكان هنالك فانوس يضطرب على سطح الماء كنجمة واقعة.

- كم من الوقت سنظل لابثين هنا؟

- لماذا؟ أوَلستَ سعيداً؟

- لقد اشتقت إلى أمي.

- لقد اشتقتُ أنا إليها كذلك!

ورفع نبرة صوته:

- لقد اشتقتُ إليها!

توقف قليلاً وقال:

- لم يبقَ لي سوى الذكريات، أتفهم؟ إنني أتشبَّث بها. إن جسمي يتألَّم فأتشبث بها إلى هذا الحد وأنا أتعزَّى بصور الماضي. الماضي، يا (تيمور)، ومواسم اللامبالاة.

خاطر (تيمور) قائلاً:

- إنها (مصر)، بالتأكيد.

- طبعاً. فهنالك، أنا أيضاً كنتُ أحلف بأن الأرض مسطَّحة..

- لماذا لم تكلمني قط بالعربية؟

- لأن أمك لم تكن تتكلمها، وأنا لم يتبقَّ لديَّ سوى نُتَفٍ منها.

ولوَّح بسيكارته في الفراغ.

فسأل الصبيُّ:

- أهذا هو التفسير الوحيد؟

- وهل هنالك تفسير آخر؟

- (ديميتري) Dimitri معه حق: أنت دائمًا تجيب عن سؤالٍ بسؤالٍ. على أي حال، عندي فكرة صغيرة.

- أسمعك.

- لقد دفعتُ ثمن إنكارك لجذورك.

اتخذ (تيوفان) هيئة منذهل، وقال:

- إنكار جذوري؟

- بالتأكيد. فمنذ أن وصلتَ إلى (باريس) بدَّلتَ اللباس الفرنسي بلباسك العربي القديم. وألبستَني مثلَك. وكنتَ تهتم بأن أكون - كما يُقال - مندمجاً. أليستْ هذه هي الكلمة؟ ولم تكن ترغب في أن أختلط مع الآخرين، وجميع هؤلاء العرب، وهؤلاء السود المتهمين بتدنيس مدننا. ولما كنتَ خجِلاً من أصولك، لم تكن ترغب في أن ينعكس هذا الخجل عليَّ.

تمتم (تيوفان) قائلاً:

- تأخَّر الوقت، هيَّا لننام.

- أليس هذا صحيحاً؟

انتصب الطبيبُ دفعة واحدة، وقد تغيَّرتْ ملامحه من الغضب. وقال:

- هل تعلم ما تكون؟ إنك غبي صغير، متغطرسٌ وجاهل. أنت تؤكِّد، وأنت تقرِّرا جذوري؟ أنا أنكرتُ جذوري؟ انظر، يا بُنيَّ، إلى الأمور مثلي، فهؤلاء الذين انتُزِعوا من أرضٍ تعلَّموا فيها كلغةِ أمٍّ لغةً أخرى غيرَ لغة البلد الذي ولدوا فيه، هؤلاء الذين كان كتابهم المدرسي الـ (لاغارد) Lagarrde

و(ميشار)[56] Michard، وكبروا وتحت عيونهم طرقٌ قروية تمر فـي الأرياف الخضـراء[57]، في حـين إن الصحـراء كانت تهيمن علـى مـا حولهـم. وهـؤلاء الذين كانوا قـد عرفوا نهر (السـين) la Seine قبل نهر (النيل)، و(جيد)[58] Gide قبل (محفوظ)[59]، و(لامارتين)[60] Lamartine قبـل (ابي نُوَاس)[61]. فهؤلاء الأشـخاص عرفوا أسـوأ أنواع العقوبات: ففي بلاد اللجوء، وعلى الرغم من اندماجهم كما أشـرتَ، كانوا يُعَـدّون دوماً ومهما فعلوا (وافديـن)، وكانـوا كذلـك يُعَدّون فـي بلدهم الأصلـي؛ فهم دوماً وافـدون مـن مكان آخر. فأنتَ تكون ذا ازدواجية أو لا تكون شـيئاً. إنـه انفصـام فـي الشـخصية (شـيزوفرينيا) Schizophrène، يا بُنَيّ! إذًا، من فضلك، يا سيِّد أبا العُرَيف، جَنِّبْني خطبك التافهة.

همَس الفتى المراهق مرتبكاً وبخجل قائلاً:

- هـذا ثَـراءٌ، أليس كذلك؟ فالجـدةُ يونانية، والأم فرنسـية، والأب مصري من أصولٍ سوريةٍ - لبنـانية.. أليس هذا ثَراءً؟

---

(56) يقصد بذلك الكتب المقررة في المدارس التي تعلموا فيها وهي من تأليف فرنسـيين، وهي تتضمـن تاريخ آداب بلادهم لا بلد المدرسـة التي تُعَلَّم فيها تلك الكتـب، والمقصود بالطبع هذه المدارس التبشيرية وغير التبشيرية التابعة لعدد من بلدان الغرب، لربط الجيل الواعي في البلاد العربيـة بتلك البلدان، لأنهم يعرفون عنها أكثر مما يعرفون عـن بلدانهم التي ولدوا فيها، وهي ظاهرة مستشرية أكثر في زماننا وفي مختلف البلدان العربية، وفي طليعتها لبنان (المترجم).

(57) لعله يقصد هنا البيئة اللبنانية تحديداً (المترجم).

(58) أندريه جيد: كاتب فرنسـي (1869 - 1951) كتب الروايات واليوميات. من أشهر رواياته إيزابيل، ترجمها المراجع ونشـرت مرتـين، واللاأخلاقي، والأقوات الأرضيـة، وقد تُرجمتا إلى العربية. حصل على جائزة نوبل 1949 (المراجع).

(59) يعنـي الكاتب الروائـي والقصصي الكبير (نجيب محفـوظ) (1912 - 2006)، الذي نال جائزة (نوبل) للآداب سنة 1988، وهو أشهر من أن يعرف (المترجم).

(60) الفونس دو لامارتين: شاعر ورجل سياسيّ فرنسي (1790 - 1869)، كان رائد الرومانسية في فرنسا بديوانه الشهير «تأملات»، وله مؤلفات كثيرة (المترجم).

(61) أبو نواس: واسمه الحسن بن هانئ (145 - 198هـ)، من شعراء العصر العباسي الأول، ولد في البصرة، وتخرج في الشعر على يد الشاعر والبة بن الحباب بالكوفة، والراوية خلف الأحمر وأقام في بغداد، وكان مقرباً من الخليفة الأمين، أغلب شعره كان في الخمريات.

- أنــا لا أنكِــر ذلك. وهذا لا يمنع، أحيانــاً، من أن يحصل لي أن أغبِط الفقراء.

ولـدى التوجُّه نحو السـلَّم الـذي يُفْضي إلى الدور السـفلي، استأنف (تيوفان) قوله بصوتٍ متغطرِس:

- غداً، مع الفجر، سأنطلق إلى (لَيفادي) Livadi.

- هل أفترض أنك تذهب لركوب الخيل؟

- بالضبط. وهذا سيزيل عني التوتُّر.

وأثنــاء نزولهما على درجات السـلَّم، أبـدى (تيمور) ملاحظة قائلاً:

- عندمــا أفكِّــر فــي أنــك أحضــرت حصانــك (أشــقر فرنسـا) alezan de France، لا شك في أنه الحصان الوحيد في (باتموس)[62] Pátmos.

- لا شيء في العالم يفصلني عن (جيهول)[63] Jehol.

- إننــي لا أزال أذكــر وجــوه النــاس عندمــا رأوه يصــل إلــى (سكالا)[64] Skala.

- إنني لا أرى ما يدهش جداً في الأمر.

وصاح (تيمور) بحدّة قائلاً:

- هل تريد أن تضحك؟ الحصان في حاجة إلى فضاء واسع! وحاجة (جيهول) للفضاء أكبر من حاجة الخيول الأخرى! وهنا لا يشاهد المرء سوى دروبٍ شديدة الانحدار، وجبالٍ قاحلة، وأرض كثيـرة الحجارة. وفي كل مترٍ يُخْشَــى من دَهْـسِ عجوز. هل كنتَ تتصوَّر العَدْوَ في الصحراء مثلما كنتَ تعيش في (القاهرة)؟

---

(62) باتموس: اسم جزيرة يونانية (المترجم).

(63) ويمكن نطقه على الطريقة الفرنسية (جيول) (المترجم).

(64) سكالا: مدينة رئيسية في جزيرة (باتموس) المذكورة، وفيها ميناء للسفن (المترجم).

- عَدْوٌ، خَبَبٌ[65]. أنت تعلم تماماً أنني لا أستطيع الاستغناءَ عـن أوقات الانطلاق تلـك. ثمَّ إن الحصان يشـفى. لقد تحدَّثنا عن ذلك مئة مرة.

- غريب! .. ولكن ليس بطريقة علمية بالنسبة لطبيب.

نَفَثَ (تيوفان) نفثة غيظٍ، ونزل بسرعة على السلَّم.

* * *

أطلَّ الفجر.

كانـت قطعـان من الماشـية تهبط من الحظائر فـي جوقة من الثُّغاء[66]، وحول أعناقها أطواقٌ من الخرز الأزرق. وكانت حُملان عيـد الفصـح تتوالى، وهـي تقفز، غيـرَ واعيـةٍ للمصير الحزين الذي كان يتربص لبعضها: فنحن في منتصف شهر آذار/مارس. وفي أقل من شهر، سيكون عيد الفصح الأرثوذكسي، وكما تقضي العادة، فإن كل أسـرةٍ كانت تحترم نفسَـها، سـتقدم حَمَلاً مشوياً على السَّـفُّود[67]. كانت السـماء فوق الجزيرة مشـبَّعةً الآن بأريج الزيت والزعتر.

ثبَّـت (تيوفـان) حوضَـه، ورفـع معصميـه برشـاقة، وجـذب العِنـان، فتوقَّـف الحصان فوراً، ثم فتح (تيوفـان) أصابعه، وحرَّر يـده اليمنى، ليدغـدغ بها عنق الحصان، وانتظـر بصبر أن يعبُر القطيعُ الطريق.

هل تريد أن تضحك؟ الحصان في حاجة إلى فضاء واسع!

الحـقُّ مع (تيمور) إلى حد بعيد! لم يكن (تيوفان) يسـتطيع

(65) الخبب: نوع من عَدْو الحصان (المترجم).

(66) الثغاء: الصوت الذي تصدره الأغنام والماعز (المترجم).

(67) السفّود: السيخ الذي يشوى عليه اللحم (المترجم).

شيئاً. ما إن احتفَل بعيد ميلاده السادس، حتى أركبَه والدُه، للمرة الأولى، على حصان. كيف يصف تأثُّره في ذلك اليوم؟ وبأي كلمات؟ لقد كان يشعر بأنه سيد العالم الذي لا يُقْهَر.

وكان قد حظِي، في السبعينيات، بالتعرُّف على (رَنْدَا) Randa، وهي فارسةٌ مصرية هائلة، كانت تعمل معلمة لفنّ الترويض، وكانت تذكر بإعجاب علاقة التناغم، لا الإكراه، التي تنعقد بين الإنسان والحيوان. وقد أجابت حين سُئلتْ عن ولَعِها الموروث بالخيل عن أبيها - وهو المنتج الشهير والمخرج السينمائي[68] في الزمن الذي كانت (القاهرة) تلقَّب فيه بـ (هولِّيوُود الشرق) Hollywood de l'Orient - فقالت: «إن الحصان دوماً في رأسي». وأضافت: «كان والدي مغرماً إلى حد بعيد بحيواناته، إلى درجة وصلت به كثيراً إلى أن يفتتح أفلامه أو يختمها بمشهد للخيل». وكانت (رندا) أول امرأة تمارِس فن ترويض الخيل غير المعروف في (مصر) حتى ذلك الحين، وهو الفن الذي يمثِّل، في رأيها، شكل التواصل الأكثر تهيئةً مع الحصان، وقالت: «أنت تتعلَّم التحدُّث معه، وتعلُّمه تصرُّفاتٍ وحركاتٍ فطريةً فيه، ولكن ينبغي تنميتها». وأعلنت، ذات يوم، بالجديةِ الأكثر في العالم، قولَها: «الحصان هو أيضاً طبيب». فقهقه (تيوفان)، فقالت له: «لا، يا (تيو)[69] Théo، لا تضحك. لسوف تُدرِك ذلك عندما تكفُّ عن ركوب الحصان

(68) واسمه (هنري بركات) (1914 - 1997) المخرج المصري العملاق الذي أخرج عدداً كبيراً من الأفلام، من أشهرها: لحن الخلود، دعاء الكروان، في بيتنا رجل، الحب الضائع، أفواه وأرانب. ولد في القاهرة، وهو من أصل لبناني كالمخرج (يوسف شاهين). كان يلقَّب بـ (شيخ المخرجين) (المترجم).

(69) وهو نداء اختصار للتحبُّب لاسم (تيوفان) (المترجم).

بطريقـة ميكانيكيـة». وما كان (تيوفان) لينسـى مـا كانت ترويه له بشـأن وصول الفاتحين إلى أمريكا الجنوبية: عندما اكتشـف الهنود (الحمر) الخيول الأولى التي يركبها الغزاة الإسبان، كانوا يعتقدون أن في كل كائن مخلوقاً وحيداً بذاته.

واستخلصت الفارسة المصرية قائلة:

- أنـت تُـدرِك أن هدف كل مروِّض أن يكون واحداً مع مطيته، إلـى درجة أنك ترقص مع حصانك، كما في رقص (الباليه)، من غير حاجةٍ إلى كلمات، إذ لا يكون هنالك شيء مع القلب.

من غير حاجةٍ إلى كلمات، إذ لا يكون هنالك شيء مع القلب أصبـح طريق (تيوفـان) خالياً منذ بضع دقائـق. وقد لاحظ ذلك للتو. فأطلق العِنان بحركة مرِنة لـ (جيهول) باتِّجاه شاطئ (ليفـادي). كان المـكان مقفـراً في تلك السـاعة، التي كان الفجر يبزغ فيها ببطء.

كان هنـاك بضع شـجرات زيتـون تلقي بظلهـا الخجول على الامتـداد الرملـي، وضبـابٌ صَباحـيّ خفيف يطفو علـى البحر، وهنالك أيضاً ماساتٌ متحرِّكةٌ تتلألأ تحت هذا الستار[70].

هنا، كان بإمكان (جيهول) أن يعدو بقدر ما يريد. وقد أطلقه، فانطلـق كهزيم الرعـد المخنوق، فأفزعت ضجة انطلاقته سـرباً من العصافير. أشعل (جيهول) الرمال بعدوه، فسَفَّها إلى بطنه، وكأنه كان يحاول التخلُّص من فارسـه، غير أن هذا الفارس بقي لا يتزحزح، لأن إرادته لا تُقْهَر. وكان (جيهول) يحسّ بذلك، فكان يعـدو علـى امتداد الشـاطئ، ويتصبَّب منه العـرق حتى قوائمه،

(70) يغلب على الظن أنه كان يقصد بهذه الماسات التماعات أمواج البحر، نظراً لانعكاس أضواء الفجر الأولى عليها (المترجم).

بينما كانت موجةٌ بين الحين والحين ترتمي شفافةً على الرمل، وترشق الرذاذ على عُرفِه.

لم يكد (تيوفان) يضع رجله في الركاب، حتى اجتاحه شعُورٌ بالنشوة، بعيداً عن الصرخات، والأوجاع، والمآسي، والأطياف الراكعة، وواضعاً مسافة أبعد فأبعد بينه وبينها. أو على الأقل كان يتصوَّر قدرتَه على فعل ذلك.

* * *

- دكتور (دِبّانِه)، إنني أكلِّمك من غرفة العناية المركزة[71] réa.

أصبحت كل أحاسيس (تيوفان) في حالة إنذار، وسأل:

- ما الذي يجري؟ هل يتعلق الأمر بـ..

- نعم. إن حالته مُقْلقَة. ومن المحتمل جداً أن نكون أمام صدمة نَزْفيَّة. وقد حقنتُه بلترين من (الكريستالُوئيد) Cristalloïde في الوريد، و..

ردَّ (تيوفان) بقوله:

- أنا قادم!

ارتعد كلُّ جسده.

لقد كان يرتعد مثلَ صبيٍّ في الظلام.

سمع من خلال التشوُّش صوت زوجته القلق تسأل:

- ما الذي جرى؟

فردَّ:

- لا شيءَ خطيرٌ.

لبِس ثوب المنزل r. de ch.، واندفع نحو سيارته حافيَ القدمين.

* * *

(71) هذه الكلمة اختصارٌ لكلمة (réanimation) أي: إنعاش (المترجم).

- يا إلهي! متى ستتلاشى هذه الذكريات؟

أوقف حصانه قليلاً، وأطلق صرخة مروِّعة، ثم أرخى العِنانَ، وأمسك عُرْف الحصان بيدٍ، بينما أنشبَ يده الأخرى في بطنه، كما لو كان يريد أن ينتزع أحشاءَه.

ثم ارتمى على الرمال.

(3)

كان بابه يُقرَع.. يُقرَع على بابه أم في رأسه؟

استوى على سريره، مشوَّشَ الذهن.

سأله (تيمور):

- هل أنت بخير؟

- إنني.. إنني لا أدري.

- كنتَ مُغْمَىَ عليك.

- في (ليفادي)، أليس كذلك؟

- بلى.

- وكيف عدتُ أنا إلى البيت؟ انتظر! إنني أتذكَّر. كان هنالك ذاك الرجل، إنه إنكليزي. وعلى أي حال، كانت نبرته إنكليزية. لم يكن منظره لطيفاً. بل كان منفِّراً جداً..

- فسِّرْ ذلك.

- طوال الوقت الذي كان هذا الرجل الطيِّب يكلِّمني فيه، كان متاعُه يتدلَّى على بعد بضعة سنتيمترات من وجهي.

انفجر الفتى المراهق ضاحكاً:

- من هواة العُريّ..

- لقد ساعدني على النهوض.

دسَّ (تيوفان) يده في شعره المنفوش.

- إنني لا أفهم. ما الذي يمكن أن يكون جرى لي؟

اقترح (تيمور) وهو يختلس ابتسامة قائلاً:

- في رأيي، ينبغي استشارة طبيب.

- بالتأكيد. سأذهب لرؤية (باباداكيس) Papadakis.

- هذا العجوز الذي يحسب نفسه طبيباً؟

- أنت تقول أيَّ شيءٍ كان. إن (باباداكيس) طبيبٌ ممتاز. وإني لأحبُّ أن أصل إلى سِنِّه بمثل وعيه وانفتاح ذهنه.

- على أي حال، لستَ في حالة سيِّئة جداً، نظراً لأنك تمكَّنتَ من امتطاء حصانك (جيهول) مرة أخرى، وأرجعتَه إلى عند (مانوليس)[72] Manolis.

- وبعد ذلك..

- اصطحبك بسيارته إلى هنا. كان ينبغي لك أن تنظر إلى رأسك.

تضاعفت شدّة القَرْعِ على الباب.

- يا دكتور!

قرَّر (تيوفان) أن يفتح الباب، فإذا برجلٍ، ذي وجه متعرِّق، نَفِدَ صبرُه على العتبة.

- أخيراً، يا دكتور (دِبّانِه)! لقد أوشكتُ على العودة.

- ماذا هناك؟

- أنا مبعوث من قبل السيدة (بيبا) Béba. ابنتُها ليست على ما يُرام. وقد حاولنا أن نتصل بك هاتفياً طيلة الصباح، ولكن لم يردَّ أحد. كان الهاتف يرِنّ في الفراغ.

- السيدة (بيبا)؟

(72) وهو الفلاح اليوناني الذي عهد إليه (تيوفان) بحصانه (المترجم).

- (بيبا فاسُـيلِي Vassili). المالكة الجديدة لنُزُل (بانسيون) الأسرة.

وأشار الرجل إلى سيارة أجرة في الأسفل.

- لقد كلفتْني بإحضارك. وإعادتك بالتأكيد.

كان (تيوفـان) يشـعر بـآلام فـي كل جسـمه. وكان يشـعر بأنه محموم، ومحطَّم. فتأوَّه قائلاً:

- انتظرني. سأعود.

* * *

كانت سـيارة الأجرة تسير على الطريقة اليونانية. تُسْرِع على الشـواطئ، ويُطْفَـأ محرِّكهـا في المنحـدرات، طريقـة مثل أخرى للاقتصـاد في البنزيـن. والبيوت ذاتُ الشـكل المكعَّـب، والمتراصُّ بعضُهـا بجنـب بعض على امتـداد الأزقة المتعرِّجـة التي تفضي جميعـاً إلى ديـر القديس حنَّـا (جـان) Saint - Jean، لم تكن تبـدو لـه ناصعة البيـاض. توقَّفت سـيارة الأجـرة أمام سُـوَيْحةٍ ظليلةٍ كان الرجال يلعبون فيها الورق.

- هنا.

وأشار السائق بإصبعه إلى باب أزرق.

نـزل (تيوفـان). علـى يمـين البـاب نُقشَـتْ كلمـة: Epiphaneia[73] . وهو اسم غريب لنُزُلٍ أُسَري. جَذب (تيوفان) جرساً صغيراً من النحاس. وبعد بضع دقائق، فتحت الباب امرأةٌ

(73) وهـي بالفرنسـية (Épiphanie) وفي الإنكليزيـة (Epiphany) وتعني في النصرانية (عيـد الظهور الإلهـي) أو (الغِطاس) أو(العماد)، أو (عيد الملـوك المجوس الثلاثة) الذين جاؤوا بحثاً عن ظهور المسـيح، ويكون في يوم 1/6 من كل عام، لأن (يوحنا المعمدان) عمَّد المسـيح في نهر الأردن. و(إبيفانيا) اسـم عجوز تأتي ليلة 1/6، على غرار (بابا نويل) ليلة 12/25 من كل عام، لتوزِّع الحلوى على الأطفال المطيعين، وقطعَ الفحم على الأشقياء، وتدخل البيوت من خلال المداخن، ولذا يكون وجهها أسود من السُّخام، ولها صلة ببعض الأساطير القديمة (المترجم).

ذات وجه جامد، ترتدي السواد، وقد غطَّت شعرها بفولار، وقبل أن يعلن عن وصوله، دعته ليتبعها على امتداد ممرٍّ تحفُّه أشجار السَّرو ويؤدي إلى بيتٍ من طبقة واحدة، تزينه نبتة الجهَنَّميَّة المتعرِّشة الحمراء. كانت هنالك بضع درجات حجرية. أدخلت المرأة الطبيب إلى غرفة كبيرة ذات جدران فاتحة. وقالت له:

- انتظر هنا، من فضلك. لسوف أعلِم السيدة.

كان أول تفصيل لفت (تيوفانَ) هو العددُ الهائل من الكتب التي تملأ الخزائن على مدار الجدران. كثيرٌ من الروايات، والآداب اليونانية القديمة، وأيضاً الروايات البوليسية. وبالعكس، كان هنالك قليل من الأثاث. أريكةٌ نثرت عليها الوسائد المزينة برسوم متعدِّدة الألوان. وكَنَبَتان. وطاولة منخفضة من خشب الـ (باليسَّاندر) palissandre وضعت عليها لعبة ورق (التاروت) tarot وصندوق سيكار cigarillos. وكانت هنالك أيقونة مرصعة بالفضة المطلية بالقصدير معلَّقة قرب باب - نافذةٍ ينفتح على مصطبة. وفوقها تماماً كانت تلمع عين زرقاء من الـ (بورسلين) porcelaine. تحالف بين الإيمان والتطيُّر.

كان (ديميتري) قد فسَّر له ذات يوم قائلاً:

- ضع في رأسك جيداً أن عشرة بالمئة من البشرية يموتون ميتة طبيعية. والبقية يموتون من الحسد والغَيْرة. لا تضحك! إنني جادٌّ. وتنبعثُ من بعض الناس طاقات سوداء، وأفكارٌ أكثرُ سُمِّيَّةً من السمّ الذي قتل (سقراط)[74] Socrate.

(74) سقراط: فيلسوف يوناني (470 - 399ق.م)، عُرف من قِبَل مريده (افلاطون) Platon، وهو أبو الجدلية (الديالكتيك)، وبالنتيجة أبو الفلسفة كلها. وقد حُكِم عليه بالموت عن طريق تجرُّع السم (المترجم).

وكان (تيوفان) يتظاهر بالاهتمام، وسأله:

- وما أعراض هذا المرض الرهيب؟

- تكـون تعبًا باسـتمرار، وتنـام نوماً سـيئاً، وتأخذك قدماك إلى كل مكان، والأشياء تفرّ من يديك، وبخاصة.. وبخاصة تكون منحوسًـا، ولكنه نحسٌ! ومهما تفعلْ تُخْفِقْ. وإذا أُعْطِيتَ سبيكة من ذهب، تحوَّلتْ إلى نُفايةِ حديد.

رسَم صديقه إشارة الصليب ثلاث مرات وهو خافضُ الجفنين.

- توجـد وسـيلة واحـدة لمعرفة إن كانـت العين الشـريرة فيك. اسـكب ماء في كأس، وأضف إليه بضع قطرات من الزيت. فإذا رسا الزيت في القعر، فلا يكون عليك حينئذٍ سوى الصلاة. هل فهمت؟

- نعم، نعم. منذ هذا المساء سأقوم بالتجربة.

ومـن المؤكَّـد أن (تيوفـان) لم يقم بشـيء. لأن حياته كانت قد تحطمت: فماذا يمكن أن يحلّ به أكثر؟

سـار (تيوفـان) نحو البـاب - النافذة، كان المنظر رائعـاً. فقد كانت جزيرتـا (ليبسـي) Lipsi و(ماراثي) Marathi الصغيرتان îlots تشـبهان من بعيد، حُوتَينِ منقلبين على ظهريهما بلا حَرَاك. وفي الوقـت الـذي كان يتقـدَّم فيه نحـو المصطبة، كانـت هنالك أنغام تنبعـث من آلـة الـ (باغْلَمـا)[75] baglama، وكان هنالك صوت عـذب قريب جداً من صوت آلـة الـ(بوزوكي)[76] bouzouki. كان

(75) الباغلما: آلة موسـيقية متطورة عن (البوزوكي) أو (البزق)، وهما من الآلات الوترية الأكثر شعبية وانتشاراً في البلقان وتركيا وإيران وبعض المناطق في سورية والعراق (المترجم).

(76) البوزوكي أو البزق من سلالة وترية واحدة، وهو ذو نغمات شجية رائعة، وقد كان من أشهر عازفي البزق المنفرد في سـورية الراحل (محمد عبد الكريم)، الذي لقب في حياته بلقب (أمير البزق)، وتحتفظ الإذاعة السـورية بتسـجيلات كثيرة ونادرة لمعزوفاتـه. وهنالك مقطوعة على البزق تبثّ صباح كل يوم قبيل افتتاح بث إذاعة دمشق، وقبل النشيد السوري مباشرة (المترجم).

بعضهم يعزف داخل البيت، من غير مهارة في العزف، غير أنه لم يكن رديئاً.

- نهارك سعيد، يا دكتور.

فاستدار نحو الصوت.

نعـم. كانت امرأة شـبيهة تماماً بتلك الممثلـة الإيطالية التي نسـي اسمها، وكانت رائعة بلباس حاصدة الرز، ومثيرة بالبنطال القصير (الشورت)، كما أنها كانت مثيرة جداً وهي عارية الفخذين إلـى درجـة لا تُصدَّق، مثلَ مُضيفتِه في هـذا الثوب المفصَّل على قدر الجسـم، والذي يكاد ينبجس منـه محيط الخصرين. قالت بصوت بطيء:

- أشـكر لـك قدومـك. هـل يمكن أن نجلـس لحظـة؟ أودُّ أن أكلِّمك قبل أن تفحص ابنتي.

كان فـي صوتهـا بُحَّـةُ خفيفـة، كبُحـة مُدَخِّنـةٍ كبيـرة عنـد الاستيقاظ.

اتَّخذ (تيوفان) مكانه على كَنَبة، وقال:

- لقـد لمحتُكم عندما نزلتُم من سـفينة (النجمـة الزرقاء). وكان معك أيضاً صبيٌّ صغير.

- إنـه (اليكْسـيس) Alexsis، اجـل. هـل ترغـب فـي تنـاول القهوة؟

واصلت أنغام (الباغْلَما) ملء المنزل. فسألها:

- هل ابنتُك هي التي تعزف؟

- نعـم. إنهـا تأخـذ بالعـزف في كل مرة تشـعر بأنها ليسـت بخير، وتسمي آلتها «ترياقي ضد الموت». أنت لم تجبني: قهوة؟

أشار لها بالنفي، وقال:

- كلِّميني عنها. لِمَ هذا الكرسيّ المتحرِّك؟

- أصيبت (أنطونيا) Antonia بشلل الأطفال la poliomyélite في الثانية عشرة من عمرها، فكان ذلك أمراً رهيباً. كان كابوساً حقيقياً. وأسوأ الكوابيس تلك التي تهجم عليك عند النهوض من النوم. ومع ذلك عرفنا أوقاتاً من الأمل. صدِّق ذلك أو لا تصدِّق، في الاثني عشر يوماً الأخيرة تراجع الشلل، وهذه معجزة.

- لسوف أُخيِّب أملَكِ. ليس هنالك معجزة في الأمر. ولكنه السير التقليدي لهذا المرض: فبعض الخلايا المصابة لا تتجاوز الطور الالتهابي، وهذا ما يفسِّر انعكاسيَّتَها، وبعضها الآخر يموت.

بدت الخيبةُ على وجهها، فقالت:

- إنني أرى أن الحياة تسير بشكل سيِّئ: فالناسُ الطيِّبون يدفعون دوماً فاتورة الخبيثين. ولم تكن (أنطونيا) لتستحقَّ ذلك. لو كنتَ تعرف كم كانت تتألَّق قبل ذلك! لقد كانت في حركة دائبةٍ، وجريئةً، وحادَّةَ الطبع. لقد كانت بنتاً رائعة.

- كانت؟

- إنها تعايش إعاقتها بشكلٍ سيِّئ جداً. ولا تعبِّر عن ذلك، ولكنني أعلم أنها تلعن، في كلِّ يوم، الظروف التي رمتْها بهذا الحجر. وقد انطوتْ على نفسها، ولا تتواصل إلا قليلاً ونادراً. فلا تُصْدَم إنْ بدت عدوانية أو قليلة الأدب نحوك. فهي بنت لطيفة. وقد قلتُ لك ذلك. فقد كانت قبل هذه السَّفالة.. عفواً.. قبل هذا المرض تشبه شمساً.

- ومِمَّ تشكو اليوم؟

- منـذ أكثر من ثلاثة أسـابيع وهي محمومـة. حُمَّى محيِّرة تصعد وتهبط بشكل دوري. وكانت تشكو، من وقت لآخر، من آلامٍ مِفصلِيّـة. وأقِـرُّ بأنني، عند رؤية حالتها، لم أكن شـديدة القلق. وقد دخلنا اليوم، مع ذلك، في الأسـبوع الرابع، وفي هذا الصباح استيقظتْ ودرجة حرارتها أربعون.

أمعن (تيوفان) النظر في المرأة كما لو أنه كان ينتظر منها أن تتابـع كلامها، ولكنها حافظت على صمتها، فأمسـك بحقيبته، وقال:

- هلَّا أخذتِني إليها!

* * *

كانـت النوافـذ مغلقـة. وكان مصبـاح السـرير يبعـث ضـوءاً شاحباً.

وكانت (أنطونيا) جالسـةً على سـريرها، وظهرها مستند إلى كومـة مـن الوسـائد، وكانـت تحتضـن (الباغْلَما)، لكنهـا بقيت عديمة التأثُّر عندما دخلا إلى غرفتها. واسـتمرَّتْ تعزف، وكانت تتوقف، من حين لآخر، كي تدقّ على صندوق الرنين. وكانت هذه الآلة تبدو كبيرة جداً بجنب هذا الجسم الرقيق، مع أنها لا تكاد تبلغ خمسين سنتيمتراً.

وعلـى عكـس أمهـا، كان وجههـا دقيقـاً، شـاحباً جـداً، تزينه وجنتـان بارزتـان، ولها جفنـان ورديان تقريباً، رموشـهما طويلة، وعينان بُنِّيتان واسعتان.

وكان شعرها الأسود ينسدل على كتفيها. وما كان يُدهِش فيها، على وجه الخصوص، جمال يديها البيضاوين وجمال أصابعها.

بدأت (بيبا فاسِّيلي) بالقول:

- Kouklamou[77]، يا دُمْيَتي، ها هو الدكتور (دِبّانه).

بقيت (أنطونيا) غيرَ مبالية، فقال (تيوفان) للأم:

- هلّا تركتِنا، أرجوك!

لبِّت الأم الطَلب. فتقدَّم (تيوفان) خطوة من السرير، قائلاً:

- اسمي (تيوفان).

لـم يتحـرك أيُّ ملمَـحٍ في وجـه (أنطونيا). واصـل (تيوفان) قائلاً:

- أنـا أيضـاً كنت، في شـبابي، أعزف على آلة موسـيقية، هي (الغيتـار)، ولا أزال أعـزف عليـه أحيانـاً حتى الآن وأنـا وحدي، هـذا أفضل. رحمة بـآذان الآخريـن. إنه يكـون أفضل بمحبة آذان الآخرين.

ثم أخذ سَمّاعتَه.

كانت الريح الخفيفة، في الخارج، في أشـجار الزيتون، تحدِث خشخشة.

مر بعض الوقت. جلس (تيوفان) على حافة السرير، وقال:

- هــل تعرفــين أصـــل (الباغْلَمــا)؟ إنه يعـــود إلى الزمن الـذي احتلّ فيه الأتـراك اليـونان، فقـد منـعـوا آلـة (البوزوكي = البُـزُق). وعندئذ، وذات يـوم، تصـوَّر أحدهـم (الباغْلَما)، وهي بُـزُقٌ صغير يمكن إخفاؤه بسـهولة تحتَ معطَـفٍ طويل. وهكذا، وحتـى فـي السـجون، كان السـجناء يعزفـون عليـه طـوال مدة حبسهم.

أمعن (تيوفان) النظر في (أنطونيا)، ثم قال:

---

(77) هذه الكلمة يونانية بحروف لاتينية، بمعنى (لعبتي) أو (دميتي) التي تلتها تماماً في الأصل الفرنسي، وهي بالحروف اليونانية (κούκλαμου) (المترجم).

- تملـك الكائنـات البشـرية وسـائل خارقة: فهـم يُلاحَقون، ويُحمَلون على السكوت، ويُعَذَّبون، لكنهم ينجحون، مع ذلك، في المقاومة. هل فهِمتِ؟

ظلَّتْ (أنطونيا) صامتة. فهل كانت تصغي إليه فقط؟

وحينئذٍ، قرَّب صِوان السماعة من صدر (أنطونيا) التي رفعت فوراً آلة (البَاغْلَما) لتتخذ منها درعاً. فقال لها:

- يجب أن أصغي إلى قلبك يا (أنطونيا)، فهو لا يكتم سِـرّاً. وعليَّ أن أفعل ذلك.

وتحرّك جفناها، فقال:

- نعـم، قلـتُ بوضوح إنه «لا يكتم سِـرّاً». إنّ مَنْ يصغي إلى قلبِ ما يَسْمَع أيضاً الأسرار الأكثر سِرِّيَّةً عند الكائنات. فإن كنتِ ترغبين في ذلك، فلسوف أعيد عليك ما يرويه قلبك لي. أعِدُك بذلك.

أمعنت (أنطونيا) النظر في (تيوفان) وهي مرتبكة، ثم تمتمت قائلة:

- هل أنتَ مجنون؟

- قطعًا، وحتماً، ونهائياً.. أنا مجنون.

ثم بادر إلى القول:

- أنا وأنت نشكّل ثنائياً جميلاً.

- أنا لستُ مجنونة.

- لست مجنونة؟ لقد خاب أملي. ومع ذلك، فأنتِ تبدين لي ذكيـة جـداً كي تكوني كذلـك. أنا لا أتحدَّث عـن الجنون المألوف، ذلـك الجنـون الـذي يحيـط بنـا يوميـاً، لا.. إننـي أتحـدَّث عن الجنـون الحقيقي، ذاك الذي يتيح لنـا أن نرى العالم لا كما هو عليه، وإنما كما نحلم أن يكون.

أخـذ مـن يديها (الباغْلَمـا)، وهو يناجي نفسَـه، ووضعها في آخـر السـرير. وهذه المرة، لم تقـاوم (أنطونيا). فـأزاح ببطء قَبَّة ثوب نومها ودسَّ السماعة في التجويف. فقالت:

- إنها باردة!

بعينـين نصف مغلقتـين، تابع (تيوفان) فحصـه، بينما كانت هي تراقبه خُلسةً.

قال لها (تيوفان):

- الآن يجب أن تتمدَّدي. سأساعدك.

رفعها قليلاً وجعلها مسـتلقية. وقد تركته يفعل ذلك، كما لو كان الأمر لا يخصّها.

وعند الجسّ، لاحظ زيادةً في حجم الكبد والطِّحال، ولاحظ كذلك تضخماً بسـيطاً في الغدد اللمفاوية على مستوى العنق.

قال وهو يجلسها عند رأس السرير:

- حدثتني أمُّك عن أوجاع مِفصَليّة، فهل هي شديدة؟
- هذا يكفي! دعني هادئة.
- أجيبيني، يا (أنطونيا).

أشـار إلـى سـاقيها الهامدتـين، اللتـين كانـت اليسـرى منهمـا مشـوَّهةً بشـكل محسـوس بسـبب الضمـور العضلي l'amyotrophie وارتفع صوته درجة قائلاً:

- ألا تعتقدين أن مرضاً واحداً يكفي؟ وهل ينبغي أن يُضاف إلى أوجاعك وجعٌ آخر؟
- رُدَّ لي (باغْلَمَتي)!

تنـاول آلتهـا، ولكن بدلاً من أن يردها إليهـا مرَّر أصابعَه على طول ذراع هذه (الباغْلَما)، وقال:

- هذا غريب. خمسة أوتار. الأسفلان منها توافق جواباً octave في أعلى الثالث. لماذا؟

- أعِدْها إليَّ!

- والوتر الأول من الأعلى يوافق جواباً فوق الثاني. هذا غريب حقاً.

رفعت يدها مغتاظة، وقالت:

- اخْرُج!

- أكرِّر: هل أوجاع مفاصلِك شديدة جداً؟

- لا!

- هل هي منتظمة؟

- لا!

- سؤال آخر: هل شربتِ حليباً في الأسابيع الأخيرة؟

- حليباً؟

- أو أكلتِ جبنةً؟ وعلى وجه الخصوص جبنة ماعز؟

- جبنة ماعز، نعم.

- أكلتِها حديثاً؟

- أعطِني (باغْلَمتي)!

- حديثاً؟

- إنني آكل منها في كل الأوقات!

- حسناً جداً.

أعاد إليها الآلة، وهو يقول:

- غداً سيأتي أحدُهم ليأخذ منك عيِّنَةَ دَم، فأرجو أن تستقبليه بمزيد من الرقة. وإلى اللقاء، يا (أنطونيا).

فصكّه الجواب التالي:

- اذْهَبْ إلى الشيطان!

* * *

سألتْ (بيبا):

- ماذا هنالك، يا دكتور؟

- اطمئني. تحتاج إلى بعض المضادات الحيوية، وسيعود كل شيء منتظَماً.

- وماذا عندها؟

- لا شيءَ خطيرٌ. إن مرضها شائع جداً في بلدان البحر المتوسط. إنها الحمَّى المتموِّجة، وتدعى أيضاً (الحمَّى المالطية) fièvre de Malte. وسيؤكِّدها فحص الدم.

- فعلاً، إن سوء الطالع جادٌّ في ملاحقة هذه الطفلة المسكينة.

ابتسم (تيوفان)، وقال:

- هل هي العين الشريرة؟

- بالتأكيد! أرجو أن تكون مؤمناً بها. أما زلت لا تريد شُربَ القهوة؟

- الآن، بلى. وبكل سرور.

- أتريدها سُكَّراً زيادة أم وسطاً.. أو غير ذلك؟

- بلا سكَّر.

صَفَّقتِ السيِّدة بيديها، ونادت:

- (ديسبينا) Despina.. تعالي!

ثم قالت لـ (تيوفان):

- لنجلس.

ظهرت المرأة التي ترتدي السواد فوراً تقريباً، فأمرتها (بيبا) قائلة:

- Ena gliko، ena khoris zakhari[78].

ثم تناولت علبة السيكار الموضوعة على الطاولة المنخفضة، وقدَّمت واحداً لـ (تيوفان)، فقال:

- لا، شكراً. إنني أفضِّل سُمِّي الخاص[79].

ومدَّ إليها قَدّاحتَه وأشعل لها سيكارها، وبعد أن نفثت نفثتين خفيفتين، قالت:

- أنت لستَ يونانياً. إذن كيف حصل أن..

- أن أتكلَّم لغتكِ؟ إن جدتي لأمي يونانية.

- حقاً؟

- وأصلها من هنا. من جزيرة (باتموس).

- ومن أين جاء اسمُك الأول؟ أتصوَّر أنك تعرف معناه.

وقبل أن يتاح له الوقت للإجابة، تابعت كلامها بالقول:

- (ثيوس) théos يعني (الإله)، و(فانوس)phanos اي (المصباح) أو (المضيء)[80]، لقد كانت جدتك بعيدة النظر. وأنت من أي البلدان؟

تظاهر (تيوفان) بعدم سماع السؤال، وقال:

- لقد اشتريتِ منزلاً جميلاً.

(78) عبارة يونانية بحروف لاتينية، وتعني ((فنجاناً) واحداً حلواً، وواحداً بلا سُكَّر)، وهي بالحروف اليونانية (χωρίςζάχαρηέναγλυκό ، ανέ) (المترجم).

(79) يعني سيكارته ونوع دخّانه (المترجم).

(80) الكلمة الأولى باليونانية (θεος)، والثانية (φανος)، ولعل كلمة (فانوس) المستعملة في لغتنا مأخوذة عن اللغة اليونانية (المترجم).

- نحن هنا في القسم الخاص. وهو الأقل خراباً. وأرى أنني في حاجة إلى وقت لتجديد الغرف وصالة الطعام، وأنا أفتقر إلى الوقت. والمستأجِر الأول سيصل خلال أيام. ولحسن الحظ أنه صديق قديم جداً. وسيكون صبورًا. ومنذ متى تعيش في (باتموس)؟

- منذ أكثر من ثلاث سنوات بقليل.

- هناك ما ينبغي أن يكون قد صرفك عن المدن الكبيرة.

- أوَلم أقل لكِ من قبلُ أين كنتُ أعيش؟

- من المؤكَّد أنك لم تقل لي، أليس كذلك؟ أنت لا تشبه فلاحاً، ولا ريفياً. وأتصوَّرك من (لندن)، أو (باريس)، أو (برلين)، ما يدريني!

أشار بإصبعه إلى لعبة (التاروت)، وقال:

- هل أنت معتادةٌ على قراءة ما يسكتُ عنه محدِّثُك؟

- هذا ممكن. لقد تعلَّمتُ أيضاً كثيراً عن نفسي وأنا أنعم النظر في الآخرين. فقط كنتُ قصيرة النظر، ومن هنا كانت لي أخطاء كثيرة في التقدير.

وضعت الخادمة، ذاتُ الوجه الجامد، القهوةَ على الطاولة وانسحبت. قالت (بيبا):

- لماذا تقيم هنا؟ وهنا أقاصي العالم؟

فردّ مبتسماً:

- وأنتِ؟ لماذا اشتريتِ هذا المنزل هنا؟ وهذا آخر العالم؟

فوضعتْ، وسط حفيف (النايلون)، ساقًا على ساق، فظهر أعلى فخذيها، فسارعتْ إلى تصحيح ثَنْيةِ تنورتها. وقالت:

- أعتقـد أنـك كنـت تلميـذاً قديمـاً عنـد (اليسـوعيين)[81] les jésuites. فقـد عرفـتُ منهـم اثنـين أو ثلاثـة مـن نوعك: يجيبـون عـن سـؤالٍ بسـؤالٍ. وعلـى كل حـال، أنـا لا أتهـرَّب من الجواب، لقد اشتريت هذا المنزل لأنني كنتُ أرغب فيه.

وتناولت رشفة من القهوة، ثم قالت:

- هـل تعرف ما أعْلَنه مفكِّـرٌ صينيٌّ كبير بخصوص رغباتنا؟ لقد قال: «إنها كالأطفال: كلما أذْعَنّا لهم، أصبحوا أكثرَ تطلُّباً». وقد أصبحتْ رغبتي مستبدَّة.

رفع (تيوفان) حاجبيه، لأنه لم يكن يتخيَّل هذه المرأة تستشهد بمفكرين صينيين، ولا حتى بمَنْ دونهم.

كرَّرتْ (بيبا) سؤالها لـ (تيوفان):

- والآن؟ لماذا أنت هنا؟

- لنفترض أنني أحب البحر.

انفجرت (بيبا) ضاحكة، وقالت:

- إنك لتستخف بي إذًا في هذا الموضوع، يا دكتور، فهل تتصوَّر أنني سأقتنع بهذا النوع التهربي من الجواب؟ أنت..

(81) اليســوعيون: أُسِّسَتْ جماعة اليســوعيين ســنة 1540، وهي أحد أهم مكوِّناتِ الكنيسة الكاثوليكية، والبابا الحالي (فرانســوا أو فرانســيس Francis) هو أول يسوعي يتولَّى منصب البابوية منذ تأسيس الجماعة. وهي تشكل أكثر الجماعات فعالية بعد جماعة (الفرنسيسكان)، وقبــل جماعة (الدومينيكان). وعدد أتباعها 19.000 عضو عبر العالم. وهم معروفون بثقافتهم العالية بفضل تكوينهم الذي يمتد 15 ســنة، يتلقون خلالها دروســاً في (اللاهوت) و(الفلسفة) و(العلوم) وغيرها. ويتميزون بالطاعة المطلقة للبابا. وشعارهم (من أجل المجد الأعظم للرب). وهي لا تقبل النساء في صفوفها. والرئيس الأعلى للجماعة اليوم يدعى (أدولفو نيكولاس Adolfo Nicolás. من أبرز مهام الجماعة اليسوعية تعليم الناشئة وأبناء النخبة في المجتمعات المختلفة، في المدارس، والمعاهد، والجامعات المنتشــرة في أنحاء العالم، وهم يفاخرون بأن عدداً كبيراً من الوزراء والمسؤولين في العالم من خريجي مؤسساتهم هذه، ويذكرون أن الرئيس الأمريكي السابق (بل كلينتون) كان من خريجي الجامعة اليسوعية في جورجتاون الأمريكية (المترجم).

ولـم تُكمِـل جملتها.. فقد دخل إلى الغرفـة صبيٌّ في الثانية عشـرة أو الثالثـة عشـرة مـن العمـر. كان نحيفـاً جـداً، إلى حدّ الهزال تقريباً، شعره كستنائي فاتح ومتوسط الطول. ذهب نحو (بيبا)، وعانقها، والتفتَ من ثَمَّ إلى الطبيب، وقال:

- أُدْعَى (أليكسيس)، وأنت؟

- (تيوفان).

فتمتمت الأم قائلة للصبي:

- (أليكسـيس)! كـم مرةً قلـتُ لك لا تخاطـب الكبار بصيغة المفرد[82]! إن المستر (دِبّانِه) طبيبٌ، وقد جاء للعناية بأختك.

- آ..

ثم استعلمت الأم منه قائلة:

- ماذا بك؟ قالوا لي إنك غير سعيد.

- (طونيا)[83] Tonia ما تزال مريضة. وأجد هذا أمراً ظالماً.

دُهِش (تيوفان)، وقال:

- أمراً ظالماً؟

- بالتأكيـد. فـإن مرضها جعلهـا مثيرةً للاهتمـام، بينما أنا لم يحصل لي شـيء أبدًا. هل ستسـكن.. ستسكنون[84] هنا؟ إننا نؤجِّر غرفاً.

- هذا لطيف. ولكن عندي منزل.

- آ..؟ شـيء مؤسِـف. إن الأمـر عاجـل. يجب أن يكـون لدينا زبائن على جناح السرعة. وإلا صرنا في ضائقة.

(82) أي بصيغة (tu) يعني (انت) بدلاً من (vous) أي (أنتم) المعبرة عن الاحترام (المترجم).
(83) وهو اسم التحبُّب أو الدلع لأخته (أنطونيا) (المترجم).
(84) اسـتدرك الصبي بقوله (ستسـكنون)، الدال على صيغة الاحترام، على قوله (ستسـكن)، تطبيقاً لتنبيه امه إياه على ذلك (المترجم).

- (أليكسيس)!

- هذه هي الحقيقة أم لا يا أمي؟ فكثيراً ما كنتِ تردِّدين منذ أن غادرنـا (أثينـا) Athènes: «بشـرط أن يكون هنالـك زبائن، وإلا.. فوضعنا سيسوء».

كادت (بيبا فاسيلي) تختنق، فقالت:

- توقَّف!

تدخَّل (تيوفان) قائلاً:

- دعيه. عليَّ أن أذهب.

وتناول حقيبته وأضاف قائلاً:

- سـأطلب إلـى مسـتوصف (شـورا) Chora أن يبعث إليكِ أحدهـم لأخـذ عِيْنَـةِ دَمٍ مـن (أنطونيا)، وسـأعود عندما أحصل على النتائج.

- تمام. بكم أَدينُ لك؟

فأوقفها بحركةٍ تظاهر بها أنه يتناول حقيبته الموضوعة قرب الأريكة. وقال:

- فيما بعد.

- ولكن..

- لقـد فسَّـرتِ لي شـراءك لهذا المنـزل، ذاكرةً رغبـةً أصبحت مستبدة. وأما تفسير رغبتي، وتحصيل أتعابي، فلم يحن وقتهما بعد.

(4)

أبـدى الدكتور (لوكاس باباداكيس) رأيه بصوت واهِنٍ كحفيف الريش، فقال:

- نعـم، يا عزيزي (تيو)، إن لخلايانا ذاكـرةً، وذكاءً فائقاً. فلا تشكَّنَّ في ذلك.

بقـي (تيـو) صامتاً، لأن الغرض الـذي كان زميله قد تبنّاه لم يفاجئه. فقد قرأ، خلال حياته، ما يكفي من المؤلَّفات بشأن هذه المسـألة أو الأطروحـة غير المناسـبة. لكن بعـض الإثباتات تركته حيـران. تشـبيه الخلايا بمنمنماتٍ بشـرية؟ إن تفسـير الطبيعة ذات الشـكل غير البشـري بتشابهها مع السـلوك البشري يحمل اسـم «أنثروبومورفيـزم» anthropomorphisme. وهـذا تدنيس للمقدسات في عيون كل عالِم يحترم نفسه.

فتمتم وهو سارح الفكر قائلاً:

- ذاكرة وذكاء..

كان (باباداكيـس) يغـوص بمشـقة فـي كنبتـه. ويلاحـظ المرء تماماً، في طريقة تحرُّكه، أن الرجل، المقعد من داء المفاصل، يبدو أنـه يرفض بجسـمه الحـركات الأقل أهميـة. وكم يمكـن أن يكون عمـره؟ أكثـر من سـبعين عامـاً بالتأكيد. وهو يشـبه إلـى حدٍّ ما،

بلحيتــه الصغيــرة البيضــاء، وشــاربيه المعقوفين، نبيلاً إســبانياً هارباً من لوحة للمصوِّر (فيلاسكويز)[85] Vélasquez.

واستأنف اليوناني قائلاً:

- (تيــو)، فكِّــر قليــلاً. إن العضويــات وحيــدات الخليــة كانت تمثِّل الأشــكال الأولــى للحياة على هذا الكوكب. وبعد ســبعمئة وخمسين مليون سنة ظهرت بدورها العضويات متعددة الخلايا. هل تتابعني؟

- تمامــاً. لكننــي لا أرى دوماً أين تضــع الذكاء؟ فإن ما ذكرتَه آنفاً يسمَّى بكل بساطةٍ تطوُّراً. (داروين)[86] Darwin مثلاً..

فأصدر الرجل العجوز ضحكة جشَّاءَ هزت كل أعضائه، وقال:

- آ.. (داروين)! من الواضح.. (داروين). سنتحدَّث عنه، ولكن دعني أتابع. لأي الأسباب تعتقد أن هذه الخلايا قرَّرتْ ذات صباح جميل أن تتجمع في طوائف أكثر تراصَّاً؟ قل لي يا صديقي.

(85) فيلاســكويز: هو (دييغــو رودريغــو - 1660 - 1599) (Diego Rodrigo)، واســمه الأخير بالإســبانية (Velázquez) وينطــق (فيلاثكيث)، وهو مصور القصر الملكي الإســباني زمن الملك فيليب الرابع، ويعد أحد أهم المصورين في العهد الذهبي لإسـبانيا، اشــتهر برســم لوحات (البورتريه)، واللوحة المرادة هنا هي بورتريه لأحد النبلاء الإســبان المعاصرين للمصور، وأشهر لوحاته لوحة (الوصيفات) las Meninas. كان له تأثير في كثير من أعلام فن التصوير المشهورين بعده (المترجم).

(86) داروين: (تشــارلز - Charles) عالم طبيعة إنكليزي (1809 - 1882)، وضع - بكتاباته الأساســية، وأهمها كتابه (أصــل الأنــواع) On the Origin of Species (وهو مترجم إلى العربية) - نظريةَ تطور الأنواع الحية على الأرض، عن طريق الاصطفاء الطبيعي، وتأثير البيئة، والأهمية الوظيفية للأعضاء (والأخيرة قال بها العالم الفرنسي (لامارك) (م1829) Lamarck، وكان أول مــن فتح بها باب الحديــث عن التطور). وقال بفكرة الصراع مــن أجل البقاء، وفكرة البقــاء للأصلح أو الأقوى. غير أن هذه النظرية، جوبهــت بالرفض من قبل أتباعِ الخلق الإلهي، وأيَّد موقفهم أنه لم يستطع أن يثبت وجود الحلقة المفقودة بين أكثر القرود تطوراً (الشامبانزي) والإنسان. وقد كان لهذه النظرية ارتدادات خطيرة على المجتمعات البشرية، أواخر القرن 19 إلى منتصــف القرن 20، متمثلة في الحركات الاجتماعية والسياســية، ونظريات التمييز العنصري، وتفــوق الرجل الأبيض، ومركزية أوروبا في قيادة العالم، وظهور الفلســفات المادية كالماركســية، وارتفاع موجة الإلحاد بين البشر، وبخاصة في الغرب (المترجم).

لم يُتَحِ الوقتُ لـ (تيوفان) كي يجيب، فقد تابع الرجل يقول:

- بكل بساطة لأنها دُفِعَتْ بأمرٍ: هو البقاء على قيد الحياة. البقاء على قيد الحياة، يا (تيو)، أرأيتَ؟ حتى لا تزول، وقد توزَّعت هذه الخلايا المهامَّ بأكبر قدر من الدقة والفعالية كما هو الأمر في الهيكل التنظيمي متعدد الجنسيات. فإذا لم تسمِّ هذا المسلكَ ذكاءً، فأي اسم تُطلِق عليه؟ إنه ذكاء، لكنه أيضاً قوة ذاكرة. ذلك بأن الخلايا تمتلك ذاكرةً وذكاء.

حاول (لوكاس باباداكيس) أن يتخذ وضعاً أكثر راحة، فجعله ذلك عابس الوجه. قال:

- أنا لم أخترع شيئاً. فمنذ سنوات كان (بروس ليبتون)[87] Bruce Lipton، المتخصص بعلم الحياة الخَلَوي، يدافع عن تفوق الروح على الجسد. وأنا لم أفعل شيئاً سوى نقل عباراته. وبطبيعة الحال، كانت صرخةً في وادٍ.

- لو عدنا إلى سبب حضوري إلى هنا، وهو سقوطي عن الحصان. ففي رأيك أنني فقدتُ وعيي، وليس هنالك شيء عضوي.

- أوَلم أفحصك؟ واستبعدنا جميع العوامل الفيزيولوجية؟ ولم نجد شيئاً. وبعد الذي رغبتَ في أن تفضي به إليَّ عن ماضيك، تفاجأتُ بأن أراك شديد التشكُّك. وهذه الكدَمات الفظيعة؟ وهذه الجراح الفاغرة في روحك؟ كيف يمكنك أن

(87) بروس ليبتون: عالم حيوي تطوري أمريكي (ولد في نيويورك سنة 1944)، له نظريات تقول إن إيمان المرء يمكن أن يتحكم بمكر ودهاء في المورِّثات (الجينات) genes والحمض النووي DNA. ويرى أن الخلايا تتلقى المعلومات وتعالجها. له أربعة كتب رائجة منها: (بيولوجية الإيمان) the Biology of Belief (سنة 2005) و(التطور العفوي) Spontaneos Evolution (سنة 2009)، وهي مذكورة على موقعه الإلكتروني (brucelipton.com) (المترجم).

تتصوَّر أن خلاياك يمكن أن تنساها؟ إن النزهة على الحصان، ذلك الصباح، تذكُرها بنزهة أخرى، صادمةً تلك آنفاً. وأنت تظن بسذاجة أنك نجحت في محوها، إن خلاياك لا تنسى شيئاً. وقد تفاعلت وتصرّفت. وبشكل مذهل.

ردَّ (تيوفان) قائلاً:

- (لوكاس)، تقبَّلْ رغم ذلك أننا أمام نظريةٍ محضة. أمام فرَضيّة.

- حسناً جداً. إذن، لنصبح علماء. هل ترغب حقاً في أن تتقبَّل أن تكون خليةٌ مفردة قادرةً على أن تتعلَّم من تجربتها؟

- أنا..

- لنأخذ مثالاً ملموساً: عندما يصيب فيروسُ الحصبَة طفلاً، ما الذي يجري؟ تقوم خليَّةٌ مَناعِيّةٌ بالتدخُّل، وتكوِّن جسماً مضاداً بروتينياً ضد هذا الفيروس. موافق؟

- موافق.

- وأثناء هذه العملية، تكوِّن الخلية جيناً (مورِّثاً) جديداً، يُستخدَم لتصنيع بروتين للجسم المضاد الخاص بالحصبة. موافق أيضاً؟

يوافق (تيوفان).

- وفي هذا الطور تصبح الظاهرة مدهشة. ويجمع قطع الـ (ADN)[88] وتركيبها بطريقة احتمالية، فإن هذه الخلايا تنتج مجموعةً كبيرة من الجينات (المورِّثات) المختلفة، وكلٌّ منها يقدِّم

(88) وهو اختصار للكلمات (l'Acide DésoxyribNucléique) بمعنى (الحمض النووي الريبوزي المنقوص الأوكسيجين)، وهو بالإنكليزية الـ (دي.إن.إي) (DNA)، ويحتوي على التعليمات الجينية (الوراثية) التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية (إنساناً، وحيواناً، ونباتاً)، كما يحتوي على التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء هذه الكائنات (المترجم).

بروتيناً لجسم مضاد بشكل متفرِّد. وعندما تولّد خليةٌ بروتيناً لجسم مضاد هو الأقرب إلى فيروس الحصبة، فإن هذه الخلية تنشط حينئذٍ. وبعد ذلك، وفي الوقت المناسب لعمليةٍ معقدة لا تنتهي، تقوم هذه الخلايا النشِطة بتصنيع مئاتٍ من النسخ من جين (مورِّث) الجسم المضاد الأصلي. وهي ستنتقي النسخة المختلفة التي ستزوِّد الجسم المضاد الأكثر فعاليةً. ومن هذه اللحظة، عندما ينشأ الجسم المضاد هكذا، فإنه سيحاصر الفيروس، ويبطل فعاليته، ويدمره، حامياً بذلك الطفل من أضرار الحصبة.

كلَّما همَّ (تيوفان) بالتدخُّل، كان (باباداكيس) يوقفه بإشارة من يده، قائلاً:

- الصبرَ، يا صديقي، لقد انتهيتُ تقريباً. وفي نهاية هذه العملية تتحقَّق المعجزة. وخلايانا لن تصنَع فقط أسلحة ضد الغازي، ولكنها ستحتفظ بـ(ذاكرة) هذا الجسم المضاد، وتكون مستعدَّة لشنِّ الهجوم مباشرة، إذا تعرَّض الشخص نفسه ثانية، ذات يوم، للفيروس نفسه. فالخلية لم «تتعلَّم» فقط، وإنما كوَّنت ذاكرة تنتقل لذريتها.

ثم عقد الطبيب العجوز ذراعيه بطريقة ساخرة، وقال:

- إذًا؟ خلاياي ليست ذكية؟ ولا تنعَم بذاكرة؟

- والنتيجة..

- النتيجة، إن أفكارك تعمل كمُنقِّياتِ (فلاتر) على جهاز تصوير. فغيِّر مُنقِّياتك، أعني طريقتك في رؤية العالم، وسيتكيَّف جسدُك مع إحساسِك الجديد.

مال (باباداكيس) إلى الأمام قليلاً وأصبح صوته أكثر جديّة، قال:

- أنـت مريـضٌ، يا (تيو). مـريض بشـكل خطيـر. إنك تحمل نجومـاً ميتة، وتنسـى أن تنظر إلى السـماء، لأنـك مقتنع بأنها غير موجودة. فغيِّر مُنقِّياتك. غيِّرها بسـرعة. وكُفَّ عن أن تُرشِد الليـلَ إلى خلاياك، وإلا فإنه سـينتهي بها الأمـر يوماً ما إلى أن تَخمُـد. أعطِهـا شـيئاً من الشـمس، وهي تعرف كيف سـتردُّ لك ذلك.

خـطّ اليوناني بعـض الكلمات علـى ورقة وقدَّمهـا لصديقه، قائلاً له:

- ستقرأ هذه الجمل كل مساء. وطبعاً، لا شيء يُلزِمُك بذلك.

دسّ (تيوفـان) الورقـة في الجيب الداخلي لسـترته الكتّانية. وقال:

- سؤال: لقد شعرت أنك مرتابٌ بشأن (داروين)، فلماذا؟

- لأنه، في رأيي، لا يمكن أن يُعَد مؤسِّسَ نظريةِ التطوُّر. فقبلَه بخمسين سنة، أثبت عالم فرنسي، يدعى (لامارك)[89] Lamarck، أن الإنسـان قد تطوَّر بدءاً من شـكل بدائي من الحياة. فلم يُتَّهَم فقط بالهرطقة، بل سخِر به زملاؤه من العلماء.

إنهـم خَلْقِيُّون[90] créationnistes أغبيـاء كمـا هـو شـأن الخلْقِيين جميعاً. إذًا (دارون)..

انخرط (تيوفان) في الضحك، وقال:

(89) لامارك: (جان - باتيسـت دو - Jean - Baptiste de) عالم طبيعة فرنسـي (1744 - 1829)، أسس النظرية الأولى لتطور الكائنات الحية (المترجم).

(90) يريـد بالخلقيين، هنـا، أتباعَ نظرية الخلـق الإلهـي créationnisme، التي قالت بها الشـرائع السـماوية (الإبراهيمية) الثلاث، وقد وقفوا من نظرية التطور الطبيعي موقفاً معادياً، نظراً لعجزها عن إثبات وجود الحلقة المفقودة بين (الشـامبانزي) و(الإنسان)، ولأن المورثات في الكائنات الحية ثابتة عبر الأجيال، وأن كل كائن يظلّ تطوره حبيس نوعه (المترجم).

- حقاً، يا (لوكاس)، أُشْكر السماءَ لأنك لم تُولَد في زمن (محاكم التفتيش)[91] l'Inquisition. وإلا لكنت قد تعرّضت للهلاك.

ومشى نحو الباب. فقال (باباداكيس):

- اسمع آخر نكتة! في بداية القرن العشرين، سافر قسيس عالم أجناس، وهو (موريس لينهارت)[92] Maurice Leenhardt، إلى (كاليدونيا الجديدة)[93] la Nouvelle Calédonie، ليلقي موعظة على شعب (كاناك)[94] Kanak فيها، وذات يوم كان يتباحث مع زعيم القبيلة، فسأله: ما الجديد الذي جلبناه، نحن الأوروبيين، بهذا الشعب وكان الأكثر أصالة؟ هل تعلم ماذا أجابه الزعيم؟ قال له: «لقد جلبتم لنا الجسد». نهارك سعيد، يا (تيو)!

* * *

(91) محاكم التفتيش: هي محاكم كنسية استثنائية سادت في أوروبا الخاضعة لسلطة بابا الفاتيكان، من القرن 13 إلى القرن 16، ونشرت جواً من الإرهاب والكبت لحريات الاعتقاد والتفكير والتعبير والتطور العلمي، وكان هدفها محاربة (الهرطقة)، وملاحقة من لا يحترمون العقيدة، ومقاومة المذاهب المنشقة عن الكاثوليكية، وكان هدفها في إسبانيا في القرنين 15 و16، ملاحقة المسلمين واليهود، وطردهم من البلاد، أو إكراههم على التنصُّر، وتتبُّع صحة تنصرهم بعد ذلك، وتعرض بعض العلماء لأحكامها، من أمثال (كوبرنيكوس) (1473 - 1543) الذي نقض فكرة مركزية الأرض في الكون le géocentrisme، وقال بمركزية الشمس ودوران الأرض وبقية الكواكب حولها le héliocentrisme، فحكم عليه بالإعدام: وكانت أحكام هذه المحاكم تتدرج من العذاب البسيط، إلى مصادرة الأموال والممتلكات، وانتهاء بالإعدام بطرق رهيبة، منها (الخازوق) الذي أشار إليه (تيوفان) آنفاً(المترجم).

(92) موريس لينهارت: قسيس وعالم إثنولوجي فرنسي (1878 - 1954)، متخصص بدراسة شعب (الكاناك) في جزيرة (كاليدونيا - الجديدة)، وقد حال عند ذهابه إليها، سنة 1902، دون استمرار التطهير العرقي البطيء لهذا الشعب، وترجم بمساعدة تلاميذه الأوائل هناك (العهد الجديد) إلى لغتهم. عاد إلى فرنسا سنة 1927، وأسس (جمعية المحيطيين). ثم عاد إلى الجزيرة لمدة عشر سنوات، ورجع إلى فرنسا ليدرِّس، سنة 1944، لغات الجزر المحيطية في (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية) l'Institut National des Langues et Civilisations Orientales (المترجم).

(93) كاليدونيا الجديدة: جزيرة في المحيط الهادي، تقع شرقي قارة أستراليا، وهي مستعمرة قديمة لفرنسا، ولا تزال تابعة لها، وعاصمتها (نوميا) Nouméa(المترجم).

(94) الكاناك Canaques أو les Kanaks: هم شعب الجزيرة المذكورة.

كانت الحركة الثانية من (كونشــرتو آرانجويز) تصحب انبلاج الفجر.

الساعة الآن الخامسة صباحاً. ولم يغمض لـ (تيوفان) جفن. أغلـق ديـوان قصائـد (كفافيـس)، وهـو (كونســتانتينو بيترو كافافيــس)[95] Konstantinos Petrou Kavafis. أحـد يونانيـي (مصر)، وقـد ترعرع على زبَد شـواطئ (الإسـكندرية): يوناني؟ مصري؟ فهل هو عضو في جمعية المصابين بالفُصام؟

لقد حفظ (تيوفان)، أثناء إقامته الأخيرة في (الإسكندرية)، شـيئاً مـن أشـعاره. إن هذه المدينـة، التي لا نظير لهـا في الثراء الإنسـاني والثقافـي، كانت تحتضـرُ تحت التراب الأسـود، الذي تغذيـه الأشـباحُ والصـوَرُ المصْفَرَّة. كما كانـت الحدائقُ تذوي من الحسـرات. والصدأ ينخر العمارات ذات الطراز (الهوسّمانيّ)[96]

(95) كفافيس: شــاعر يوناني، لأبوين يونانيين مولودين في إسـطنبول، وقدما إلى الإسـكندرية فــي مصر، فولد فيها سـنة 1863، وتوفي سـنة 1933. عمل صحافياً وفــي الوظائف العامة بمصــر، كتــب نحو 154 قصيـدة، كان أهمها تلك التــي كتبها بعد الأربعين، وقد كان ينشــرها في الصحف والمجلات، وجمعت ونشــرت سـنة 1935 بعـد وفاته، وكان كثيــر منها ناقصاً لم يتـم. عاش بعض الفترات في لندن، وباريس، وإسـطنبول، وزار اليونان. وكان يعرف الإنكليزية، والفرنســية، وبعض الإيطالية. ترجمت بعض قصائده إلى لغات أخرى، غير أنها ترجمت جميعاً إلى الإنكليزية ونشرت ضمن منشورات جامعة برنستون في الولايات المتحدة سنة 1992. أخرج (يانّيس ســماراغديس Yannis Smaragdis) فيلماً عنه باسمه الذي عرف به في الإنكليزية (Kavafy). حُوّل بيته في الإســكندرية إلى متحف خاص به. تُدرَّس أشعاره في مدارس اليونان وقبرص وبعض الجامعات في العالم (المترجم).

(96) طــراز العمارة الهوسّــمانيّ: ســاد في ظــل الإمبراطوريــة الثانية حين تولاهــا (نابليون الثالــث) (1852 - 1870)، وكان القصــد منــه إعادة تصميــم العاصمة (باريــس) وتحديثها لتليــق بإمبراطوريتــه، وهــو منســوب إلــى البــارون (جــورج هوسّــمان) (1809 - 1891) Georges Haussmann سنة 1870، لأنه كان وراء المشروع برمته، وقد نُقل هذا الطراز إلى الإسكندرية زمن الخديوي إسماعيل الذي كان شديد الولع بالحداثة والفخامة الغربية، وبخاصة الفرنسية، كما نقله الفرنســيون إلى بعض مدن مستعمراتهم، كمدينة الجزائر في الفترة نفسها تقريباً. وهذا الطراز المعماري يلاحظه كل زائر لباريس اليوم، والفرنسيون يحافظون عليه داخل محيط العاصمة المقسمة إلى 20 قطاعاً (المترجم).

(1891 - 1809)

haussmanniens، من الزمن الغابر. و(الترامـوي) le tramway مـا يزال يسير، ولكن عرباته مخلَّعة. وأقفرتْ ساحة (محمد علي) من عربات الخيل (الحناطير)، وفي (الرملة) تبعثر الشاطئ الرياضي على الرمل. وتقوَّض (أوتيل كارلتون) Carlton Hôtel، في (ستانلي بك) StanleyBay، على أساساته. ولم تعد ساحة القناصل تشبه أكثر من ستارة تتلاعب بها الرياح.

انتهى ذلك.. وساد الصمت

أنت مريضٌ، يا (تيو). مريض بشكل خطير. إنك تحمل نجوماً ميتة، وتنسى أن تنظر إلى السماء، لأنك مقتنع بأنها غير موجودة.

ما الذي كان العجوز (باباداكيس) يعرفه عن نجوم (تيوفان)؟ وبعد الذي رغبتَ في أن تفضي به إليَّ عن ماضيك.. نعم، يا عزيزي (لوكاس)، «الذي رغبتُ في أن أُفضِي به إليكَ». وأما البقية؟ الجزء الغاطس؟ إنني لم أظهر سوى وجه الوسام، يا صديقي. ولم أظهر قفاه.

كان لقاء (تيوفان) بـ (لوكاس) يعود إلى شهر كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1983، بعد بضعة أسابيع من وصول (تيوفان) إلى الجزيرة. ففي ذات مساء، كان (تيوفان) يتعشَّى في شُرفة (كارافيتيس) Karavitis، وهو المطعم والمقهى الوحيد المطلّ على الميناء. لم يكن هنالك سُوَّاح. ولم تكن الكائنات البحرية تقترب من الجزيرة إلا مع قدوم الربيع. وكان في المطعم ثلاثة زبائن: زوجان في أقصى الصالة.. و(لوكاس باباداكيس) قرب (تيوفان). كان الرجل يطالع،

ويتوقَّف لتنـاول لقمـة. وعندمـا التقـت نظراتهمـا، رسـم اليونانـيُّ ابتسـامة خفيفة من باب المجاملـة. إنه تواطؤ بين منفرديـن. وعندمـا قُدِّم طبق الحلو إلـى (باباداكيس)، وضع كتابه والتفت نحو (تيوفان)، وسأله:

- يبدو لي أنك فرنسي؟

ومن غير أن يتيح له أن يجيب، تابع يقول:

- إنني أحبّ بلدكم، فقد درست فيه الطب. ولكنني لا أمارسه منذ بعض الوقت.

ردَّ عليه (تيوفان) قائلاً:

- يا للمصادفة! أنا أيضاً طبيب.

- حقـاً؟ إنهـا فعلاً مصادفة. هل تسـمح لـي بالانضمام إلى طاولتك؟

كان بإمـكان الأحاديث الجذّابة بينهما أن تتوالى حتى مطلع الفجر، لولا تدخُّلُ صاحبِ المطعم بتنبيههما على وجوب إغلاقه.

اقترح (باباداكيس) على (تيوفان) قائلاً:

- تعالَ إذًا نشـرب كأساً أخيرة في بيتي، إلا إذا كنتَ ترغب في النـوم. أمـا ما يخصّني فأنـا أَرِقٌ. ومنذ بعـض الوقت، لا أرى في مُلاءات السرير سوى أكفانِ المستقبل.

لـم يمتعض (تيوفان) من هذه الاسـتعارة. واتخذها لنفسـه. قَبِل إذن الدعوة. وهكذا نشأت صداقتهما وافرة الحيوية ومفعمة بالرزانة.

كان (باباداكيـس) ينحـدر من تلك الأسـر اليونانيـة العريقة التـي كان عـدم التكلُّم فيها بالفرنسـية يدل على سـوء التربية. وبعـد مواظبةٍ مثالية على الدراسـة في (ثانويـة ليونان) lycée

Léonin الأسـطورية في (أثينا)، بإدارة (الإخـوة المريميين)[97] maristesfrèresles، ثـم سـافر لدراسـة الطب فـي (باريس)، واختـار التخصُّص بـ (طب الجهـاز العصبي) la neurologie. واكتشـف (باباداكيـس) مؤخّـراً مـن عمـره، عنـد التقاعـد la retraite - وكانـت هـذه الكلمـة توحـي إلى (تيوفـان) دوماً بانسحاب روسـيا[98] Russiela retraite de - ميلَه الحقيقيَّ إلـى (علم الوراثـة الطبـي) la génétique médicale. ومنذ نحو عشـر سـنوات، لجأ إلى جزيرة (باتموس)، ووقَفَ أكثر أوقاته على دراسـة الوِراثة عند الأفراد والأسـبابِ الوراثيـة للأمـراض. وأما حياته الأُسَـرية، فلم يعلم (تيفان) عنها كبيرَ شـيءٍ، سـوى أنه كان أرملَ، وأن ابنه الوحيد، الذي كان طبيباً أيضاً، يعيش في (شيكاغو) Chicago، وهو متزوِّجٌ من أمريكية.

إن عـدم الإنسـانية القاسـي والمتزايـد، واللامعقـول الـذي يسـيطر علـى العصـر، والأعمال غيـر اللائقة لمسـاعينا، والموت، والإلـه، والآلهـة الأخـرى، وكل موضـوع من المواضيـع التـي تؤرق العقل البشـري، لم يُسـتبعَد مـن النقاش تلك الليلـةَ. ولما كانت بـين الرجلين مشـاركة صامتة، وهي القـادرة وحدها أن تبدع وأن

(97) الإخوة المريميون: نظام ديني علماني أهلي laïque كاثوليكي، أسسـه في فرنسـا سـنة 1817 الراهـب الفرنسـي (مارسـلاّن شـامبانيا) (1840م) Marcellin Champagnat، وتخصَّـص أعضاء هذه الجماعة بالتربية النصرانية للفتيان، وبخاصة الفقراء والذين يعيشـون في الأرياف، ولهم نشاط تعليمي في عدد من البلدان (المترجم).

(98) كانت كلمة (retraite) هذه في المجال الوظيفي تعني (التقاعد)، وفي المصطلح العسـكري تعني (الانسـحاب)، وكان التقاعد نوع من الانسحاب من الحياة أو العمل. والمقصود بالانسحاب من روسـيا هنا هو انكفاء الجيش النابليوني من موسـكو إلى فرنسـا شتاء سنة 1812، وبعض المؤرِّخين يخفِّف من وطأة الكلمة فيسـميه (عـودة) retour، نظراً لأنه تم طوعاً من غير قتال، لكن آخرين يرون أن الجنرال (شـتاء) هو الذي هزم هذا الجيش العظيم ببرده الشـديد وثلوجه وما أصاب الجنود من أمراضه، حتى فقد ثلث عدده (المترجم).

تنشّـط، فقد شـجّعتهما، فظلّا يتناقشـان إلـى أن لامس الفجر أنحاء الجزيرة.

وفي ذلك الوقت، قال (باباداكيس) فجأة:

- أنـت تعلـم، بالتأكيـد، أن (القديـس يوحنـا) الرسـول[99] l'apôtre saint Jean لجـأ إلـى هنـا، إلى جزيرة (باتموس)[100] لتلقّي (رؤياه)[101] Apocalipse.

- إن كنتُ أجهل ذلك، فإن كل زاوية في أي شـارع هنا تذكّرني بـه. لقـد كان نعمـةً غير منتظرة لسـكان الجزيـرة. وكذلك هذه الآلاف من الحجّاج الذين يأتون كل عام لزيارة المغارة التي تَلَقّى فيها وحيه. وهذا ما ينشّط التجارة فيها، أليس كذلك؟

(99) يوحنا الرسـول: أحد حواريي المسيح عليه السـلام الاثني عشر (3 - 101م)، كان صياداً على شـواطئ بحيرة (طبريا) Tiberiade، إنجيله المعروف باسمه رابع أربعة أناجيل مع: إنجيل مرقص، وإنجيل متى، وإنجيل لوقا. أوصاه المسـيح - حسـب العقيدة النصرانية - بالعناية بأمه مريم العذراء عليها السـلام في القدس، فضيّفها في بيتـه إلى أن اضطر إلى المغادرة هرباً من ملاحقة الرومان إياه، قاصداً روما، غير أن الإمبراطور الروماني (دوميتيان) Domitien عذبه، ثم نفاه إلى جزيرة (باتموس)، وتوفي زمن الإمبراطور (تراجان) Trajan سـنة 101م، عن 98 سنة، في مدينة (إيفيز) Éphèse بآسيا الصغرى. ويعرف بصفات مثل (يوحنا الرسول) و(يوحنا الإنجيلي) و(يوحنـا اللاهوتي) تمييزاً له من (يوحنا المعمدان) Jean le Baptiste الذي يدعى عند المسـلمين (النبي يحيى). وضريحه في وسـط الجامع الأموي بدمشق. ولـ (يوحنا الرسول) إلى جانب (الإنجيل) و(الرؤيا) ثلاث رسائل. وتروى عنه مجموعة كبيرة من المعجزات. تآخى بعد المسـيح مع (جاك الكبير) من الحواريين. وقارئ (إنجيل يوحنا) و(ورؤياه) يجد بينهما وجوه شبه كثيرة في المفردات والمواضيع (المترجم).

(100) ذكرها (يوحنا الرسـول) في مطلع (رؤياه): الإصحـاح الأول، الفقرة 9 بقوله: (انا يوحنا أخوكم وشـريككم في الضيقة وفي ملكوت يسـوع المسـيح وصبره، كنتُ في الجزيرة التي تدعى «بطمس» من أجل كلمة الله ومن أجل شـهادة يسوع المسيح). وهي جزيرة جبلية خصبة وممرعَة كثيرة الخيرات، تقع جغرافياً في شـرقي (بحر إيجة) ضمـن الجزر التابعة اليوم لليونان، وعلى بعد نحو ثمانين كيلومتراً غربي الساحل التركي (المترجم).

(101) حسـب معتقداتهم تلقّى (يوحنا الرسـول) (رؤياه) l'apocalipse هذه من المسيح عليه السلام، في جزيرة (باتموس)، على شكل صعود إلى السماء والاطلاع على عوالمها وعلى مستقبل الأرض وأهلها، وفيها ذكرٌ لما هو كائن وما سيكون إلى عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض، وهو نصٌّ ذو غنى روحي كبير (المترجم).

هزَّ (لوكاس) كتفه، وقال:

- وهل تؤمن أنت بهذه (الرؤيا)؟

- بأي معنى؟ بمعنى نهاية العالم؟ من الواضح أن هذه النهاية ستقع فجأة، وهذا أمر مفيد.

قطَّب اليوناني جبينه، وقال:

- أمرٌ مفيدٌ.. قلتَ؟

- قطعاً! .. فالوحشية الإنسانية لا تستأهِلُ هذا الكوكب. أما بالمعنى الديني فلا.

- ومع ذلك، كنتَ قد قلتَ لي إنك قد عُمِّدْتَ يونانياً كاثوليكياً. والنصراني المحترم يؤمن حتماً بهذه الأشياء، أليس كذلك؟ بالحمل بلا دنس، وقيامة المسيح عليه السلام، والروح القُدُس، والمعجزات..

- وفي هذه الحالة، ينبغي علي ألا أكون محترماً جداً. وأخاطِرُ هنا بجعلك تبتسم، فأقول لك: إن مَنْ يقف أمامَك نصيرٌ متشدِّد لتعدُّد الآلِهة، ووفِيٌّ لرؤية أجدادِك[102].

أولئك اليونانيون وجدوا، بحكمتهم غير المحدودة، العلاج

(102) يريد أن اليونانيين القدماء كانت لديهم آلهة متعددة كثيرة، وكانوا يخصون كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة والمجتمع والفن بإله يشرف عليها، وكان إيمانهم بها إيماناً حقيقياً، أما نحن اليوم فننظر إليها على أنها أساطير وخرافات من اختراع البشر ليستطيعوا تفسير ما حولهم، وكان لديهم نوعان من الآلهة: الآلهة الرئيسيون والآلهة الفرعيون، وكان لديهم آلهة ذكور وآلهة إناث، وكان التخصص سمة بارزة لكل إله: فمثلاً كان (زيوس) كبير الآلهة جميعاً ومسؤولاً عن تحقيق العدالة بين الآلهة والبشر، وبيته على قمة جبل (أوليمب) (ارتفاعه عن سطح البحر 2911م) Olympe، وفي الوقت نفسه كان إلهَ الرعد والبرق والصواعق، و(أبولون) إله الفنون (بما فيها الشعر والموسيقى)، و(أرتميس) إلهة الصيد، و(أثينا) إلهة الحق، و(أفروديت) إلهة الحب والجمال، و(بوسيدون) إله البحار، و(هيرا) إلهة الزواج، و(هرمس) إله السفر والتجارة، إلخ (المترجم).

المثالـي لهـذه الآفـة التي تنخُـر فـي حضاراتنا: أعنـي النزاعات الدينية[103].

هزَّ (باباداكيس) رأسه بهيئة الموافق، وقال:

- أنـا أدرك إلى مَـا تُلَمِّح، إنه المعبد المجهـول.. فكرة جميلة. وعندما يحتَجُّ غريبٌ على أنه لا يجد مكاناً يتعلَّق بديانته، يُشارُ له فوراً إلى صَرْح محدَّد. نعم، إنها فكرة جيِّدة.

- وأنتَ نفسُك.. أين أنتَ من شؤون الإيمان هذه؟

- إنه، يا عزيزي، في الأمل، إيماني فقط هو الأمل.

ثم أضاف بنظرةٍ ثاقبة إلى (تيوفان):

- وهذا ما ينقصك، يا صديقي.

- ومن أين لك هذا اليقين؟

- من كل ما ينبعِث من كِيانك. فأنت تحمِلُ أعباءً أثقلَ بكثير مما يمكن لأي إنسان أن يتحمَّلَه. وهذا أمر واضح.

بحث (تيوفان)، وهو مرتبك، عن جواب، فلم يحضره: هل يغيِّر الموضوع؟ هل ينفي؟ ما من فائدة. إن (باباداكيس) ينتمي إلى نوع من الكائنات التي لا تُخْدَع. وعندها سيستسلم. وسيفعل ذلك حتى بسهولة مذهلة. وعندما يعود إلى بيته يكون الوقتُ في وضح النهار. فعلاً إن بعض ردود فعل الذهن تبدو غير منتظرة، وتؤدي بك إلى أن تبوح لغريب بما لا تبوح به لأولئك الذين هم من لحمك.

(103) العقائد لا حصر لها اليوم، وهي داخلة في صميم عقلية المعتقِد بها، ومن الصعب انتزاعها، حتى لو رآها غيره خرافية أو باطلة أو غير منسجمة مع المنطق أو العقل، وفي المحصِّلة لا فائدة من الحروب القائمة عليها سوى الدمار والخسارة وإراقة الدماء الإنسانية بلا طائل، فليكن الناس جميعاً متعاونين على حياتهم في هذا الكوكب بعدل ومساواة وبلا تمييز بينهم، والموكِّل بالحساب في نهاية المطاف رب الأنام (المترجم).

أغلق (تيوفان) عينيه، تاركاً ملامح (أنطونيا) الشفافة تأتي إليه: إنها شابَّةٌ شاخت قبلَ الأوان، حطَّمتها الأيام: فهل مسيرة الناس محكومٌ عليها دوماً بالمصائب؟ أجسامٌ متوجِّعَة، ملقاةٌ على دروب بعيدة الاحتمال، مترنِّحة، معذَّبة، مخدوعةٌ، مستعبدة، وزيادةُ عدَد، إلى أن يُودِعَ عامل الليل، في صندوق بريدهم، ذاتَ يوم، (إعلانَ الرحيل). وها همُ الذين لم يطلبوا شيئاً، مُصْطَفُونَ على رصيف المحطَّة بانتظار آخر قطار لا يتأخَّر، ويأتي دوماً مبكِّراً جداً. وكانت (أنطونيا) مسَجَّلَةً في لائحة المصائر المحطَّمَة.

بِتَفَجُّرٍ باذخٍ يبلُغ اللحنُ البطيء ذروتَه، وقمَّةَ الجمال، ولا يلبث حتى يقع تحت أنغام عازف الغيتار (جون وليامز)[104] John Williams. لقد كان (تيوفان) محظوظاً لتعرُّفه عليه في (لندن) لما كان هذا الموسيقي في بداياته. لقد كان هو يدَي المعجزة لا (تيوفان دِبّانه). كان (تيوفان دِبّانه) هفوة. كان لا ينبغي لـ (تيوفان دِبّانه) أن يُولَد. لقد كان هنالك خطأ في التوزيع. فكان الجرَّاحُ الأكثرُ تألُّقاً في العالم، والطالبُ الأكثر بريقاً، والاختصاصيُّ الأكثرُ لمعاناً في أمراض القلب، والأكثرُ.. لا شيءَ. إنه هَباءةٌ. فكيف تمكَّن من العيش كلَّ هذه السنين في خِضمِّ هذا العَمَى؟ النفوذ؟ والمجد؟ والثروة؟ والنساء؟ اللواتي

(104) جون وليامز: ولد في (ملبورن) Melbourne في أستراليا سنة 1941، لأب إنكليزي، عاد إلى لندن ليؤسس مدرسة لتعليم الغيتار، فتلقف الابن العزف على هذه الآلة، وأجاد العزف عليها وهو في الحادية عشرة من عمره، وكان يقيم حفلات، ودرَّس الموسيقى في المعهد الملكي للموسيقى، وسجل بعض الألبومات مع عازفين آخرين للغيتار، ثم راح يعزف في الإذاعة والتلفزة منفرداً، وكان مبدعاً في مجال العزف الكلاسيكي على الغيتار، وصار يعلم العزف عليه أيضاً (المترجم).

غُزِيْـنَ علـى طريقـةِ الفرسـان مـن غيـر أن يُبْدِيـنَ أي مقاومة، ولا حتى من أجل الحفاظ على اللياقة. لم يفهم المبادئ الأولية إلا مؤخَّراً فقط عندما تفتَّحتْ عيناه بعد الفاجعة.

نعم، يا بُنَيَّ، المرءُ لا يغزو أحداً، ولا يخلع على أحدٍ باباً، ولكنَّ الآخرين هـمُ الذين يُوارِبون أبوابَهم لك أحياناً بلطفهم لتدخل عليهم.

غـادر (تيوفان) أريكته، وذهب إلى غرفـة (تيمور). كان الصبيُّ ينام بعمقٍ، وكان تنفُّسُـه هادئاً وسـاكناً. كان هنالك شعاعٌ من نورٍ يداعب جبينه.

كان (تيمور) قد أكَّد لأبيه قوله: «لقد اشتقت إلى أمي».

فـردَّ عليه (تيوفـان) بقوله: «لقد اشـتقتُ أنا إليهـا كذلك!». إنهـا كذبـة. لأنه عندما صكَّ البابُ خلـف زوجته، كان يعتقد أنه لـن يُعيدهـا أبداً، وأن قلبـه قد تحوَّل رمـاداً. فأُضيـفَ إلى يأس القطيعـة، فيما بعد، شـعورٌ لا يُطاقُ بالذنب. مـنَ المؤكَّد أنه كان مذنبـاً. أمـا ادِّعـاءات (الظـروف المخفِّفَـة) التـي تعلَّلَ بهـا أمام (تيمور) فكانت تبدو مثيرة للرثاء.

ومهما كان مذنباً، فإنه كان يشـعر بالشـفقة إزاءَ نفسِـه. كما أن الزمـن عمِلَ عملَه في التقويض. والتأم الجرح بالتدريج. ولم يبـقَ منه اليوم إلا أثـرُه. وهو خطٌّ جميلٌ متعـرِّجٌ يخترِق ذاكرتَه من جانب إلى جانب. ولم يعد يشتاقُ إلى زوجتُه.

داعب (تيوفان) جبين ابنه بلطف، ودسَّ يديه في خُصَلِ الشعر المشبوكة، وانسحَب كلِصٍّ حتى لا يرى الصبِيُّ دُموعَه.

(5)

قال (أليكسيس):

- أنا لا أفهمُك. لماذا أنتِ قاسية جداً دوماً إزاءَ هذا الطبيب؟ فأنا أجده لطيفاً جداً.

زحفت (أنطونيا)، وهي مستندة إلى عُكّازَيها، وارتمتْ على أقرب كرسي، وأمرتْ وهي تشير إلى الستارة:

- افتحها كليةً، إنني أختنق.

أذعن الطفلُ مكرهاً، وقال:

- والآن؟ لماذا؟

- لا أدري عن أي شيء تتكلّم.

ثم صاحت:

- (ديسبينا)!

- إنها تحضّر غرفة (الباشا). ألا تعلمين أنه سيصل في الساعة السادسة مساء.

- أحضِرْ لي عصيرَ ليمون. فأنا عطشَى.

- أحضِرْ! افتَحْ! أعْطِ! إنك متأمِّرة حقيقية. ألا يمكنك أن تقولي «من فضلِكَ»؟

- إن كان هذا هو الثمن فـ «من فضلِكَ».

ثم ألقتْ نظرةً مشمئزَّةً على ساقها اليسرى وعلى هذا الحذاء الضخم الذي أُدْخِلَتْ فيه لتقويم العظم. إنه لأمر مقرِف..

كان سطحُ بحرِ (إيجة)[105] Égée يرتعش تحت أشعة الشمس. وكانت أجراس دير (القديس يوحنا) تُقْرَع، وكان دويها ينتشر على شكل موجاتٍ متوَسِّعة على مرآة السماء.

البحر: إلى متى يعود الاحتكاك الأخير لـ (أنطونيا) مع الرمل والماء؟ إلى سنة؟ خمس سنين؟ أو أكثر؟ كان عمرها ثلاث عشرة سنة، وكان المشهد يتمّ في (سكياتوس) Skiathos. فقد كان (الباشا) بجهد جهيد وهو يلهث يحملها إلى الشاطئ، ليضعها من ثَمّ فوق الماء.

(الباشا) رجلٌ طيِّبٌ. أبٌ. وبديل نبيلٌ للآخر، الحقيقي، الذي رحل مبكِّراً جداً.

وبخصوص الرجال الآخرين.. أيُّ آخرين؟ إنهم أشباحٌ، ومسافرون متخفُّون. قبل أن يأكل هذا الفيروس القذر فخذيها وساقيها.

ماذا كان يُدعى المختار الأول[106]؟ آه! نعم! (ستراتيس) Stratis. كان مراهقاً مثلَها. كانت قُبلتُه عذبةً كعسل (أتِّيك)[107] Attique، وطعام الآلهة. لقد كان من الممكن أن تظل تأكل وتشرب وتأكل بشفتيه إلى نهاية العالم. وبعدئذٍ كان (يانِّيس) Yannis. وكان مدلِّكاً علاجياً[108] kiné، وهو جميل،

(105) بحر إيجة: جزء من البحر المتوسط بين اليونان وتركيا، ومعظم جزره تابعة لليونان (المترجم).

(106) يعني أول من أحبَّته (أنطونيا) (المترجم).

(107) أتِّيك: منطقة في محيط مدينة (أثينا) (المترجم).

(108) كلمة (kiné) اختصار مألوف لكلمة (kinésiterapeute) (المترجم).

بل جميل جداً. والمرء لا يثِق بالجميلين المزهُوِّين بأنفسهم، لأن هذه الأنماط تكتفي بذاتها، وسرعانَ ما تصبح دالَّةً على الزهو. وكان (يانِّيس) ينتمي إلى هذه الفئة. وكان فضلُه الوحيد أنه كان يوحي إلى (أنطونيا) بأن جسدها، وعلى الأقل القسم الأعلى منه، لا يزال حياً.

شعرت بالحرّ فارتعشت. إنه لإحساس رباني أن تشعر بلذّة تغمر جزءاً منها. جزءاً واحداً فقط. وهي بذلك تشبه إلى حدٍّ ما مدينةً مقسَّمةً قسمين كمدينة (برلين)[109] Berlin. نعم، إن جسدها هو (برلين). وكانت (أنطونيا) «غرباً» و«شرقاً»، وبينهما أسلاكٌ شائكة من الأوجاع.

وبعد (يانِّيس)؟ العدَم. والمزيد من الدُّوَار. ومزيد من قبلة العسل. ولم تهزَّها قط، في كلِّ هذه السنوات المنصرمة، أدنى هَبَّةٍ من الميلِ إلى الشهوة. وفي كل الليالي التي كانت تشعر بدمها يحترق، كانت تغوص في طراوة الوسائد كي تمنع نفسها من أن تئنَّ أو تصيح بأي اسم كان.

وكتمت صرخة غيظٍ وسخط، فانتزعتْ من جيب (بنطال الجينز) مِسْبَحةً تتكوَّن من حبات الكهرمان، وأخذت تستعرضها ما بين الإبهام والسبَّابة: لماذا؟ لماذا هي؟ وهل تستأهل هذا

(109) إثر هجوم السوفييت على (برلين) سنة 1945، للقضاء على (هتلر) في أواخر الحرب العالمية الثانية، حدث إنزال من قِبَل الحلفاء الغربيين (الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا) على القسم الغربي من المدينة، واحتفظوا به تحت إدارتهم بعد وضع الحرب أوزارها، وقد ضَمَّ (ستالين) القسم الشرقي وسائر ما عرف بـ (ألمانيا الشرقية) إلى المعسكر الاشتراكي، ومن ثَمَّ إلى حلف (وارسو)، وكان الفاصلَ بين شقي برلين أسلاكٌ شائكة وحواجز، إلى أن أمر (فالتر أولبريشت) W. Ulbrecht، رئيس ألمانيا الشرقية، سنة 1961، ببناء ما عُرِف بـ (جدار برلين)، لمنع الهجرة من الشق الشرقي إلى الغربي، وقد تَمَّ هدمُه سنة 1989، مع ارْتخاء قبضة النظام الشيوعي السوفييتي وبوادر انهياره، وعادت (برلين) مدينة واحدة، ومهَّدت لوحدة شطري ألمانيا، لتصبح أقوى دول الاتحاد الأوروبي في أيامنا (المترجم).

الشقاء؟ والسعادة؟ وهنا تذكَّرتْ قصة تلك الفتاة الشابة التي فازتْ قبل سنتين، بمبلغ كبير، من خلال لعبة في التلفزة. وبعد يومين من ذلك، لقي زوجُها وابنُها الوحيد مصرعَهما في حادث سيارة؛ فأيُّ نوعٍ من السعادة هذه التي تسلب منك بيدٍ ما كانت قد تكرَّمت بتقديمه إليك باليد الأخرى؟

وفي وقتٍ معيَّن، كانت تقول لنفسها: إنه لمن الخير أن تختفي بإخفاء هذا الجسد غير النافع الذي يحتلّ حيِّزاً كبيراً. هل تنتحِر؟ نعم. ولكن كيف؟ أكيد بالعقاقير المنوِّمة. ولكن هذا يحرمها من اللحظة القاضية، لأن المرء ينام، ثم يرحل وينطلق غيرَ واعٍ لشيء. لا! إنها لم تكن تتصوَّر ألا تكون واعية حتى الثانيةَ الأخيرة في اليوم الذي ستموت فيه. هل تقطع وريداً؟ يا للهول! إنها لا تتحمَّل رؤية الدم، كما أن هنالك نقصاً في جمالية المشهد! اختارت، في نهاية تأمُّلاتها، الإضراب عن الطعام. أي الموت البطيء من خلال الهزال. ولسوف ترحل بلا انتفاخاتها الوثيرة، وبلا هذه العجيزة التي كانت تراها كبيرة.

وابتداءً من اليوم التالي كَفَّتْ (أنطونيا) عن تناول الطعام. وكتبت في يومياتها الحميمية تقول: (أرجو ألا أُخفِق. لسوف أصوم أطولَ وقتٍ ممكن. على الأقل حتى يوم الأربعاء، وإلا فسيكون ذلك حتى يوم السبت. يجب ألا آكل، فلقد أفرطتُ في الأكل أمس، إذًا يجب التوقف لأطول مدَّة ممكنة. سوف أنتفخ من تناول الـ (القطايف)[110] kadaifis ستَ عشرة ساعة، وأنا أشعر بالخجل. فبطني، المتخم بهذه الشُّعَيْرِيّة، وبكثير من

(110) نوع من الحلوى اليونانية تصنع من الشعيرية على شكل المبرومة، وتكتب أيضاً بالتاء kataifis وحرف (s) للجمع (المترجم).

العسل، والزبدة، والفستق، يؤلمني. وأظنّ أني سأتقيّأ. إنها الساعة الخامسة مساء، إنها الخامسة والنصف، ها قد انتهيتُ من الاستفراغ. وأشعر الآن شعوراً أقل بالذنب. وفي المقابل، حلقي ملتهب. وكانت آثار أسناني بادية على يدي اليمنى. وأخيراً، لا شيءَ خطيرٌ. وأشعر، مع ذلك، بتحسُّن. ماذا يجب أن نفعل من أجل الموت ونحن على قيد الحياة؟).

وأخيراً، استمرّت محاولتها أربعة أيام فقط، وقد ألقت بسلاحها أمام صحن (لقمة القاضي) loukoumade[111] بالعسل.

يجب أن أصغي إلى قلبك يا (أنطونيا)، فهو لا يكْتُم سرّاً. إن مَنْ يصغي إلى قلبٍ يسمع أيضاً الأسرار الأكثر سِرِّيَّةً عند الكائنات. فإن كنتِ ترغبين في ذلك، فلسوف أعيد عليك ما يرويه قلبك لي.

كانت (أنطونيا) قد عرفت أطباء كثيرين. لكن (تيوفان) كان يبدو لها الأكثر غرابة من بينهم جميعاً. وفيما يخصُّ ثرثرته عن الموسيقى.. فقد كانت طريقة تافهة للسعي إلى التآلف. والأسوأ أنه كان يتراجع مقابل الحفاظ على الهدوء، وهي استراتيجيته من الآن. الهدوء! ومع ذلك، كانت تعترف أن الرجل كان يثير فضولها. فقد كان يفجِّر فيها اعتدادها بنفسها، وكانت تحسّ، في الوقت نفسه، أن فيه شيئاً ما لم تتمكَّن من تحديده: ربما كان امتلاءَه ثقةً ويقيناً بنفسه؟

(111) وهي نوع من الحلوى تدعى في الشام (العوّامة) وهي كرات صغيرة من العجين المقلي بالزيت، وتحلّى بغمرها بقطر السكر، أما في اليونان فتحلّى بالعسل. ويبدو لي أن التسمية المصرية (لقمة القاضي) مأخوذة من ظاهر اللفظ اليوناني (لوكوم آدي)، أو أن الكلمة اليونانية مأخوذة من التسمية المصرية، مع التحفظ على إضافة هذه اللقمة إلى القاضي بالذات دون غيره من أصحاب المقامات والمناصب (المترجم).

قال (أليكسيس)، وهو يمدّ إليها كأساً:

- عصير ليمونك!

شكرتْ (أنطونيا) أخاها من طرف شفتيها، وسألت:

- في أي ساعة ذكرتَ أن (الباشا) سيصل؟

- في الساعة السادسة مساء، أتصوَّر أن هذا يسرُّك.

- على الإطلاق.

- أصدُقك. فأنا أعرف متى تكونين صادقة. هل تعلمين أنني حطمت الرقم القياسي في غوص كتم الأنفاس أمس؟ لمدة دقيقة واثنتين وأربعين ثانية! كان عليك أن ترى الآخرين!

- انتبه يا (أليكسيس). هذه اللعبة خطرة.

- أوه! لا تقلقي. لسنا أولاداً.

- بالتأكيد إلى اليوم الذي لا يخرج فيه أحدٌ من بينكم.

* * *

دخل (تيوفان) على عجَلٍ إلى قسم الإنعاش. وأول ما لَمَحَ كان القامتين البيضاويين للطبيب المناوب والممرِّضة، وهما منحنيان على سرير المريض. فظنَّهما شبحين.

ولما وصل إليهما، وضع يده على كتف الطبيب الداخلي، وقال:

- ما الذي يجري؟

- لقد نبَّهتني (إيزابيل) بعد أن شاهدتُ على الشاشة (المونيتور) أن تردُّد نبضِ قلب المريض وصل إلى حد: mm 40 60/Hg انقباضياً.

سارعت الممرضة إلى التحديد بالقول:

- وهذا ما أقلقني على وجه الخصوص..

ثم أشارت إلى الأنابيب التي تُرِكتْ في مكانها داخل صدر

المريـض مـرتبطةً بأوان زجاجية خارجيـة مدرَّجة كانت وظيفتُها أن تكشف أيَّ تدفُّقٍ للدم أعلى من الطبيعي.

- 120 ml في الساعة في حين إن المعدَّل..

قاطعها (تيوفان) وتوجَّه مرة أخرى إلى الطبيب بقوله:

- يجب تصحيح الـ (hypovolémie)[112] عن طريق الملء الوعائي.. فهل فعلتَ ذلك؟

- بالتأكيد، أنا..

- مشاركة الجزيئات الضخمة والمصل الفيزيولوجي؟

رمى الطبيبُ المناوبُ الجرَّاحَ بنظرة خاطفة لا يمكن أن يقول المرء عنها إن كانت مصدومةً أم متحفِّظة. ماذا تظنّه؟ طالباً في السنة الأولى؟ لقد كان قاب قوسين من طرده، ولكن لم يكن هذا مكاناً ولا زماناً للمجادلة.

- لقـد أمـرتُ، في حالة طـوارئ قصوى، بأربعـة أكياس (كريات حمر) (culots) وأربعة (بلازما) plasmas طازجة ومجمَّدة، وفي انتظار تسلُّمها، بدأتُ بالـ(noradrénaline) في حقنة كهربائية.

استجمع (تيوفان) قواه، وكان مع ذلك قد خاط الأبهر تماماً!

صرخت الممرِّضة فجأة قائلةً:

- دكتور! الضغط ينهار: أصبح 45 mm Hg.

فقال (تيوفان):

- يجب القيام بوقف النزيف. أعِدّي الجهاز.

وبينما كانت الممرضة تحدِّق في وجهه مرتبكةً، زعق قائلاً:

- ماذا تفعلين؟ بسرعة! عَجِّلي!

* * *

(112) وهو نقص بلازما الدم المؤدي إلى انخفاض الضغط والموت إن لم يتم نقل الدم (المترجم).

اختــرق رنين الهاتــف أذنَي (تيوفان). وقد تســاءل، خلال مدة وجيــزة، إنْ كان لا يــزال يعيــش فــي كابوســه أم فــي الواقع. فتح عينيه، اللتين أبقاهما مغلقتين طيلة الدقائق التي عاشــها وهو يحلم، فرأى (تيمور) يضع يده على سماعة الهاتف، ويسأله:

- حسناً، هل تردّ؟

مدَّ (تيوفان) يده المضطربة قليلاً، فسمع من الطرف الآخر:

- دكتور (دِبّانِه)؟ معك (بيبا فاسِّيلي). هل أزعجك؟

- لا، لا، هل لدى (أنطونيا) مشكلة؟

- علــى الإطــلاق. إنهــا بصحة جيدة جــداً. مــاذا تصنع هذا المســاء؟ تعالَ إذن لتتعشَّــى عندنا. أعلَم أنني قرَّرتُ ذلك في وقت متأخِّر قليلاً. ولكن (الباشــا) يهتم باللقاء معك اهتماماً كبيراً. وكنتُ قد حدَّثْتُه كثيراً عنك.

- (الباشا)؟

- يــا لَغبائــي! لقــد كنــتُ أعرفُه منــذ زمن طويل جــداً، حتى تصــوَّرتُ أن الأرض كلهــا تعــرف لقبَــه. ومن جانب آخــر، لم أفكِّر قــط في أن أقدِّمه باســم عائلتــه، لأني أجد مــن الصعب النطقَ بــه، إنــه (أنَاغنوســتاكيس) Anagnostakis.. هــل تتصــوَّر؟ (أناغنوســتاكيس)! ولكــن لحســن الحظ أن اســمه الأول يعوِّض اســم العائلــة البشــع هذا، فهــو يدعــى (آخيــل) Achille. وهو أبسط للحفظ، أليس كذلك؟ من فضلك، تعالَ. فلسوف تسعدنا سعادة عظيمة.

لاحظت (بيبا) تردُّده على الطرف الآخر من الخط، فألحَّتْ قائلة:

- هيــا، يــا دكتــور! كــن عطوفًــا. امنح هــذا الفضــلَ لروحين وحيدتين.

- إنني..

- نسيتُ المهمّ: إنَّ (آخيل) مولودٌ مثلك في (مصر). وأنا متأكّدة أن لديكما كثيراً مما ترويانه. الموعد السابعة مساءً!

لبِثَ مرتبكاً، وسأل:

- كيف عرفتِ أنني مولود في (مصر)؟ إنني..

- هل نسيتَ؟ إنني أقرأ الورق. والآن، ستأتي؟

- موافق.

- شكراً! ولن تندم. فقد حضَّرتُ لنا (ديسبينا) وجبة (موسَّاكا)[113] moussaka ستأكل أصابعك من ورائها!

ثم أغلقت الخط.

استفسر (تيمور) قائلاً:

- ما الأمر؟

- السيدة (فاسِّيلي)، صاحبة النُّزُل (البانسيون)، تدعوني إلى العَشاء.

- رائع! فأنت لا تخرج مساء تقريباً، وهذا سيغيِّر لك أفكارك.

- مَنْ قال لك إن عندي أفكاراً تحتاج إلى تغيير؟ إن أفكاري بخير تماماً.

- وكيف هي هذه السيدة؟

- عادية.

- هل هي جميلة؟ عجوز؟ شابة؟

- بحسب معاييري هي مغريةٌ وشابّة. وبحسب معاييرِك هي بدينة وعجوز.

(113) وهي تتكون من (شرائح باذنجان ولحم وطماطم وبصل وثوم؛ وعلى الوجه كريمة) (المترجم).

- عجوز؟ يعني؟
- إنها في الخامسة والأربعين من العمر تقريباً.
- حقاً؟
- عندما تبلغ أنت هذا العمر، لسوف تعُدّ الشيخوخة تبدأ في الخامسة والستين. وفي الخامسة والستين، سوف تنفي فارق العشرين سنة هذا.
- أتظنّ ذلك؟
- لا. أنا متأكِّد من ذلك.
- وابنتها؟ تدعى (أنطونيا). أليس كذلك؟
- لا شيءَ يفوتُك. بلَى. إنها شابة تقريباً، عمرها ست وعشرون سنة.
- إنه ليس شيئاً مسلِّياً أن تعيش في كرسيٍّ متحرِّك. ألا يوجد أيُّ علاج لها؟
- لسوء الحظ لا يوجد. ويبقى العلاج الوحيد لهذا المرض إعادة التأهيل، وذلك بتحفيز العضلات العاجزة على التنبُّه والتحسُّن.
- وهل سيكون لـ (أنطونيا) فرصة لكي تعود إلى المشي مشياً عادياً؟
- مستحيل. ولكن حالتها العامة يمكن أن تتحسَّن.
- لماذا لا تساعدها أنت؟
- يبدو أنك نسيتَ أنني لست متخصصاً في العلاج الطبيعي kinésiterapeute. ومن جهة ثانية، وبحسب قول أمها، لقد تابعتْ جلساتِ لإعادة التأهيل، ولسوف تستأنفها حين تجد مدلِّكاً.

تأمَّل (تيمورُ) بضعَ ثوانٍ، قبل أن يبدي ملاحظة بالقول:

- إن أردتَ رأيي، فإنني مقتنعٌ بأنك تســتطيع فعل شــيءٍ ما. لا تنسَ: أوَلستَ انت أكبرَ جرَّاحٍ في العالم؟

انطلقت ضحكة من صدر (تيوفان)، ثم قال:

- أخيــراً تقـول كلمــةً لطيفة! يا للأســف! إن أكبر جــرَّاحٍ في العالم، مهما كان موهوباً، لا يستطيع إرجاعَ الحياة إلى عضلاتٍ ميتةٍ.

(6)

كان الضـوء الأحمر القاتم والأصفر، الذي كان ينير الشـرفة (التّراس)، يضفـي على وجه (آخيل أناغنوسـتاكيس Achille Anagnostakis، بشـكل لا يُصـدَّق، مظهـراً شـفافاً، وفـوقَ طبيعـي تقريبـاً. إنه يشـبه وجيهـاً بريطانياً قادماً مباشـرة من مجلـس اللوردات. وكانت هيئته تؤكّد هذا الانطباع: بدلةٌ رمادية مـن ثـلاث قطع مقلّمة، ربطة عنق ومنديلُ جيب من حريـر أزرق، وحـذاء نظيف. وتحـت صلعته كانـت تلمع نظّـارة ذات عُوَينتين مدوَّرتـين صغيرتـين مـن المعـدِن، ولـه شـاربان مفتـولان علـى طرفـي الشـفتين. وكان يطفَح بعـزة النفس الطبيعية الخاصة بالأرسـتقراطية اليونانية القديمة. كان في السادسـة والسبعين من العمر، ويظهر أقل منها بخمس سنوات أو ست.

فـي الواقع، لم يكن (الباشـا) وجيهاً تركيـاً، ولا حتى مصرياً. وقـد أطلقت عليـه (بيبا) هذا اللقب من بـاب المزاح. ففي مطلع سنة 1915 اضطرَّتْ أسرته، وأصلها من (إزمير)[114] Smyrne، أن تفـرّ مـن (الأناضول)[115] Anatolie إلـى (الإسـكندرية)

(114) إزمير: مدينة تركية مطلة على بحر إيجة من البحر المتوسط يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين نسمة (المترجم).

(115) الأناضول: اسم يطلق على آسيا الصغرى (تركيا الآسيوية اليوم) (المترجم).

للتخلُّص من الهستيريا العثمانية في تلك الفترة[116]. كان عمر (آخيل) خمس سنوات.

وكانت أسرة (أناغنوستاكيس) قد ترددتْ مطولاً في حزم حقائبها. وبعد كل هذا، كانوا يشعرون أنهم في بيتهم. لقد كانوا في بيتهم! ولولا تحذيرُ أحد أصدقائهم الأتراك، لكانوا انتهوا بالتأكيد رماداً، كأغلبية مواطنيهم، فقد قال لهم هذا الصديق: «ارحلوا! ارحلوا! فقد علمتُ أن السلطات تنوي أن تنتهي مما يُسَمَّى (القضية اليونانية) بذات الطريقة التي اتخذتها لحل (القضية الأرمنية). ارحلوا!».

لقد أحسن صنعاً، ففي نهاية الحرب العالمية الأولى، يُذكَر أن هنالك 350.000 ضحية فقط من اليونانيين في (آسيا الصغرى). وكان بعضهم قد اختفى، على غِرار الأرمن، مقتولاً، وهلك آخرون من الإعياء أو الجوع على طرقات اللجوء.

اعترض (تيوفان) بقوله:

- في رأي الأتراك، لم يكن اجتثاث هؤلاء السكان سوى نتيجةٍ للمواجهات العسكرية.

(قال (الباشا))[117]:

---

(116) يقصد بالهستيريا العثمانية تلك الحالة التي انتابت الأتراك مع الانهيار النهائي والأخير لإمبراطوريتهم العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، نتيجةً للهجوم الذي تعرَّضت له من قبل الجيران العرب والروس والبلغار واليونانيين والأرمن وغيرهم بالإضافة إلى الإنكليز والفرنسيين في آن واحد، الأمر الذي ولَّد عندهم شراسة خاصة للدفاع عن بلادهم بأي ثمن (المترجم).

(117) اقتضى السياق إثبات ما بين القوسين القائمين، نظراً لعدم ذكر قائل القول، ولا يُعرَف إلا بعد بضعة أسطر على الأقل، وقد أوقفنا المؤلف - في بعض المواضع - في مثل هذا اللبس، لأنه كان يهمل الإشارة إلى المتكلم في عبارات الحوار، فكان ذلك يضطرنا إلى الإيضاح أحياناً من غير التنبيه على ذلك (المترجم).

- إنـك تضحكنـيـ! هـل رأيـتَ مـن قبـلُ نسـاءً، وشـيوخاً، وأطفـالاً صغـاراً يشـكِّلون خطـراً إزاء واحد من أقـوى الجيوش فـي العالـم؟! Kalam fadi[118]، يا عزيـزي، إنها مجموعة من الحماقات.

لم يستطع (تيوفان) منع نفسه من الابتسام، لا لأنه لا يأخذ أقوال محدِّثه مأخذَ جِدٍّ، ولكن للعبارة المصرية التي أيقظتْ في نفسه كثيراً من الذكريات!

أحضـرت (بيبـا) زجاجة خمر للطبيب، وهـي الثالثة في هذه الأمسية، وقالت:

- هل ترغب في فتحها؟

وافق (تيوفان) قائلاً:

- فـي المـرة القادمـة سـوف أحضِـر لكِ خمـراً مـن صديقي (ديمتري): هل ذُقتها؟

- لا، ولكني أتقبَّلها بكل سـرور. وستكون في ذلك فرصةٌ لكي تعود لزيارتنا.

ثم مالتْ نحو (آخيل) وأخذت يدَه برِقَّة، وقالت:

- أليس كذلك؟

- بالتأكيد. سيكون مرحَّباً به.

مـلأ (تيوفان) الكؤوسَ وهو يسـأل نفسَـه عـن العلاقات التي يحافـظ عليها هـذان الشـخصان. فقد كان فـارق العمر بينهما نحوَ ثلاثين سنة. فهل يمكن أن يكونا قد عاشا قصة غرامية؟ وهل هما ما يزالان يعيشانها؟ هنالك دليل يقفز أمام العين: فقد كانا

(118) اثبت المؤلِّف في المتن كلمتي: كلام فاضي! هكذا بالحروف اللاتينية (المترجم).

بالتأكيد مشدودين بالحياة والموت. وينبعث من نظراتهما كثير من المحبة، وكان هنالك كثير من التواطؤ في حركاتهما، وقد كانت بينهما، بلا شك، ذاكرة مشتركة تجعلهما يتصرَّفان تصرفاً عادياً. فإن كانا متحابين، فإنهما لا يزالان كذلك، وبعاطفة أقوى من الحب بكثير. أين كان تعارفُهما؟ وما ظروفه؟

قال (تيوفان) وهو يلتفت إلى (الباشا):

- إنه لأمرٌ مدهِشٌ أنك لا تزال تتكلَّم المصرية جيداً جداً، فمتى غادرتَ (مصر)؟

- في وقتٍ متأخِّر، سنة 1956. وكان لـ(ناصر)[119] في السلطة أربعُ سنوات. وكان قد اتخذ خطوات مزدوجة بين الشرق والغرب. ولكن الهجوم على (السويس)[120] ألقاه في أحضان المعسكر السوفييتي، فأصبحنا نحن - يونانيِّي (مصر) - في جحيم، كما هو شأن الجماعات التي توصف بـ(الأجنبية). ولعلَّك تعرف عن ذلك شيئاً ما، أليس كذلك؟ جماعات أجنبية! يا لَلحماقة! أناسٌ كانوا يعيشون في هذا البلد منذ أجيال ويوصفون بأنهم

(119) ناصر (Nasser): هو الاسم المختصر الذي كان يُطلَق، خارج العالم العربي، على الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) (1918 - 1970) قائد ثورة 23 يوليو/تموز سنة 1952، وكان قد تولّى رئاسة مصر سنة 1954حتى وفاته (المترجم).

(120) يقصد بذلك ما اشتهر في الإعلام العربي بـ (العدوان الثلاثي) على مصر لاشتراك ثلاث دول متواطئة معاً عليه، كلٌ لسبب مختلف: الأولى (إسرائيل) لتدمر الجيش المصري قبل وصول صفقة السلاح الحديث من (الاتحاد السوفييتي) ولفرض شروط على مصر. والثانية (بريطانيا العظمى) صاحبة الامتياز في قناة السويس ومالكة الحصة العظمى من أسهم شركتها. والثالثة (فرنسا) التي تريد الانتقام من مصر، لدعمها ثورة الجزائر منذ سنة 1954 ضد استعمارها. وكان هذا العدوان نتيجة إعلان (عبد الناصر) المفاجئ تأميمَ شركة (قناة السويس)، يوم 26 يوليو/تموز سنة 1956، لتمويل مشروع السد العالي في (أسوان)، نظراً لرفض صندوق النقد الدولي تمويله بسبب اعتراضات الولايات المتحدة والغرب على سياساته. بدأ العدون في 29 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1956. غير أن عوامل الإخفاق كانت أكثر من عوامل النجاح، وانتهى الأمر بانسحاب القوات الغازية جميعاً (المترجم).

(أجانب). ولجوؤكَ أنتَ إلى هنا.. متى بدأ؟

- بعد لجوئك بثلاث سنوات. وكنتُ قد بلغتُ التاسعة عشرة.

- إذًا كنتَ في ريعان الشباب، وتتذكَّر الـ (Black Saturday)[121] المشؤوم الذي أشعلتْ فيه زُمَرٌ متطرِّفةٌ النارَ بـ (القاهرة). كان ذلك في 26 كانون الثاني/يناير سنة 1952. فكانت ليلةً رهيبة. لقد رأيتُ المشهد بوضوحٍ، ولم تره أنتَ بالتأكيد.

*** * ***

قال (تيوفان)[122]:

- هبط الظلام.. وجاءت أمي، وألقت بنفسها في غرفتي. كان عمري اثنتي عشرة سنة. وأنا أتذكَّر كل شيء. ولا تزال في أنفي الرائحة اللاذعة المنبعثة من محل صاحب امتياز إطارات (ميشلان)[123] Michelin، وكان بجوار عمارتنا، وقد رأيتُ رجُلَ (ميشلان)[124] ممتلئَ الخدين، يسقط ويتحوَّل فحمةً سوداء، وتلاشى ببطء بفعل ألسنة اللهب.

---

(121) أورد المؤلف الكلمتين هكذا بالإنكليزية، بمعنى (السبت الأسود) (المترجم).

(122) بدأ (تيوفان) من هنا يروي شريط ذكرياته عن تلك الليلة لـ (الباشا) و(بيبا) (المترجم).

(123) إطارات (ميشلان): شركة فرنسية صانعة للإطارات، أسَّسها الأخَوَان (أندريه وإدوار ميشلان)، سنة 1889، في مدينة (كليرمون - فِرَّان) Clérmont - Ferrand، وسط (فرنسا)، على مساحة 12 هكتاراً من الأرض، وكان يعمل فيها 52 عاملاً. مرت الشركة بتاريخ عريق وواسع إلى يومنا هذا، وسجلت تطورات هائلة عبر الزمان. وهي تصنع إطارات الدراجات بأنواعها، وإطارات السيارات، والشاحنات، والطائرات، والجرارات.. وتأتي في الترتيب عالمياً ثانية بعد شركة إطارات (بريدجستون) Bridgestone اليابانية، وقبل شركة إطارات (غوديير) Goodyear الأمريكية، وقد بلغت مبيعاتها سنة 2014 نحو 20 مليار يورو. وهي اليوم شركة متعددة الجنسيات، وتنتشر مصانعها في عدد كبير من البلدان في خمس قارّات (المترجم).

(124) يعني به صورة الرجل التي ترافق إعلانات هذه الإطارات وصارت مع الزمان شعاراً للشركة، ولونه أبيض ومحزَّز أفقياً (المترجم).

صاحت أمي:

- استيقظ! أسرع! سنخرج..

- إلى أين؟ ولماذا؟

- لا تطرَح أسئلة. أسرع! أسرع!

ومن خلال النافذة، كنتُ ألمح أضواءً محمَرَّة.

ركضنا. لم يكن لدينا وقتٌ كي نأخذ المِصْعَد. فنزلنا بسرعة على السُّلَّم. كانت هنالك صرخاتٌ تصعد من الشارع، ومن صحن الدار التي تجري فيها النافورة دوماً، غيرَ مبالية بالصخب. وكان الـ (bawab)[125] يومِئ، ويركض في كل الاتجاهات.

جلس أبي وراء مِقْوَد السيارة. وكانت من نوع (أوبل)[126] Opel بيضاء اللون. وأقلع كالإعصار باتجاه (عين شمس) Héliopolis، حيث تسكن أختُ والدتي وزوجها الطبيب. ومررنا بشارع (عماد الدين). فرأينا واجهات المحالّ المحطمة ومشاهد النهب.

كانت هنالك صرخات، ولا أزال أسمع تلك الصرخات. وكنتُ ألمح، من خلال زجاج السيارة، وأنا مرعوب، أضواء أرجوانية. لم أكن أفهم شيئاً من هذا الضجيج، ولكني كنتُ أشعر أن هنالك شيئاً خطيراً يحصل. وفي الساحة الكبيرة التي تجاور (محطة

(125) هكذا أثبت المؤلف في المتن كلمة (بَوّاب) العربية (المترجم).

(126) أوبل: شركة ألمانية لصناعة السيارات، أسَّسها (آدم أوبل)، سنة 1862، في (روسْلسْهايم) Rüsselsheim و(هِسّ) Hesse. وكانت الشركة في البداية تصنع آلات الخياطة، ثم أخذت، سنة 1886، تصنع الدراجات الهوائية، واشتركت سنة 1901 مع شركة صناعة سيارات فرنسية في صنع سيارة، ثم توسعت سنة 1914، إلى ان أصبحت في أوائل العشرينيات المصنّع الأول للسيارات في ألمانيا، ولها تاريخ عريق ومتنوع حتى يومنا هذا (المترجم).

باب الحديد) كانت هنالك أشباح تهدِّد، وتسدّ الشارع الرئيسي. كان أبي منزعجاً من احتمال ضربه. كانت هنالك وجوهٌ شَبَحِيَّة تحيط بنا. وكانت تلك صدمةً خفية. جاء أحدُهم وضرب هيكل السيارة بقبضته. فارتعَدتُ قليلاً. ماذا يريد منا هؤلاء الناس؟ ولماذا؟

سمعت أبي يتبادل بضع كلمات مع المتظاهرين، ثم يشير بإصبعه إليّ. لا شكّ أنه كان يحاول أن يجادلهم. حدَّق بي زعيمُهم. لقد كان خدّاه ملطَّخين بالسُّخام الأسود (الشَّحَّار). وكان جبينُه يرشَح عرقاً. ولن أنسى ملامحه أبداً. كم من الوقت استغرق في التفكير قبل أن يعطي إشارة لرفاقه بأن يدَعُونا نمرّ؟ كان هذا الوقتُ ألفَ ساعة بالنسبة لي، مع أنه كان في الحقيقة بضع دقائق.

وانطلقنا.

* * *

ثم دمدم (تيوفان) قائلاً:

- إنني أتذكَّر كلَّ شيء.

قال (الباشا):

- في تلك الليلة كان كل شيءٍ يتأرجَح. وبعدئذٍ إلى أي البلاد رحلتَ؟

- رحلتُ إلى ثقافتي ولغةِ أمي: إلى (فرنسا). واختار آخرون (كندا)، و(الولايات المتحدة)، أو حتى (أستراليا). لم يكن هنالك أي مستقبل يبدو أكثر إمكاناً. ولقد أصبحنا هُجَناء.

ثم خَلَص إلى القول وقد اغرورقت عيناه بالدمع فجأة:

- ولا نزال كذلك.

صاحت (بيبا):

- توقَّف! هُجَناء؟ إني أراك مكتئباً.

فأكَّد لها (الباشا) قائلاً:

- إنــه لم يخطئ. وأنتِ لا يمكنكِ أن تُدركِي الأمر، فقد وُلِدتِ فــي (اليونان)، وتعيشــين دائمــاً هنا. فأنتِ يونانيــةٌ حتى أطراف شَــفتيكِ[127]. وأنــتِ شــجَرة. جــذورُكِ راســخة نهائيــاً فــي تُربــة مسقطِ رأسِكِ، أما هو فإلى أي أرضٍ ينتمي؟

رفعَتِ المرأةُ عينيها إلى السماء، وقالت:

- (آخيل)! ماذا تقول؟ إنه فرنسي، أليس كذلك؟

- ربما في نظرِكِ أنتِ. ولكنْ مَنْ هوَ في نظر الفرنسي؟ حتى أنــا، يحصــل لي أحياناً أنني لا أدري إنْ كنتُ يونانياً أم مصرياً، أو حتى - لزيادة الطين بِلَّة - تركيّاً!

تجرَّعت (بيبا) كأسها دفعة واحدة، وقالت:

- أتعرفانِ مَنْ تكونانِ؟ إنكما مجنونانِ.

ردَّ (تيوفان) قائلاً:

- لسنا مجنونَيْنِ تماماً.

ثم أخذ نفساً قصيراً وقال:

- البصمات، يا ســيِّدة (فاسِّــيلي)، هل تعرفــين ما البصمات؟ إنها علاماتٌ نتركها حين نضغط على سطح ما. وفي اليوم الذي تَمَّحــي فيــه، فإن هوية صاحبهــا تَمَّحي فــي ذات الوقت، ولا يرى محيطُه بوضوح مَنْ يكون ولا هو أيضاً يعرف مَنْ يكون. وهذا هو المصير الذي عرَفه مئاتُ الآلافِ من الأشخاص: يهوداً، ونصارى،

(127) كناية عن كونها يونانية خالصة، وهذا يشبه قولنا: أنت عربي قُحٌّ، أو أنت عربي من رأسك حتى أخْمَص قدميك (المترجم).

وحتى مسلمين في (مصر)، وكذلك في (شمال أفريقيا)[128]. سكّانٌ بأجمعهم يُطرَدون كالخدم. لقد محوا بصماتنا، فعلى أي شيء تقوم هذه البصمات؟ إنها تقوم على المدرسة، والبيت، ودار السينما التي يهرب إليها التلميذ من المدرسة، والشارع، والأصوات، والأنغام، والروائح. وعلى الكائنات المختلفة أيضاً بالتأكيد. وحين تختفي كل هذه الأشياء دفعة واحدة، لا يبقى سوى فراغ واسع. والأسوأ أيضاً هو أن العدَم ليس سوى رؤية هذه البصماتِ المدمَّرة والممزَّقة، والمتحوِّلة إلى أطلالٍ أو بضع شواهد معفَّرةٍ بالتراب في مقبَرةٍ تمَّ تفجيرُها. تخيَّل أنك كنتَ تعشق امرأةً في زمن تألُّقِها، وفي أحد الأيام ظهرتْ لك مُقْعَدةً من (الروماتيزم)[129] rhumatismes، ونصفَ مجنونةٍ، ومنحنيةَ الظهر، وأعضاؤها مشوَّهةٌ، وترفع عينيها إليك فجأةً وتسألك: «مَنْ أنت؟ إن ملامحَك تذكِّرني بأحدهم: فمَنْ أنت؟»، عندها يفضِّل المرء لو أنها كانت ميتةً.

توقف قليلاً قبل أن يواصل قائلاً:

- أنتِ يا (بيبا) يمكنكِ أن تعودي إلى مدينتِك أو قريتِك، حتى بعد عدة سنوات، وسوف تشاهدين فيها آثاراً من الماضي: كأن تكون مدرستك لم تعد هنالك، أو إن كان منزلك لا يزال موجوداً أو اختفى، وستقودك قدماك إلى الحديقة، أو الكنيسة، أو إلى المخبز، وإلى بقيةٍ من بضعة أشياء لا تزال

(128) كان المؤلِّف يثير هنا مسألة خطيرة تتعلَّق بالهجرة القسرية أو الطوعية للبشر من مكان إلى آخر قديماً، ومن دولة نابذة إلى دولة جاذبة في أيامنا، ومثال (شمال أفريقيا)، هنا، تذكير بعودة آلاف مؤلَّفة من المستوطنين الفرنسيين بعد مئة واثنتين وثلاثين سنة من الاستعمار، من الجزائر، بعد الاستقلال، إلى فرنسا (المترجم).

(129) الروماتيزم: آلام حادّة ومزمنة في المفاصل والعضلات (المترجم).

قائمـة وسـليمة. وهنالك دومـاً عمَّةٌ عجـوز أو ابنـةُ عَمٍّ تقول لـكِ: «مرحبـاً! هل تذكريـن؟». وأما نحن فلسـنا كذلك، وعلى كل حال أنا لسـتُ كذلك. وأكثر من البصمات الصور المصْفرَّة. إنني (هيروشيما)[130] Hiroshima.

تلتْ حديثه هذا فترة صمت طويلة إلى أن سألته (بيبا) قائلة:

- أليسَ لديك.. أسرة؟

- لا.. قلتُ لك: (هيروشيما).

- ولا زوجة؟

- أيضاً لا. لقد انفصلنا.

قال (الباشا) بلهجة ساخرة:

- يـا صديقـي المسـكين! كنتَ متزوِّجـاً إذن! إنهـا (The full catastrophe!)[131] كمـا كان (زوربا)[132] Zorba يقـول. واتصوَّر أن لديكَ أطفالاً أيضاً؟

مدّ (تيوفان) كأسَه إلى السيدة، قائلاً:

- هل يمكن أن تملئيه؟

هَمَّـت (بيبا) بملء الـكأس، غير أنها توقَّفت فجأة، وهي تنظر إلى ما وراء (تيوفان)، وقالت:

- (أنطونيا)؟ ماذا تفعلين هنا؟

---

(130) هيروشيما: ميناء ياباني ألقى عليه الأمريكان في أواخر الحرب العالمية الثانية في يوم 6 آب / أغسطس سنة 1945 أول قنبلة نووية في العالم. وربما ذكرها المؤلِّف هنا، لأن هيروشيما ما قبل القنبلة بقيت مجرد صور للماضي، وهي تشكل بصمة توصِّل لجذورها (المترجم).

(131) ذكر المؤلِّف الكلمتين بالإنكليزية هكذا في المتن، وهما بمعنى (الكارثة الكاملة!) (المترجم).

(132) زوربـا: هو بطل رواية (زوربا اليونانـي) Zorba the greek للكاتب اليوناني (نيكوس كازانتزاكيـس) Nikos Kazantzakis، وقد نشـرت طبعتها الأولى سـنة 1946، واقتُبِسَـتْ فيلماً سـينمائياً بذات العنوان، وقام بدور (زوربا) فيه الممثل العالمي (أنطوني كوين) Anthony Quinn سنة 1964 (المترجم).

كانت الفتاة الشابة تسير نحوهم مستندةً إلى عُكّازَيها، وتندفع جانبياً، وهي تَزُمّ شَفتيها، باذلةً قُصارى جهدها كي تسيطر على قدمِها اليمنى، لتدور باتجاه الجسد. خطوةً، ثُمَّ أخرى. وخطوة مشدودة بهذا الصوت المعدني الرهيب كاشطةً التراب. هل كانت هذه هي ملامحَها؟ كان بإمكان (تيوفان) أن يحلِف بأنها كانت حاضرة طيلةَ الوقت الذي كان يتكلَّم فيه، وهي قابعةٌ في زاوية.

عرَّجتْ نحو (آخيل)، فنهض فوراً، وضمَّها إلى صدره، قائلاً:

- أنتِ بخير، يا دُمْيَتي؟

ثم سحب كرسياً ودعاها إلى الجلوس.

قالت لها (بيبا):

- إنك لم تُمَسِّي على الدكتور (دبِّانه)؟

فحيَّتْه (أنطونيا) بانحناءة من رأسها، كما لو كانت قد لمحتْه للتو فقط، وتناولت عنقودَ عنب. وقالت:

- عيد الفصح بعد عشرة أيام.

فتمتم (الباشا) قائلاً:

- إنه الكرنفال العظيم.

فانفجرَتْ (بيبا)، وهي ترسُم إشارة الصليب، قائلةً:

- إني أمنعك!

- ما الأمرُ؟ وأنت لم تؤدِّي حتى الصوم الكبير؟

- وبعدُ؟ إنه عيدٌ مقدَّس! ولا يجوز التهكُّم بهذه الأمور. أيها المارق! أرحنا من تجديفاتك.

أشهَد (الباشا) (تيوفانَ) قائلاً:

- أنت ترى، يا صديقي. هنالك موضوعان لا تقربْهُما مع امرأةٍ يونانية هما: الدِّيْن و.. امرأةٌ أخرى، لأنها تصبح عندئذٍ نَمِرَة.

وافـق الطبيـبُ على رأيه وهو شـارد الذهن. لقـد أجال نظرَه في (أنطونيا)، ودُهِش من ملامحها. وتذكَّر أنها كانت تراقبه كما يُراقِب المرءُ بارتيابٍ حيواناً يَخْشَى أن ينقضَّ عليه. ما الذي كان يحـدث في رأسِـها؟ لقد شَـخَصَتْ بنظرهـا إليه، ولكن شـيئاً لم ينبعـث مـن حدقتيها فيمـا عدا التوَجُّسَ، وعلـى الأقل قد تكون نظرتها من باب الفضول.

قالت (أنطونيا) لـ (تيوفان):

- إنك لن تتوصَّل إلى شيء في الموضوع.

قطَّب (تيوفان) جبينَه وقال:

- عفواً؟

- أنت لن تتوصَّل إلى قراءة ما في داخلي، فصفحاته مُرمَّزة. وأنا وحدي أملك المفتاح.

- لسـوف أخيِّـب أملَـكِ، يا عزيزتـي (أنطونيا)، فأنـا لم أكن أسـعى إلى شـيء. ومـن نحوٍ آخـر، قليلاً مـا تجتذبنـي الألغاز. وأقول لك أيضاً إنها تزعِجني.

- أنتَ تكذِب، وتعلَم ذلك.

كان يعلَم ذلك.

ثارتْ (بيبا) مذعورةً وقالت:

- هل فقدتِ صوابَكِ يا ابنتي؟

زايد (الباشا) فقال:

- كيف تجرئين على الكلام هكذا مع ضيفنا؟

فتدخَّل (تيوفان) بقوله:

- دعْ عنكَ هذا. إن (أنطونيا) لم تكن ترغب في أن تظهر عديمة الاحترام، ولكنها فقط تعاملني معاملة الند للند، أليس كذلك؟

- وأيضاً يجب عليك أن تكون في مستواي.

صلَّبَتْ (بيبا) ثلاث مرات وقالت:

- ابنتي! ابنتي! توقَّفِي!

واصلت (أنطونيا) كلامها غيرَ مبالية باعتراض أمها فقالت:

- إضافة إلى أن ذاكرتَك تخونك.

قال (تيوفان):

- تابعي.

فاستشهدَتْ بقوله: «إن مَنْ يُصغِ إلى القلب يسمعْ أيضاً الأسرار الأكثرَ سِرِّيَّة عند الكائنات»، ثم قالت:

- والآن أنا جاهزة.

ثم أبدَتْ تكشيرة ساخرة، وقالت:

- ما من فائدة. أنتَ لا تقدِّر الألغاز، وأنا لا أقدِّر علماءَ النفس المزيَّفين، ولا علماء النفس الفجائيين أيضاً. ولا أؤمن أيضاً بعلم النفس التحليلي أو قارئات الطالع: فالأوَّلون يحمِلون دجلاً مُجازاً، والأخريات يحملن محصول صيد ضحاياهُنَّ. وفوق ذلك، وكما بيَّنتُ لك للتوّ، إن الصفحات مُرمَّزة، وأنا وحدي أملِك المفتاح.

أنَّتْ (بيبا) وقالت:

- أرجوكما، لنغيِّر الموضوع.

أيَّد (تيوفان) ذلك قائلاً:

- عندك حقٌّ. فقد أصبح الوقتُ متأخِّراً، وسأعود إلى البيت. شكراً على العَشاء. وأُحَيّيكَ، أيها (الباشا).

تهكَّمتْ (أنطونيا) قائلة:

- لم تكن شجاعاً تماماً، يا دكتور (دِبّانِه)، فنحن لا نزال في المناوشات.

التفَتَ (تيوفان) نحو الفتاة الشابة نصف التفاتةٍ، ونظر إليها نظرة مطَوَّلةً، وقال:

- اعلمــي يا آنســة أنه متى يَصْفَــعِ الغباءُ الــذكاءَ يُصْبِحْ من حــقّ الــذكاءِ أن يتصرَّف بغبــاء. ليلتكِم لطيفة. لســوف أمُرُّ غداً من أجل حُقْنَتِكِ.

(7)

انتفض وفتح جَفْنَيه على الصوت المعدني لأجراس الدير، القريبة جداً حتى كأنها تُقْرَع في سقف غرفته. وفعلاً، لم تكن لتتوقف قطّ. كان الدير، وهو بلا شك أقدس الأديرة في (اليونان)، يقوم على بقايا معبد وثني مخصَّص لـ (أرتيميس) Artémis [133]، إلهة الصيد وابنة (زيوس)[134] Zeus؛ إننا نجد دوماً، في هذا البلد، هذا التداخل المدهش في الأماكن والتقاليد.

كانت ساعة رأس السرير تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً.

وهو لا يتذكَّر أنه قد نام من قبل مدة طويلة جداً كهذه المرة.

«أنت لن تتوصَّل إلى قراءة ما في داخلي، فصفحاته مُرمَّزة. وأنا وحدي أملك المفتاح».

كيف أمكنَ لـ (أنطونيا) أن تعرف أن المخلوقات الملقاة في الجحيم تملك موهبة استثنائية: وهي قدرتها على فكّ رموزٍ ما لا تكون رموزُه قابلةً للفكّ. وكيف يرغب هو فيها؟ فقد كان يعيش داخل العاصفة، وهي داخل الآلام. إنهما غريقان في جزيرة طيِّ النسيان.

---

(133) أرتيميس: هي كذلك في الأساطير اليونانية القديمة، وتقابلها (ديانا) Diane في الأساطير الرومانية القديمة أيضاً (المترجم).

(134) زيوس: هو كبير الآلهة في الأساطير اليونانية، ويقابله (جوبيتر) Jupiter في الأساطير الرومانية (المترجم).

وتمثالان حيَّان. إن بعض التجارب توقظ غالباً بعنفها وجعاً عميقاً لا يتِمّ الشعور به كما هو، لأن المرء، تحت الصدمة، يقترب بقسوة من نهاية يعلَم أنها صاعقةٌ وجارفة. وهذا ما جعل من قوته وثقته بنفسه، اللتين تحطمتا ذات يوم من أيام شهر حزيران/يونيو من سنة 1983، لُعبةَ طفلٍ مبتذلة بين أيادٍ متوحشة.

قفز (تيوفان) خارج سريره وصاح: «تيمور!»، ولم يكن هنالك جواب. فذهب إلى غرفة الفتى المراهق، فكانت خالية. وفكر: «أنا أهذي. أنا أهذي، كيف يمكن أن يكون هنا؟».

شرب واقفاً فنجانَيْ قهوتِه المعتادين، وأخذ رَشَاشاً (دُوْشاً) وتوجَّه إلى هناك، عند (مانوليس)، فقد كان (جيهول) بالتأكيد يفحَص بأرجله الأرض من الملل.

في الحقيقة، كان ينتظره في وسط المرج الذي كان يجاور مزرعة الفلاح. إن (مانوليس) رجل لطيف. ولو لم يكن قد قبل أن يضيّف (جيهول)، لكان وجود الحصان في الجزيرة قد تم التخلي عنه.

قال (مانوليس):

- ماذا، أيها الطبيب، هل نمتَ إلى الضحى؟

- مرة واحدة في ثلاث سنوات. وأعترف بأن هذا نادر.

- كفى! لستُ أنا مَنْ يلومُك (وأشار الفلاح إلى الحصان)، عليك أن تقدِّم الحساب إليه. لقد اختلط عليه الأمر تماماً. أسوأ من عاشق خجول أمام حبيبته.

- لا عليك! إنني أعرف كيف أعتذر.

تحرَّك (جيهول)، وهو يَصْهَل، وكأنه قد فهم أقوال (تيوفان).

قال (مانوليس):

- هـذه العلاقـة التي يحافظ عليها كلٌّ منكما أمرٌ لا يُصَدَّق. وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ذلك. فهل تتكلَّم بلغته؟

تبسَّم الطبيبُ وقال:

- أنـتَ لـن تصـدِّق إن قلتُ لك إننـي أتكلَّم لغـة الحصان في الحقيقـة، أو بالأحـرى لغـة الـ (equus)[135]. وقـد كان التعلُّم طويلاً.

- إن كنـتَ تقـول ذلك، فمـا أراه أنا هو أنك تمـارس عليه قوة هيمنة واضحة. إنه يخشاك.

هز (تيوفان) رأسَه، وقال:

- أوه.. بالطبـع لا! لأنـه لو كان يخشـاني لما كان بالإمكان أن يكون بيننا تواصُلٌ. والسرُّ يكمُن في العكس، أي في الثقة. فالحصان هَلُوعٌ، والإنسان وحشٌ. فإن رغب في الحصول على ثقة الحصان، فعليه أن يجتاز على الأقل نصف الطريق الذي يفصـل بينهما، محافظـاً تماماً على الإفادة مـن حقيقةٍ هي أنه في مواجهة حيوان جَفُول. وأريد أن أعهد إليك بسرٍّ آخر. اتبَعْني!

عندمـا وصـل (تيوفان) أمـام (جيهول)، بدأ مطـوَّلاً بمداعبة عنقه، ومسْح خده إزاء فمه، وهمس إليه بكلمات محبة، ودغدغه أيضاً، ثم التَفتَ إلى اليوناني، وقال:

- راقِبْ.

وضـع الطبيـب راحـة يـدِه علـى جنـب الحصـان وتظاهر بدفعِه. وفوراً، وبشكلٍ مستغرب، بدلَ أن يبتعد، قاوم (جيهول) الضغط.

(135) كلمة لاتينية تعني بالضبط (الحصان) أيضاً (المترجم).

قال (تيوفان):

- هـل رأيتَ؟ من خلال هذه الحركة البسـيطة، هنالك حيلة فـي الحقيقـة، فقد حصلت منه على ما كنتُ أتمنى بالفعل: وهو ألا يفِـرّ مني، وأن يسـعى، علـى العكس، إلى التقـرُّب مني. أبعِدْ عنـك حصانك، سـتدفعه غريزتُـه لأن يُقبل عليـك. وهي غريـزة ترجع إلى الأزمنة السحيقة.

وكان (مانوليس) يهز رأسَه مراراً.

قال (تيوفان):

- فـي الحقيقـة، يشـبه ذلك ما في الحيـاة الغراميـة: اغْرُبْ عني، أَتْبَعْك، واتْبعْني، أَغْرُب عنك. إنها تقنية العشق القديمة.

- بالضبط!

ثم إن اليوناني حكّ رأسَه، وهو مرتبِك، وقال:

- القول سهلٌ، ولكن التطبيق..

فردّ (تيوفان) وهو يمتطي الحصان:

- صبراً، يا (مانوليس)، صبراً! وهنا يكمُن السر الحقيقي!

طرطَق الطبيب لسـانه، وقام بضغطة خفيفة من بطّة ساقيه علـى جنْبـي (جيهـول)، فانطلـق مصـدراً صهيلاً خفيفـاً فهمه (مانوليس) بأنه زفرة سعادة.

* * *

لـم تكـد السـاعة تبلـغ الثانية عشـرة والنصف عندمـا أنهى (تيوفـان) عياداتـه. وقد اجتاز عتبة نُـزُل (إيبيفانيا). وكان عليه تذكُّر أن يسأل (بيبا) عن سبب هذا الاسم الغريب.

وفي الأعالي، كانت السماء تميل إلى السواد. فمنذ العشية، شـكّل الهواء الحـارّ المتراكم سُـحُباً كثيفـةً كان بعضها يجري

ببطء فوق بعض، تدفعها يد غير مرئية. يكاد المرء يختنق. سيحدث بعد قليل التفجُّر المفيد.

رَكَن (تيوفان) دراجته إزاء جدار المدخل، وسار في الممر.

جَرَتْ (بيبا) نحوه قائلةً:

- دكتور (دبِّانه)!

وفي كل الأحوال، كان عليها أن تراقبه. وعند التراجع، رأى قامة (أنطونيا) جامدة على عُكّازيها.

- لقد تَمّ استدعاؤك. لأمر عاجل جدًا. هنالك سيِّدٌ يدعَى (ديمتري) يقول إنه يموت.

أظلم نظر (تيوفان). ولما كان على علمٍ بموقف صديقه الرافض إزاء الأطباء، أدرك أن الأمر جادّ.

قال:

- هل يمكنني استعمال الهاتف؟

ردَّتْ (بيبا):

- بالتأكيد. اتبَعْني!

أعلن (تيوفان) لـ (أنطونيا)، وهو يمر بها، قوله:

- لدي انطباع بأن موعد زيارتي لك قد ألغي.

سُمِع قصْفُ رَعْدٍ. لا تستطيع السماء سريعةُ الغضب أن تكبُتَ كُتَل الماء أكثَرَ. عندما أدخل (تيوفان) رقم صديقه، بدأت القطرات الأولى الرائعة من المطر تنزل.

صوتٌ، لا، كان هنالك رنين في الطرف الآخر من الخط.

قال (تيوفان):

- هيّا، يا (ديمتري)، ماذا جرى لك؟

- أسرِعْ.. أسرع، أيها الطبيب، لسوف أموت.. إنني..

- اهدَأْ. حاول أن تشرح لي.
- إنني.. إنني..
- ألو؟ (ديمتري)؟

انفصل الخط.

التفتَ الطبيبُ إلى (بيبا)، وقال:

- عليَّ أن أذهب.

دوَّى قصفُ رعدي آخر، أشد غضبًا من السابق، وفجأةً تحطَّم حاجـزُ السُّـحُـب. وأنار الضوءُ المـكان، في حـين إن أعاصير كانت تنصبّ على الجزيرة.

قدَّمتْ (بيبا) نصيحة لـ (تيوفان) قائلة:

- لا يمكنـك الذهـاب علـى دراجتـك، مع هذا المطـر المنهمر، فخُذْ سيارتي.
- سيارتك؟
- أجل، لقد أحضرتُها من (أثينا). إنها سـيارةٌ قديمة، ولكنها تسير. هيّا!

ثـم أخذتْ حزمةً من المفاتيح معلَّقة قرب باب المدخل وناولته إياها، وقالت له:

- إنها مركونة أمام الباب. وهي من نوع (فيات باندا)[136] Fiat Panda حمراء.

---

(136) فيـات: شـركة إيطاليـة لتصنيـع السـيارات أُسِّسـتْ سـنة 1899 فـي مدينـة (تورينو) Torino الإيطالية، وكان عدد مؤسسـيها ثلاثين، وبرأس مال قدره (800.000) ليرة إيطالية، تولى رئاسـة مجلس إدارتها سنة 1902 (جوفانِّي آنييلْي) Giovanni Agnelli الذي كان رجلاً ديناميكياً، أراد أن تتدارك إيطاليا الفتية - بعد توحُّدها - التخلف الصناعي في هذا المجال عن جارتيها (فرنسـا) و(إيطاليا)، وكانت فكرته تقوم على إنتاج سيارات شعبية تستخدم من أكبر عدد ممكن من الناس، وبأسـعار مناسبة. أما طراز (باندا) من (فيات) فقد تم تصنيعه في ثلاثة أجيال ما بين سنتي 1980 و2003 فقط. ولهذه الشركة تاريخ طويل ومتنوع إلى يومنا هذا (المترجم).

ثم إن صوت (أنطونيا) انطلق فوراً يقول:

- خذني معك!

نظر إليها (تيوفان) مرتبكاً وقال:

- أنتِ لستِ جادَّة.

- خذني!

لم يكن الأمر يتعلَّق بطلب، وإنما بالتماس. كانت الفتاة الشابة تترنح، وهي مستندة إلى عُكّازَيْها، ومنحنية إلى الأمام، وكأنها على حافةٍ هاويةٍ. لم يسعَ (تيوفان) إلى فهم ذلك، وقال بعدئذ:

- اتَّفقنا!

لم تجد الأم، التي دُهِشَتْ، شيئاً تقوله سوى:

- كن حذِراً، أرجوك.

- لا تقلقي، كل شيء سيسير على ما يُرام.

وخلع سترته الكتّانية وغطّى بها رأس (أنطونيا) وكتفيها.

على الرغم من حركة مَسَّاحات الزجاج المسعورة، فقد أُجهِدَتْ من إزالة المطر من واجهة السيارة. فكان المرء يرى من خلالها بصعوبة. وكان صوت عناصرها يصر، وكان (تيوفان) يقول في نفسه إن هذا الصوت يحتوي ربما على جواب عن تساؤلات الناس.

قال وعيناه مثبَّتتان على الطريق:

- مشهد رائع.

أيَّدت (أنطونيا) قوله برفَّةٍ من جفنيها، قائلة:

- هل شاهدتَ من قبلُ مثل هذه العاصفة؟

- لم أشاهد قطّ أعنف منها.

علَّقتْ بصوتٍ بعيدٍ، قائلةً:

- إنها القوى العمياء والتي لا تقهر في الحياة.

- أنتِ لن تُصدِّقي إن قلتُ لكأنني نسـيتُ أن أعطيك الحُقْنَة بسبب ذلك.

- لدينـا متَّسَعُ مـن الوقـت بعـد العاصفة. وهـي عموماً لن تطول.

- فـي هـذا الصبـاح، وأثناء نزهتـي مع (جيهـول)، كان الجو مشرقاً.

رَمَشَتْ وقالتْ:

- (جيهول)؟

- إنه حصاني.

- أنت تركب حصاناً؟ هنا؟

قال (نعم) برأسه. فقالت:

- لا يمكن القول إن المساحات الواسعة تتوافر في (باتموس)، لتتمكن من العَدْوِ لمدة طويلة.

- ليسـت هنالـك حاجة إلـى العَدْوِ كي يُحِسّ المـرء بالراحة. و(جيهول) يعتني بي تماماً بسَيْر الهوينَى أو السرعة.

- يعتني بك؟

- (جيهول) هو طبيبي.

- هل تسخَر مني؟ هل تنتقم ليوم أمس، صحيح؟

- الرحمـة! لا تبدئـي ثانيةً. أنا أخبـرك بالحقيقة، إن ركوب الحصان يريحني ويخفِّف من عصبيتي.

- الأنك عصبي؟

- مثلـك، ومثـل أغلبيـة النـاس. فبعضهـم يعتنـي بنفسـه، وآخرون يعملون في السياسة أو الفن.

ثم نظر إليها بطرف عينه.

- أنتِ ترين، يا (أنطونيا)، لنحذَرْ من المظاهر، فقد تكون حقيقية.

* * *

وجدا (ديمتري) راقداً على جنبه وقد ثنى ساقيه على بلاط الصالون، ووجهُه متغيّر من الوجع.

جثا (تيوفان) على ركبتيه قُربَه، وقال:

- هأنذا، يا صديقي. أين الألم؟

- في الظهر. إنني أحترِق. إنني..

ثم صاح:

- إنني أموتُ، أيها الطبيب، إنني أموت!

استفهم (تيوفان)، وهو يقيس النبض، قائلاً:

- هل كنتَ قد سقطتَ؟

- لا. لا.. عندما.. بدأ هذا.. وكنتُ مشغولاً بـ..

وأمسَك بذراع الطبيب مثل غريق، وقال:

- .. فقط كنتُ مشغولاً بالتبوُّل. و..

نقر (تيوفان) بأصابعه المنطقة القَطَنِية[137] منتزِعاً صرخة من الرجل التعس، ثم جَسَّ البطنَ. وسأل:

- هل زاد الألم؟

- لا. نعم! لا أدري. فالألم في كل مكان.

- أرجوك، كن أكثر تحديداً.

- في أصل الفخِذ، ولكن أيضاً في الوسط! سأموت!

(137) المنطقة القطنية: تتكونْ من خمس فقرات خالية من الأضلاع في أسفل العمود الفقري وتتصِل بالحوض مباشرة (المترجم).

- لن تموت. هل يمتد الوجعُ من أسفل الظهر، على مستوى المنطقة القَطَنية، إلى أصل الفخِذ؟ صحيح؟

قال (ديمتري) وهو يلهث:

- نعم، نعم.

تأمَّل (تيوفان) بضع ثوانٍ، ثم نهض. فقال (ديمتري):

- إلى أين تذهب؟ لا تتركني!

- لا شيء يثير الذُّعْر. أنا عائد.

وهو يجتاز الغرفة، لمح (أنطونيا) جالسة فوق كرسي موسّد ويداها تقبضان على ذراعي الكرسي. قالت:

- ما.. ماذا ستفعل؟

ردّ وهو يبتسم:

- معجزة.

وبعد بضع دقائق، ظهر ثانية في الصالون. وقال وهو يجثو على ركبتيه مرة أخرى قرب (ديمتري):

- يجب عليك أن تنهض. ولسوف أساعدك.

- أتريد موتي؟ أليس كذلك؟ أنهض؟ لسوف أستفرغ..

- يجب أن تفعل، يا (ديمتري)، هيّا!

- لا!

- إن كنتَ تريد تخفيف الملك فأطِعْ!

قام (تيوفان) بوضع ذراعه حول (ديمتري)، واستجمع قواه لمحاولة إنهاضه. ولكن عبثاً.

قال له:

- إنك تزِن طِنَّيْنِ! ولَكَمْ كنتُ أنصحُك بأن تخفف وزنك!

- توقَّفْ!

وبجهد خارق، ووجهٍ مُقَطِّبٍ، وعناء، نجح اليوناني في أن يبدأ بالوقوف. وقال:

- لسوف أموت، بسببك!

- خُذْ، اتَّكِئ عليَّ.

- إلى أين تأخذني؟

وجعٌ متحوِّلٌ انتزع منه صرخة جديدة. وأنَّ قائلاً:

- يا أمّي!

- تشجَّعْ! انتهى تقريباً.

في قاعة الاستحمام كانت تنطلق أبخرة الماء الحارّ. أجلس (تيوفان) صديقه على حافة حوض الحمَّام وساعده في خلع ثيابه. وبعد أن اطمأنَّ إلى أن درجة الحرارة أصبحت حارَّة بما يكفي، قال له:

- ادخل في الحوض!

كان (ديمتري) على وشك أن يقاوم، لكنه نفَّذ الأمر بإذعان.

- والآن، استَرْخِ. تنفَّسْ. استَرْخِ..

- الماء يغلي!

- لسوف تتعوَّد. تنفَّسْ بعمقٍ.

أغلق اليوناني عينيه.

ومرَّتْ دقائق طويلة. وشيئاً فشيئاً أصبح التنفُّسُ أكثر انتظاماً، واسترخت ملامح وجهه.

- هل أنت أحسن؟

حَنَى (ديمتري) رأسه بهدوء. بهدوء متناهٍ، وكأنه كان يخشى أن توقظ حركة مباغتةُ الوجع. وأخيراً، وبعد ربع ساعة، كان يبدو أكثر صفاء. وفي الخارج، كفَّ المطرُ عن الهطول وابتعدت العاصفة.

صَبَر (تيوفان) أيضاً بضع دقائق، ثم قال:

- هذا جيِّد. يمكنك الخروج.

- ما زلت أتألم.

- طبيعي. ولسوف أعطيك مضاداً للتشَنُّج. ارتدِ شملةَ الحمّام واذهب وتمدَّد.

- هل يمكنك أن تشرح ما حصل لي؟

- لقد وَلَدْتَ.

- ماذا؟

- أنا أمزح. لقد عانيتَ من أزمةِ مغصٍ كُلْوِيّ. وهي تُشَبَّه فِعلاً آلام الولادة.

- هكذا؟ ودفعة واحدة؟

- عندما تتبوَّل، هنالك حَصَاةٌ متموضِعة في الحالب وتتحرَّك تحت الضغط، وعندما تحاول شق طريق لنفسها، فإنها تحتكُّ بجدار تلك القناة.

- اللعنة! وحتى متى سوف أحتفظ بها.. هذه الصخرة؟

أخذ الطبيبُ بذراع (ديمتري) وسحبه نحو الصالون، وقال:

- ليس وقتاً طويلاً. وإنْ لم تُعَقِّدني، فسينتهي الأمر بطرحها. سأُحضِر لك هذا المساء بعض مضادات الالتهاب. وبانتظار ذلك، ستبقَى هادئاً تماماً. موافق؟

فتح اليوناني فمه ليجيب وعندها أدرك وجود (أنطونيا)، فقال:

- ما.. مَنْ هذه؟

قال (تيوفان):

- أقدِّم لك (أنطونيا فاسِّيلي)، ابنةَ السيدة (فاسِّيلي)، المالكةِ الجديدة للنُّزُل الواقع أسفل القلعة.

قال (ديمتري) وهو يدس يداً واهنة في يد الفتاة الشابة:

- تَشرَّفْنا.

تناول (تيوفان) كبسولة مضادة للتشَنُّج من حقيبته الجلدية، وقال:

- تمدَّدْ. لسوف أحضر لك كأس ماء.

تكلَّف اليوناني ابتسامةً للمرأة الشابة وانسحب إلى غرفة نومه.

* * *

عندما أقلع الطبيب بالسيارة، اعتذر قائلاً:

- آسف إن كنتُ قد فرضتُ عليك هذا المشهد.

- لا تعتذر. فالتجرِبةُ كانت تستَحِقُّ أن تُعاشَ. إلى أين نذهب؟

- ما رأيكِ في الذهاب إلى (غريكوس) Grikos؟

- لا يمكنني أن أجيبك. فنحن هنا منذ أكثر من عشرين يوماً ولم أضع أنفي خارجاً[138].

- إنها قرية صغيرة للصيادين، ساحرة جداً.

- كما تشاء.

فابتسم، وقال:

- هل كان ذلك سببَ إصرارك على أن أصحبكِ؟

- ماذا تعني؟

- أنتِ لم تخرجي منذ وصولك إلى الجزيرة. وأنا أستخلص من ذلك إذن أن الرغبة قد أصبحت لا تقهر.

(138) كناية عن عدم الخروج خارج المنزل لمعرفة الأماكن والناس (المترجم).

- آ.. نعم، بلا شك. في الحقيقة، لا أعلم شيئاً عن ذلك. ولا أدري ما اجتذبني.

ثم غيَّرتِ الموضوع، سائلة:

- هل يعيش صديقك وحده؟

- نعم. ولكن لم تكن حاله دوماً كذلك. فقد كان متزوِّجاً. وذات صباحٍ، عند العودة من الكَرْم، وجد المنزِل فارغاً. كانت قد غادرته.

- من أجل رجلٍ آخر كما هو واضح.

- لا. وإنما من أجل نفسها. لقد كانت تقول إنها قد اختنقت، وإنها قد ذَوِيَتْ على هذه الجزيرة، وهي تمضي أيامها تعمَل في الكرم. ومن ثَمَّ تفاقمت أحوالها النفسية عندما اكتشفت أن (ديمتري) لم يكن بمقدوره إنجابُ أطفال. وكان هذا على وجه الاحتمال العنصر الحاسم. ولم تكن تستطيع أن تتصوَّر أن تواصل حياتها معه رأساً لرأس.

قالت (أنطونيا):

- إنني أتفهَّمها. هنالك أنواع كثيرة من السجون، والحياة الزوجية واحد منها.

أخذ (تيوفان) يضحك، وقال:

- ماذا تعرفين عن ذلك؟ فأنا أتصوَّر أنك لم تعيشي قطّ مع شخص.

فرمتْه بنظرةٍ تقدَح شرَراً، قائلة:

- أنت حقاً غبِيّ.

ضربتْ فخذيها الهامدين، وقالت:

- إنه بسبب هذا.

- على الإطلاق، إنني..

- بلـى! تحمَّـلْ! إنك تعتقد أن أحداً لا يمكن أن يحسّ برغبة في معاقةٍ! إنها بلا قيمة، ويصبح مجرَّد وجودها إهانة في عيون الآخرين. اعترف بذلك أيها الطبيب!

- اسمعي، يا (أنطونيا)، ليس هذا مطلقاً ما..

- إذًا، لماذا هذا التأكيد؟ أجبْ.

تلعثـم (تيوفـان)، وقد اضطـرب من العدوانيـة الحاصلة من الفتاة الشابة، فقال:

- هذا.. كنتُ أفترِض..

همّت (أنطونيا) بفتح باب السيارة، وقالت:

- أوقف السيارة!

- اهدئي! هذا غير معقول! لا يمكنك النزول هنا!

- إذن، أوصلني إلى البيت! لقد اقترفتُ خطأ بالخروج معك. وأنا أرى بحق أنك لا شيء!

- هذا يكفي!

لم تكفَّ (أنطونيا) وقالت:

- خلال لحظة، واحدة فقط، تصوَّرتُك مختلفاً عن الآخرين.

ثم قالت بقوة:

- أنتَ لا شيء!

أوقف (تيوفان) السيارة بقسوة، وأطفأ المحرِّك، وصرخ هائجاً:

- تبـاً لـكِ! مَنْ تحسَـبين نفسَـكِ؟ هـل تتصوَّرين أن كل شـيء مسـموحٌ به لـكِ بسـبب إعاقتكِ؟ وأن علـى النـاس أن يجثوا على ركَبِهم أمام أعضائكِ التعيسـةَ ويلتمسوا العفو؟ لا، يا (أنطونيا)! أنتَ مخطئة تماماً.

- اخرَسْ!

- لا بـأس! اسـمعيني للآخِـر! اذكـري جيـداً هـذا: أطفـال الضحايـا لا يتمتعـون بأي حـق، وليس عليهم سـوى الواجبات. هـل تعلمـين مِمَّن أخذتُ هـذه الجملة؟ لقد أخذتهـا من يهوديٍّ عجوز ناجٍ من معسـكرات الاعتقال. إنك ابنةُ نفسِكِ! نعم، أعلم، الوضع غير مريح، ولكن هكذا هو.

- اخرَسْ!

- وبقـدر ما تقضين بقيـة حياتِك تتأمَّلين وضعَـكِ البائسَ، بقدر ما تقرِّرين طرحَ نظرتك على الآخرين.

وضعت يديها على أذنيها، وقالت:

- إنني لا أسمعك!

- ولكنك تسمعينني!

أخذ نفساً عميقاً، وقال:

- عزيزتي (أنطونيا)، الإنسـانية جُرحٌ حيّ وكل الناس الذين يكوِّنونهـا ينزِفـون بطريقتهم. صدقيني، أنا أعرف عن أي شـيء أتحدَّث.

وخلص إلى القول بنفثَة:

- هأنذا، ومنذ ثلاث سنوات، لم أتوقَّف عن النزف.

وساد الصمت. وأرخت قبضتها وبقيت صامتةً إلى أن انتزعهما من صمتهما صوت منبّه سيارة.

رفع (تيوفان) عينيه نحو المرآة العاكسـة فرأى شاحنة صغيرة كان قـد نفِـد صبرُهـا. وعندمـا أدار مفتـاحَ التشـغيل، سـألت (أنطونيا):

- هل قرية (غريكوس) بعيدةٌ من هنا؟

(8)

كانـت السُّـحُبُ الأخيـرة تحـاول أن تقـاوم ضربـات الشـمس العنيفـة المنبعثـة. هنالـك مسـاحات مـن السـماء تتلـوَّن بأكملهـا باللـون الأزرق، وقريـة (غريكـوس) تَعْبَـق برائحـة نبـات الزعتر. وقبل بضع دقائق، وعلى بُعْد كيلو متر من القرية، سدَّ قطيع من الخِراف عليهما الطريق. وبينما عبرتْه الحيوانات ببطء، اقترب الراعي العجـوز، متوكِّئاً على عصاه، من السـيارة، وطلـب إلـى (تيوفـانَ) بطريقـة هي الأكثـر طبيعية فـي العالم، قائلاً:

- Ena tsigaro ، se parakola[139].

فقدَّم له الطبيب واحدة. وبدلاً من أن يشعلها، وضعها الراعي في جيب قميصه، فسأله (تيوفان):

- لِمَ لا تُدخِّنها؟

- إني أحتفظ بها ليوم الأحد.

وبينمـا هما ينطلقان، أبدت (أنطونيا) ملاحظة وبشـيء من السخرية، قائلة:

(139) قـال الراعي طلبه هذا باليونانية، وكتب المؤلِّف نطقـه بالحروف اللاتينية المثبتة، وكتب بعده ترجمته الفرنسـية التي تعني بالعربية: (سـيكارةً، من فضلك)، وهذا الطلب باليونانية هو (σαςπαρακολαοράτσιγανέ،) (المترجم).

- مـن المؤسِـف أن أحداً مـن (تكنوقراطِيِّينا)[140] لم يشـاهد هذا المنظر. ولو شـاهده لربما دخل قليل من الإنسانية في عقله المبرمج. إنني أحلُم بلا شك.

أيَّد (تيوفان) ذلك قائلاً:

- فعلاً، أنت تحلُمين. إن هذا المنظر يذكِّرني من ناحية أخرى بطُرفة قديمة: فذاتَ يوم، كهذا اليوم، وجَدَتْ سيارةٌ وراكبُها هما أيضاً قطيعَ أغنام يسدّ عليهما الطريق، مع فارق وحيد هو أن ذلـك القطيـع كان يتقدّمه كلبٌ. والراعـي، الذي لم يكن يبالي باحتجاجات السائق، حجز أغنامه في مرج. فاتَّبَعَه السائق، وهو خـارجٌ عن طـوره، وانتهر الراعي قائلاً: «لقد فوَّتَّ عليّ موعداً ذا أهمية قصوى بغلطتك. وأيضاً أَقْترِح عليك أمراً: أعطني أبعادَ مرجـك وسـوف أذكر لك بدقـة متناهية كم خروفـاً تملك. فإن عرفتُ، فسـوف آخذ واحداً من أغنامـك بصفة تعويض». وعلى الرغـم من كون الراعـي مرتاباً، فقد لبّى طلبـه. وحينئذٍ أخرج الرجل آلة حاسـبة، وأخذ يضغط أزرارها بقوة، وأعلن بغطرسة أن عـدد الخـراف «اثنان وخمسـون». وقـد أقر الراعي المسـكين، وهـو مذهـول، بهزيمتـه، وأشـار إلـى القطيـع، قائـلاً: «موافق، تصرَّف!». وهكذا تصرَّف الرجل، وانطلق منتصراً نحو السيارة. وفـي الحال، لحِق به الراعي وربَـتَ على كتفه وسـأله: «قلْ لي، يا سـيِّدي، السـتَ واحداً من هؤلاء (التكنوقراطيين) اللامعين الذيـن يحكموننـا؟». ارتبك الرجـل، وأيَّد قولـه، ودُهِش بدوره، فسـأله: «كيـف عرفتَ ذلـك؟»، فابتسـم الراعي وأجـاب بقوله: «لأنك إنما أخذت الكلبَ!».

(140) التكنوقراطي: المسؤول المهتم بالجوانب التقنية من الأشياء (المترجم).

وعلى فم (أنطونيا)، ووَرْد الشفاه، ظهرت ابتسامة، وهي تقول:

- تعاسَةَ الشعوب تلخصت في بضع كلمات.

* * *

فيما عدا رجلين كانا يلعبان الورق، كان المطعم - المقهى خالياً. فأخذ (تيوفان) و(أنطونيا) طاولة في زاوية منعزلة، في مأمن من الريح.

رسا زورق صغير على الشاطئ. ونزل منه زوجان في العشرينات من العمر، وهما يضحكان بصوت عالٍ. إنهما سائحان بالتأكيد. كان جلدهما فاتحاً جداً، وليسا من سكان الجزيرة.

سألت (انطونيا) فجأة:

- هل تأتي إلى هنا كثيراً؟

- أحياناً. إنني أحب هذا المكان. وحسب المتاح بالتأكيد.

خيَّم الصمت.

طلب (تيوفان) كأسَيْ شراب، وحينئذٍ قالت (أنطونيا):

- لقد كنتَ مخطئاً.

- مخطئاً؟

- نعم، كنتَ مخطئاً حين تركتَ نفسَك تفهم أنني كنتُ أسعى فقط إلى الخلاص. والسبب شيءٌ آخر. لقد سمعتُك أمسِ مساءً عندما كنتَ تتناقش مع أمي و(الباشا). فقد تحدَّثتَ عن البصمات التي يزيلها الزمان أو التي يجدها المرء وقد تَلِفَتْ. وضربتَ لذلك مثلاً من تلك المرأة المحبوبة والمفقودة التي ظهرت ثانيةً بعد سنين.

قال (تيوفان) مبدياً رأيه:

- أعترف بأنني لم أكن أتصوَّرِك..

- صريحةَ جداً؟

- بل قلقةَ جداً. لقد كانت كلماتُك تشبه الكلمات التي تلازمِ الليالي التي قضَّيْتُها، والتي أقضيها في سؤال نفسي: «مَنْ أنا؟». تلك الليالي التي أنام فيها وأنا أدعو ألا أستيقظ منها.

وهمَّ بالجواب، ولكنها أوقفتْه فجأةً بإشارة من يدها، قائلةً:

- لا! لا تقلْ شيئاً. لسوف أكون صريحة معك. إن واحداً من تأكيداتكَ لا تزال تعاودني.

شربَتْ جُرعةً من الشراب بطرَف شفتيها، وقالت:

- هل كنتَ جادّاً وأنت تؤكِّد قُدرتَكَ على فَكِّ رموز أسرار قلبي؟

فأكَّد لها ذلك بقوله:

- تماماً. إنني أسمعكِ.

- إنها شائعات.

- شائعات؟

- فقط أنت لم تكن تعرف من قبلُ: شعوراً بالظلم، والغضب، والحقد الذي يَنْهشُكَ، ويشوِّه عظامَكَ ويحطّمها أيضاً بالتأكيد.

ردَّ قائلاً:

- اعذريني. إن الأمر يتعلَّق بمرضِ لين العظام.

- إنني أتحطَّم إذًا.

- بصورة ما، نعم. وفي كل يومِ أكثرَ قليلاً.

- هذا كلُّ شيء؟

- يستشفُّ المرء أيضاً إرادةً حديدية مكتومة واستعداداً واسعاً للعطاء. هو أيضاً محبوس.

- الحقُّ معكَ تماماً فيما يتعلَّق بغضبي الداخلي. ويقع الخطأ على هذا الجسد الذي أجرجره. ولا حاجة إلى أن يكون

المرء وسيطاً روحياً أو طبيباً لبيان ذلك عنه. وفي المقابل، البقية.. فأنا لم تُتَح لي الفرصة لأن أعطي أحداً ما ينبغي، ولا يمكنني أن أحكم على قُدُراتي في هذا المجال.

- في سن السادسة والعشرين. الحياة..

- الرحمة! لا تعرض لي العبارات الجاهزة (الكليشيهات) غير المعقولة التي تُقال على الناس في مثل عمري كما يُقَدِّم المرء رَبتَةَ مودة لكلبه. أيُّ حياة؟ في أي شيء يفيدك الطريق، ما دُمْتَ تُحتَضَر، وكنتَ متسمِّراً في مكانك؟ إنَّ «الصَّلْصَالُ لا يصبح صالحاً لصنع تمثالٍ إلا بعد أن يُعجَن»، هذا مثل يونانيّ قديم. إنكَ تفترض أن صانعي الفَخَّار يهربون، في مثل حالتي.

أشار (تيوفان) إلى كأسها الفارغة، وقال:

- كأساً أخرى؟

- نعم.

حدَّقتْ (أنطونيا) فيه بفضول، وقالت:

- قل لي، يا دكتور (دِبَانه). مَنْ أنتَ؟

فأطلق ضحكة مُتكَلَّفة، وقال:

- أنا الدكتور (تيوفان دِبّانه). لاجئ طواعيةً إلى جزيرة في الـ (دوديكانيز)[141] Dodécanèse منذ ثلاث سنوات.

- أظن أنني فهمتُ أنك كنتَ متزوِّجاً وأنك انفصلتَ، لماذا؟ إنني فُضولية؟

- فضولية، بالتأكيد.

- هل خُنتَها؟

(141) الدوديكانيز: اسم يطلق في الفرنسية على أرخبيل الجزر اليونانية في بحر (إيجة) الذي يشكل جزءاً من البحر الأبيض المتوسط بين تركيا واليونان (المترجم).

- ليس هذا هو سببَ رحيلها.

- إذًا؟

* * *

(نوبة تذكُّر)[142].

- وَغْـدٌ! أنتَ وغدٌ، يا (تيوفان)! وغدٌ ومريض. مـريضٌ بالغرور، مريض بالغطرسة التي لا حدَّ لها! لقد دمَّرْتَ حياتنا. إنكَ وَحْشٌ.

- اسمعيني، أتوسَّل إليك، الرحمةَ، اسمعيني..

- لا! لا أريـد أن أسـمع شـيئاً أكثـر. إنـي راحلة. سـأترك لك كلَّ شـيء. مالَك وبيوتَك، كلَّ شيء! والشيءُ الوحيد الذي أتمناه لـك، هـو أن تموت، على نارٍ هادئة. ببـطء. وإذا ما اعترضت يوماً طريقي، فعندئذٍ أنا التي ستقتلك.

* * *

- دكتور (دِبّانه)!

جفناه ارتعشت، وقال:

- اعذريني. ماذا قلت؟

- لا شيء. إنني بالتأكيد فضولية.

أمعَنَت النظر فيه لحظة، ثم قالت:

- هل تعلم بمَنْ تُذكِّرني؟

- أسمعك.

- بـ (أوريست)[143] Oreste.

(142) ما بين القوسين زيادة من عندنا لبيان السياق الذي جرى بينه وبين زوجته قبل أن ترحل عنه وتغادر منزلهما (المترجم).

(143) في الأساطير اليونانية القديمة، ذكر في (الإلياذة) l'Iliade ان (كليتَمْنِسْتر) Clytemnestre زوجة (اغاممْنون) Agamemnon، قائـد اليونانيين خلال حرب (طَروادة) Troie، قامت بقتله من أجل عشيقها، فقامت ابنتُها (إليكترا) Électre بتحريض أخيها (أوريست) على قتل أمهما هذه انتقاماً لأبيهما (المترجم).

- (أوريست)..

- لقد كان الابنَ الأخير لـ (أغامِمْنون) و(كليْتِمْنِسْتر). ولم يكن سوى فتىً مراهقٍ عندما قتلت أباه، وهو عائد من حرب (طروادة)، (كليْتِمْنِسْتر) و(إيجيست) Égisthe عشيقُها. وعندما بلغ (أوريست) سنَّ الرشد، وبناء على نصائح (أبولون)[144] Apollon، قرَّر الثأر لمقتل أبيه[145]. فعاد سراً إلى (ميسين) Mycènes [146]، وقتل (كليْتِمْنِسْتر) و(إيجيست).

أشار (تيوفان) إلى النادل ليقدِّم لهما خدمةً مرة ثانية، وقال:

- شيء مثير للاهتمام. غير أنني لم أقتل لا أمي ولا عشيقَها.

- صبراً، لسوف أجدك في بقية القصة. أصاب القتلُ المزدوج، الذي اقترفه (أوريست)، الآلهةَ بالرعب، وحينئذٍ قررت أن تعاقبه، فأرسلته إلى الـ (إيرينيات) lesÉrinyes..

- الـ (إيرينيات)؟

- إنهن ربات الانتقام. وهن لا يعرفن سوى قانونهنَّ الخاصِّ ويعاقِبْنَ مَنْ يَخْرِقُه.

- آ..

- وهن يَظْهَرنَ ليلاً ويختفِينَ عند الفجر. ويا لَتعاسةِ مَنْ يقع تحت مخالبِهِنَّ. ولما كان ملاحقاً بلا انقطاع، وقد أصبح فريسةً لنوباتِ جنونٍ عابرةٍ، حاول المسكين (أوريست) أن يهرب

(144) أبولّون: هو في الأساطير اليونانية القديمة إله النور والموسيقى والشعر (المترجم).

(145) نلاحظ هنا اختلافاً صريحاً فيمن حرَّض (أوريست) على الثأر لمقتل أبيه ما بين أخت (أوريست) و(أبولون) (المترجم).

(146) ميسين: مدينة قديمة في اليونان، كانت أول مركز للحضارة الهلّينية التي تدعى (الحضارة الميسينيّة) (المترجم).

منهُنَّ: إلى (أثينـا) Athènes[147]، إلى (دِلْف) Delphes[148]، وحتى أيضاً إلى..

أرسلت نظراتها إلى عيني (تيوفان) وأعلنت قائلة:

- إلى (باتموس).

مدَّ (تيوفان) ساقيه وهو يسند رأسَه إلى الحائط. وتفاجأتْ هي بمشاهدة كم انقبضت ملامحُ وجهِه فجأة. وقد ردّ عليها بلهجةِ عدم اكتراثٍ قائلاً:

- إنَ قِصَّتك ممتِعَة. ولسوف أتذكَّرها. وهذا التعِسُ (أوريست)، كيف انتهى به الأمر؟

- بناءً على نصائح (أبولُّون)، المحرِّض على القتل المزدوج، عاد إلى (أثينا) واستسلم لحكم الـ (آريوباج)[149] l'Aréopage. وأجريت محاكمة كان (أبولّون) يتولّى فيها دور المدافع. وفي مرافعةٍ رائعة، أنكر تهمة قتل الأم وذلك بجحده على الأم، في مثل حالة (كليْتِمْنِسْتر)، أيَّ أهمية. وأعلن أن أيَّ أمٍّ لا تمثّل شيئاً آخر سوى ثَلْمٍ يلقي فيه الزوج بَذْرتَه، وأن عمل (أوريست) يبدو مسوَّغاً تماماً، فالأبُ هو القريب الوحيد الجدير بهذا الاسم. ثم حوَّل الأمر إلى التصويت الذي أعطى عدداً متساوياً مع الحكم وضده. وحينئذٍ تدخَّلَتْ الإلهةُ (أثينا) Athéna[150]، وصوَّتتْ لصالح (أوريست)، فتمَّتْ تبرئتُه.

- إن الفداء ممكِنٌ دوماً إذًا.

---

(147) أثينا: مدينة من المدن الشهيرة في اليونان القديمة، واتُّخِذتْ عاصمة لها في العصر الحديث (المترجم).

(148) دلف: مدينة في اليونان القديمة (المترجم).

(149) الآريوباج: في اللغة الكلاسية تعني (محكمة أثينا العليا) (المترجم).

(150) أثينا: هي في الأساطير اليونانية القديمة إلهة الحق والفنون والعلوم (المترجم).

- نعم. ولكن يتعيَّن أيضاً أن تكون هنالك إلهةٌ إلى جانبِك.

- جيد جداً. إني اقترح عليك ميثاقاً. أنتِ تلعبين دور (أثينا) وأنا دور صانع الفَخَّار. ما رأيك في ذلك؟

رأتْه يبتسم، فقالت:

- لسوف أفكِّر. وَ..

ثم ندَّتْ عنها صرخة بسيطة وهي تقول:

- أليسَ هذا صحيحاً! يا (أليكسيس)؟

رافق نظر (تيوفان) نظر الفتاة الشابة. كان أخو (أنطونيا) يمشي بمحاذاة الشاطئ، بصحبة طفل آخر وامرأة. ويمسك بيده نظارة غوص.

صاحتْ (أنطونيا):

- (أليكسيس)!

التفتَ الفتى، وصاح:

- (طونيا)!

ثم ركض نحوها، وارتمى بين ذراعيها، فقالتْ له:

- ماذا تصنع هنا؟

- إنني مع (ميخاليس) وأمِّه. لسوف نسبح.

- والمدرسة؟

نظر إليها بازدراء، وقال:

- أنتِ حقاً تسبحين في القمر. نحن في يوم السبت.

ثم التفتَ إلى (تيوفان)، وقال:

- نهارك سعيد، يا دكتور، أنت بخير؟

- نعم، يا سيِّد (أليكسيس). جيد جداً.

ثم لمس نظارة الغوص، وقال:

- أليس معك قصبةٌ للتنفس تحت الماء؟

- آ.. لا! الأمرُ سهل جداً! وهي لا تساعد في السباحة على السطح.

أوصتْه (أنطونيا) بقولها:

- ومع ذلك كن حذِراً. فالحادثة تقع بسرعة.

رفع الفتى عينيه نحو السماء. فقالت (أنطونيا):

- لَكَمْ توتِّرُني أنتَ!

أشهد الفتى الطبيبَ، قائلاً:

- هل أنا أُوَتِّر؟ حسناً، أنا ذاهب! إلى هذا المساء!

قال (تيوفان) بينما كان (أليكسيس) يبتعد:

- إنه فتى طيِّبٌ غريبُ الأطوار.

- إنه فتى طيِّب متهوِّر، كي لا أقول غيرُ واعٍ.

- بدوري سأظهر فضولياً: هل كنتِ تحافظين على صلةٍ مع أبيك؟

- (أليكسيس) وأنا لسنا من أب واحد. فقد فقدتُ أبي وأنا في الثامنة من عمري.

- وأبو (أليكسيس)؟

- إنه شخص سافلٌ. فمنذ أن علم أن أمي كانت تنتظر طفلاً منه، أطلَق هذا الرجل ساقيه للريح[151].

- هذا ليس مهذبًا بالمرة.

- لا تُسِئ فهمَ الكلام، فكلمة مهذّب نادراً ما تنتمي إلى مفردات الرجال. ومن غير أن نتطرَّق لواحدة من نصيرات

(151) ترجمة الكناية الفرنسية الأصلية في المتن حرفياً تقول (أخذ ساقيه بعنقه)، كناية عن هروبه، وهي عبارة لا تناسب الذوق الكنائي العربي، فأثبتنا كنايتنا الأجمل مقابلها (المترجم).

الحركة النسائية اللواتي لا يملكن، طوال الوقت، شيئاً من أنوثة المرأة، فإني أجد النساء أنبل من الرجال.

كان (تيوفان) حذراً من أن يعارضها. إضافة إلى أنها لم تكن مخطئة.

تابعت تقول:

- إنني لا أحبُّ الخِسَّة. إن هؤلاء الأشخاص الذين يصنعون أطفالاً كما تُصنع القوالب من الرمل، ثم هم لا يبالون بأن يعلموا أنهم لدى رحيلهم ذات مرَّةٍ، ستدمِّر أوّلُ موجةٍ ما عملوا، لا يستحقون منا أن نشتاق إليهم.

بقي (تيوفان) في هيئة المتأمِّل. ظاهرياً، كانت مسيرة (بيبا فاسِّيلي) ترتبط بالحيوات الصاخبة.

استأنفتْ (أنطونيا) قائلة:

- ولحسن الحظ، جاء (الباشا). وقد نصَّب نفسه أباً، على خلاف والد (أليكسيس)، أباً حقيقياً، بقلب كبيرٍ. ولهذا بلا شك منحتْه أمي لقب (باشا)[152] pacha. ولم يكن الرجل يلعب بالمال فحسب، وإنما كان يبدي كرماً لا يُصَدَّق. لقد كان فرصة سانحة لنا جميعاً، علماً أن الرجال الكرماء كانوا، في أغلب الأوقات، يفتقرون إلى المال، والرجال الذين يحصلون عليه كانوا يفتقرون إلى الكرم.

ثم إنها تفحَّصتْ (تيوفان) سائلةً إياه:

(152) واضح أن هذا اللقب ينتمي في اليونان إلى الحقبة التي سيطر فيها العثمانيون على معظم هذا البلد من القرن 14 إلى مطلع الثلاثينيات من القرن 19، حيث تم الاستقلال بعد تحطم الأسطولين البحريين العثماني والمصري نهائياً في معركة (نافارين) Navarin البحرية سنة 1827، على يد ثلاثة أساطيل فرنسية وبريطانية وروسية معاً، ويدل لقب الباشا هنا أيضاً على الصورة المشرقة في أذهان اليونانيين لمن كان يحمله (المترجم).

- وأنتَ، يا دكتور (دِبَّانِه)، إلى أي الصنفين تنتمي؟

- لقد طرحتُ هذا السؤال على نفسي وأنا أصغي إليك. وأجهل ذلك. وأظنّ ببساطةٍ أنني قد أكون نسيت، وقد طغتْ عليَّ الأولويات التي لم تكن كذلك، أن أعطيَ الآخرين.

ثم إنه طلب ورقة الحساب.

وانتشر على وجهه شحوبٌ مفاجئ.

سألتْه (أنطونيا) قلقةً:

- هل أنت بخير؟

فنهض مترنِّحاً تقريباً.

- إنه الحر. لا شيءَ خطيرٌ.

فقط في السيارة تمتم قائلاً:

- ماذا كانت ربات الجحيم تُسَمَّى؟

- الـ (إيرينيات). لماذا؟

- الـ (إيرينيات).

أغمض (تيوفان) عينيه لحظة واعتقد أنه يرى أرضاً قاحلةً مليئة بالأحطاب التي كانت تحترق في الليل، وأن هنالك جثّةً مطروحة فوقها.

(9)

كانـت الشـمسُ تنحـدر نحـو الأفـق وشـطَر الضـوءُ المشـهدَ شـطرين: أزرقَ ووردياً. وكانت الجزيرة مسـترخية. وكانت هنالك رائحة نفّاذة - عذبة تداعب الأنوف. سـار (جيهول) بجانب قرية صغيـرة محاطةٍ ببعض أشـجارِ الزيتون المُعَمَّـرَة، وكان هنالك عجـوز، مسـتقيم القامة مثل سَـرْوةٍ، عينُه مُسَـمَّرةٌ على البحر. وكانـت هنالك امرأةٌ ترتدي السـواد وتجلس على عتبة منزل ذي جدرانٍ مطلية بكلْسٍ خشِـنٍ، وركبتاها مرفوعتان، تطرِّز نسـيجاً مبسوطًا على طَبْل. وكانت هنالك أيضاً كنيسة تبرز بوضوح على قمـة تـلٍ، وهي واحدة من ثلاثمئة كنيسـة تنتشـر علـى الجزيـرة المقدَّسـة. وهنا، كما في اليونان كلِّها، يصَلِّي المرءُ، ويركع، ويؤمِن - في الوقت نفسه - بالأساطير.

فـوق رمـال (إيتـاك)[153] Ithaque، كـان (أُوليس)[154] Ulysse يبكي (بينيلوب)[155] Pénélope دائماً.

---

(153) واحـدة من جزرالخليـج اليونيّ بين إيطاليـا واليونان، وهي موطن البطل الأسـطوري (أُوليس) في ملحمة (الأوديسَّة) l'Odyssée لهوميروس (المترجم).

(154) أوليـس: ويُدْعَى في اليونانية (أودوسُّـوس) Odusseus، وهو ملك أسـطوري لجزيرة (إيتـاك)، وكانت (بينيلوب) زوجته، ولـه منها ابن هو (تيليمـاك) Télémaque، وقد روى لنا هوميروس مغامراته في (الإلياذة) و(الأوديسَّة) (المترجم).

(155) بينيلوب: زوجة (أوليس)، وهي مثال الإخلاص الزوجي (المترجم).

وفـــي (ســـكيروس)[156] Skyros يتـــأهَّب (آخيـل)[157] Achille للإبحـار إلــى (طــروادة)[158] Troie. والـ (ســيكلوب)[159] Cyclope يُهَوِّم في كهف من كهوف (جيورا)[160] Gioura. وفي (كريــت)[161] Crête، صنع (ديدال)[162] Dédale لـ (إيكار) Icare (163) جناحين من شمع من تصميم يديه ليسمح له بأن يهـرب(164)، وقال يوصيه: «تنبَّه، يا بُنَيَّ، وابقَ على مســافة من الشــمس». لكنَّ (إيكار)، المجنون بالغطرسة، والنشوان بالطيران، سينســى هذا النهيَ وســيتحطَّم في البحر. وفي بعض الأماسي، يحلِـف لك صيادون بأن صرخة (إيكار) لا تزال تتردَّد في البحر. فهنالك أساطير ودين. ربٌّ و(زيوس)[165].

سأل (تيمور) الذي كان يركب رديفاً خلف أبيه:

---

(156) سكيروس: جزيرة يونانية في الجهة الغربية من بحر (إيجة) (المترجم).

(157) آخيل: هو بطل الإلياذة، وقاهر (هكتور) في حرب طروادة (المترجم).

(158) طروادة: وتدعى أيضاً (إيليون) Ilion، وهي مدينة قديمة في آســيا الصغرى، مطلَّة على بحر (إيجة)، تروي (الإلياذة) أن اليونانيين حاصروها عشــر ســنوات حتى فتحوها، إثر خدعة (حصان طروادة) الشهير (المترجم).

(159) الســيكلوب: فــي الأســاطير اليونانية القديمة عمــلاقٌ بعين واحدة في وســط الجبهة (المترجم).

(160) جيورا: جزيرة يونانية في غربي بحر (إيجة) (المترجم).

(161) كريــت: جزيرة يونانية في البحر المتوســط، مســاحتها (8.331 كم2)، وســكانها اليوم (600.000) نسمة، وعاصمتها (هيراكليون) Héraklion (المترجم).

(162) ديدال: في الأســاطير اليونانية القديمة هو والد (إيكار)، والمهندس المعماري الذي ابتنى (متاهة كريت) (المترجم).

(163) إيكار: هو ابن (دِيدال) الذي صنع له جناحين من شمع، ليفرَّ من (المتاهة)، وقد أذابتهما الشمس حين حلَّق قريباً منها، فسقط في البحر وتحطَّم (المترجم).

(164) الهروب هنا من (متاهة كريت) التي ابتناها والده (ديدال)، وبمساعدة منه (المترجم).

(165) زيوس: هو كبير آلهة اليونان، كما مر بنا من قبل، ويقابله في الأساطير الرومانية القديمة كبير الآلهة (جوبيتر)، والمؤلِّف يشــير في آخــر هذه الفقرة إلى التعايش بين هاتين الازدواجيتين في وجدان اليونانيين في العصر الراهن: فهم يؤمنون بأســاطيرهم إلى جانب الدين النصراني، ويؤمنون بالله إلى جانب اعتقادهم بـ (زيوس)، وهذا ما يجعل ثقافتهم متميِّزة من ثقافات غيرهم (المترجم).

- هل حال (ديمتري) أحسن؟

- أحسن بكثير. وهنالك خبر عظيم، وهو أنه سيبدأ بتطبيق نظام غذائي (ريجيم). فقد جعلتُه يعتقد بأنه إنْ لم يخسَر على الأقل عشرةَ كيلوغرامات من وزنه، فلسوف تنتهي أزماتُ المغص الكُلْوِيّ بقتله.

- أنا أحبُّ (ديمتري) كثيراً. أحب بطنه الكبير وشكله الضخم الطيِّب. وأتصوَّره أسوأ وهو نحيل.

- ليس هنالك أيُّ قلَق. إنَّ (فالسْتافَنا)[166] notre Falstaff يقدِّر كثيراً جداً اللحم الطيِّب.

أخذتْ قرية (كامبوس) Kambos تظهر. يعرف المرءُ فيها بيوتها الصغيرة ذات البياض الناصع، بشجيرات (الجهنَّميّة)[167] Bougainvilliers التي تغطِّي بنهاياتها البنفسجية جدران الأزقة.

قال (تيمور):

- إنه لمن الغريب أن (ديمتري) لم يتزوَّج ثانية، أليس كذلك؟ يبدو أنه يشعر بأنه أفضل وحيداً.

- لا أعتقد. لقد بلغ سن الستين تقريباً، وهو مجبول على عادات معينة. ومن الصعب إعادة النظر فيها بعد سنين كثيرة من العزوبية. إنه منشغل بأشجار كرمته، ويذهب إلى صيد السمك عندما يرغب في ذلك، ويَقِيل من غير أن يكسر إحدى أذنيه[168]، وينام ويستيقظ على هواه. ثم إن عيشة الزواج،

(166) مر تعريف هذه الشخصية سابقاً، ويقصد به هنا (ديمتري) نفسَه، نظراً للشبه بينه وبين (فالستاف) شكسبير من حيث الشكل الضخم (المترجم).

(167) من النباتات المعترِشة.أو المتسلّقة للتزيين (المترجم).

(168) كناية فرنسية عن الهدوء وعدم إزعاجه أثناء قيلولته بأي صوت (المترجم).

يا (تيمور)، معقَّدة. فالناس المتحابون يواجِهون، في حال العيش تحت السَّقْف نفسِه، تحدِّياً رهيباً في الحب.

- ماما وأنت، هل اكتشفتُما هذا التحدي؟ وكنتما سعيدين؟

- يبدو لي.

- إذن، هو غير أكيد.

- اسمعني. قد يعيش المرء قرب شخصٍ ما، ولكنه لا يعيش في رأسه. ويبدو الآخر، في الظاهر، سَعيداً، بينما هو، في دخيلته، يواجه العواصف. وكانت أمُّك دوماً تسيء التعبير عن فرحتها أو شقائها. وخلال سنواتِ من زواجنا، لم أنجح في معرفة ما كانت تفكِّر فيه حقيقة بشأن زواجنا. حتى اليوم الذي..

- حدث فيه (الانفجار الكبير)[169] big bang.

- في الحقيقة..

- بسببكَ. واعْتَرِفْ بذلك. في النوع النباتي، لم يكن بإمكانك أن تتصرَّف بشكل أفضل.

انقبضتْ يدا الطبيب على العنان، وقال:

- قلْ لي، هل ستظل مستمرّاً مدة طويلة في تكرار القول لي بشأن غلطتي؟

- وكيف أنسَى؟ إنني أعيش في ظلِّك. وأنا نفسي ظِلٌّ.

- انتهى الأمرُ، يا (تيمور)!

رد الفتى المراهق، من ورائه، بلهجة باردة:

(169) الانفجار الكبير: هو، في الأصل، مصطلح علمي فضائي إنكليزي، أطلِق لدى الطبيعيين على النظرية التي تفسِّر نشوء الكون وتشكيله، واستعمله (تيمور) هنا كناية عن تفجر العلاقة بين الأبوين وتخريبها لا بنائها (المترجم).

- هذا الأمر لن ينتهي أبداً.

ثُمّ ران صمتٌ فاترِ على الأب والابن.

زمجر (تيوفان) فجأة بقوله:

- تَمَسَّكْ!

وقام بضغطة خفيفة ببطن ساقيه على جانبي الحصان..

صاح (تيمور):

- لا، لا تقُمْ بذلك!

مال جسمُه نحو الأمام، وهو يقول:

- أنا خائفٌ! أرجوك!

اندفع (جيهول) في عَدْوِ عنيف..

* * *

على مصطبة (تـرّاس) (إيبيفانيـا)، كان هنالك زوجان إنكليزيان، قد وصلا العشيَّةَ، يتفحَّصان بجِدٍّ خريطة الجزيرة. تجهَّم (الباشا) الذي كان يراقبهما عبر النافذة. وقد وَهَتْ أعصابُه وصار خداه ورديين. إنه لم يكن يحب (إنكلترا) l'Angleterre.

قالت (بيبا) بنفاد صبرٍ:

- أنتَ تسمعُني؟

كان (الباشا) يَكُرّ حباتِ مسبَحتِه بين أصابعه، فقال:

- نعم. عندك حقٌّ، يا عزيزتي. إن الدكتور (دِبّانه) شخصية مضطربة. مضطربة، ولكنها جذّابة.

فصحَّحتْ له (بيبا فاسْلي) قائلة:

- الأمرُ يتعلَّق بشيءٍ أكبر من ذلك. إن هذا الرجلَ يكتم سِراً كبيراً. فهنالك حَدَثٌ مُؤَثِّرٌ لا بدّ أن يكون حصل في حياته،

مأساةٌ مروِّعة. وأشكّ في أنه يرغب في سَمْلِ عينيه، مِثلَ (أوديب) Œdipe [170]، حتى لا يعود إلى تأمُّلِ وجهِه الخاص.

ابتسم (آخيل أناغنوستاكيس)، وقال:

- دعي عنكِ، يا لُعبتي، فأنتِ تبالغين.

تدخَّلتْ (أنطونيا) قائلةً:

- لا، إنها لا تبالغ. فقد راقبتُ هذا الرجل. إنه حبيسُ التعاسة.

- مَنْ يَسْمَعْكِ يَقُلْ إنكِ تتحدَّثين عن (أيوب)[171] Job المسكين الذي كان يَرْزَح تحت المِحَن التي فرَضها عليه الشيطان (Satan)[172]. وأنا أتَّفِق معكِ، لأن المرء يشعر أن الرجلَ ليس

---

(170) أوديب: شخصية أسطورية، كتب (سوفوكل أو سوفوكليس) (م406 ق.م) Sophocle اليوناني قديماً مسرحية عنها بعنوان (أوديب الملك أو أوديب ملكاً) تحدَّث فيها عن تفاصيل هذه المأساة، وتُختصَر بالقول إن ملكاً يدعَى (لايوس) رأى في المنام أنه يولد له ابن، يقتله عندما يصبح شاباً، فلمّا أنجب ولدًا أمر بذبحه بعيداً عنه، فأشفق عليه الموكَّل بذلك، وأودعه عند راعٍ في بعض الجبال المجاورة ليتولى تربيته، لكن الراعي قدَّمه إلى خادم عند ملك آخر، فتبناه الملكُ، وترعرع عنده حتى أصبح شاباً قوياً، وهو يعتقد أنه ابنه. وفي يوم من الأيام اعترض طريقَه موكبٌ لأبيه الحقيقي زاحمه فيه، وهو لا يعرفه، فقتلهم وفيهم أبوه، وذات يوم أراد الدخول إلى مدينة أبيه هذا، فاعترضه وحش فقتله، فولاه أهل المدينة ملكاً عليهم، مكافأة له على تخليصهم من ذلك الوحش، وتزوَّج من أرملة الملك، التي هي أمه، من غير علم منه، لكن حافظ سره وحقيقة نسبه يكشف لهم الحقيقة المرّة، فتنتحر الأم شنقاً، ويسمل (أوديب) عينيه بمشابك ثوبها، عقاباً لنفسه على ما جرى، وهام على وجهه في الجبال. وقد تناول هذه الشخصية عبر التاريخ إلى يومنا هذا عدد كبير من الأدباء والشعراء وعلماء النفس من خلال بعض المسرحيات والتحليلات من وجهات نظر فلسفية مختلفة (المترجم).

(171) أيوب: شخصية توراتية صالحة تقبَّلت بتسليم تامٍّ وصبر كلَّ المحن التي ابتلي بها، حتى ضُرب المثل به في الصبر. ووقع الحديث عنه وعن محَنه في العهد القديم في (سفر أيوب) الذي يتكوَّن من اثنين وأربعين إصحاحاً، ويقع بين (سفر أستير) و(سفر المزامير) (المترجم).

(172) ينسب المؤلف هنا المحن التي ابتُلِيَ بها أيوب إلى (الشيطان)، في حين إن (سفر أيوب) ينسبها إلى (الربّ) بالقول بعد نهاية امتحانه وحلول الفرج والرضا: فجاء إليه (أي: إلى أيوب) كلُّ إخوته وكلُّ أخواته وكل معارفه من قبلُ وأكلوا معه خبزاً في بيته ورَثَوْا له وعزَّوْه.. انظر: سفر أيوب، الإصحاح الثاني والأربعين، من الفقرة 11. وقد ورد ذكر محن (أيوب) ورفعها عنه في محكم التنزيل في قوله تعالى: «وأَيُّوبَ إذ نادى ربَّه أنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ فاسْتَجَبْنا له فكشَفْنا ما بِه من ضُرٍّ وآتَيْناهُ أهلَه ومِثْلَهُمْ معَهُمْ رحمَةً من عِندنا وذِكْرَى للعابدين» (سورة الأنبياء 83 - 84) (المترجم).

على ما يرام داخل إهابِه، ومن هنا لا أتخيَّل بوضوح أي مأساة.. يونانية لديه!

قالت (أنطونيا):

- لقد أشرتَ للتو بإصبعك إلى الأمر الجوهري: إن الأمر يتجاوز أيضاً وجود مأساةٍ. إنه تمزُّقٌ.

وأعلنت (بيبا) قائلة:

- ومن نحوٍ آخر، لقد رأيت ذلك في الورق.

أبدى (الباشا) دهشتَه قائلاً:

- في الورق؟

- تماماً. أوه! إني أعلم أنك لا تؤمن به، ومع ذلك يمكنني أن أؤكِّد لك أن مرتين من ثلاث مرات لا يكذب الورق.

تنهَّدتْ (أنطونيا) وقالت:

- ماما، دعي عنك هذه السخافات.

- سخافات؟

ووثبَتْ (بيبا) خارج الأريكة.

وعادتْ بعد قليل بعلبة ورق، ودفتر ملاحظات وقلم حبر.

وقالت بهيئة تَحدٍّ:

- الآن، سنرى إن كانت هذه سخافات!

وتحت عيون ابنتها و(الباشا) المعبِّرة عن الشك، خلطت الأوراق، ولكنها أوضحت قبل القطع، قائلة:

- لن أطبِّق الأمر إلا على سحب واحد، يعني لن أختار سوى ورقة واحدة. وهكذا ستقفز الحقيقة إلى عيونكما قفزاً. اتفقنا؟

كان هنالك شعاع من الشمس يخترق الصالون ويذهب ليستقرّ بين الكتب التي ترقد على الرفوف.

وتابعت (بيبا) قائلة:

- والآن، اعلَما أنني قد سألتُ الورق بشأن الدكتور (دِبّانه) في ثلاث مرات، وفي كل مرة، كان يظهر السِّرُّ نفسُه.

خطّت على دفتر الملاحظات بعض الأشياء، وانتزعت الورقة، وطوتها أربع طيات، وأودعتها لدى (آخيل). وقالت له:

- ضعها في جيبك. ولسوف تخرجها عندما أطلب إليك ذلك.

رسمتْ (بيبا) إشارة الصليب. وكانت تُسْمَع وهي تتمتم بكلمات تجعلنا نفكّر في تعويذة أكثر منها في صلاة. وبعد أن تنفَّسَتْ بعمقٍ، قطعت الورق ورتَّبَته، ووجوهه مخبَّأة، على شكل مروحة. وهي تُركّز، أخذتْ ورقة بالمصادفة ووضعتها أمامَها. وفتحت عينيها، وتردَّدَتْ، وكأنها ترتاب في صحة الجواب، وأعادت الورقة.

ثم صاحت منتصرةً:

- ها هي!

كان الشكل يمثّل هيكلاً عظمياً آخذاً في الاحتضار، وفوقه الرقم 13.

فقالت (أنطونيا) وهي تلقي برأسها إلى الوراء بعنف:

- يا لَلرُعب! الموت؟

فصحَّحَتْ لها (بيبا) قائلة:

- لا، هذا ليس الموتَ. إنه (السرُّ بلا اسمٍ). فمن بإمكانه أن يقول ما الموت؟ هل لقيه أحدٌ من قبلُ؟

وتابعت قائلةً لـ (الباشا):

- والآن، يا صديقي العزيز، هل ترغب في أن تقرأ لنا الكلمة

التي عهدتُ بها إليك؟

سلَّم (آخيل) الملاحظة لـ (أنطونيا) قائلاً:

- آسِفٌ، نظارتي ليست معي. ولكِ الشرف.

من الواضح، أن هذا الأمر كان يزعجه جداً.

فتحت الفتاة الشابة الورقة وصاحت مندهِشةً:

- مستحيل!

- ومع ذلك..

فدمدم (الباشا) قائلاً:

- هل يمكن أن تشرحي لي؟

لوَّحتْ (أنطونيا) بالورقة وقالت:

- السرُّ بلا اسم! هذا ما كتبتْه أمي!

وتلعثمت بالقول:

- هذا دورٌ من السِّحْر؟

- ليس هنالك سحرٌ، يا عزيزتي. الأرواح وحدها تقرِّر.

تنحنح (آخيل أناغنوستاكيس) قائلاً:

- أوه! من غير رغبة في الإساءة إليك.. الأرواحُ..

وترك جملته معلَّقة، ولكن المرء يتوقَّع تتمتها.

قالت (بيبا) باستخفاف:

- إني أدعُكَ لنزعتِك المتشككة المَرَضِيّة.

سألتْ (أنطونيا):

- ولكن لماذا؟ لماذا الموت؟ إنه لَمصيبةٌ، هذا السرّ!

- ليس صحيحاً. كلُّ شيء يُعلَّق إن كان متموضعاً في المكان، أو بالعكس، على الصلة بموضع الساحب. وفي الحالة الراهنة، يشاهد المرء أنه بالعكس.

- ماذا يعني هذا؟

وضعت (بيبا) يدها على الورق وقالتْ:

- يعني أن الدكتور (دِبّانِه) يحمل داءً غير قابلٍ للشفاء، وهو على الأقل لا يتعلَّق بشعور لا حدَّ له بالذنب. ويمكنني أيضاً أن أكشفَ لكما ما لم يقُلْه السِّرُّ..

ثمَّ أمعنتِ النظر بجديّة إلى (آخيل) و(أنطونيا) وقالت:

- إن الدكتور (دِبّانِه) واقع تحت خطر الموت.

* * *

غضب (تيمور) قائلاً:

- إنني أكرهك، يا أبي! فأنت تعلم أن العَدْوَ يسبِّب لي هلعاً!

ساعده (تيوفان) على النزول عن الحصان، وكان تعليقه الوحيد:

- أنا عطشان، وأنت أيضاً، كما أتصوَّر؟

- لماذا هذه النزهة على الحصان؟

- لأفرض عليك السكوت! وينبغي لك أن تدرك أنني مرهقٌ من معاناة لومِك.

ربط الطبيبُ عِنانَ الحصان حول شجرة ومدَّ يده إلى ابنه قائلاً:

- هل تأتي؟

صعدا ببطء على طول زقاق متعرِّج مزيَّنٍ بنبتة (الجهنَّميّة). وبعد عشر دقائق، خرجا إلى سُوَيْحَةٍ حيث كانت تَشْمَخُ كنيسةُ للبِشَارة بيضاءُ تماماً، تعلوها ثلاث قِباب. وفي ظلِّ شجرة دُلْب كان هنالك مقهى ومطعم يجاور البناء. وعندما استقرّا في المقهى ظلّ الفتى المراهق مستمراً في الاستياء.

اغتاظ (تيوفان) فقال:

- هل ستستمر طويلاً في لعب دورَ (قابيل)[173] Caïn؟

- (قابيل)؟ ما (قابيل)؟

-(قابيل)! «الضمير»[174] La Coscience لـ (فكتور هوغو)[175] Victor Hugo.

- بُفْ!

- موافق. هل نتوقف؟

- أوكي OK. ثم إنني جائع.

- عادي. مثل (ديمتري).

نظر (تيمور) إلى أبيه نظرة تهديد، وقال:

- احترسْ! الآن، أنتَ الذي أعاد الكَرَّة! ومن ثَمَّ، وبعد ثلاثة أيام، ستحلُّ الجمعة المقدَّسة. ولسوف أصوم فيها.

أمعن (تيوفان) النظر فيه وهو مشدوه، وقال:

- لم أكن أعلَم أنك قد أصبحتَ أرثوذكسياً، فضلاً عن كونك ملتزِماً.

- لستُ أرثوذكسياً ولا ملتزِماً. ولستُ كاثوليكياً ولا بروتستانتياً. فأنا الابن الحقّ لأبيه. ولكنني أرتكب هفوةً مع ذلك. وفي حالة ما.. قلتُ لنفسي إن صوماً صغيراً سوف يصلح أموري مرة واحدة في السماء. ومن نحو آخر، لا يتعلق الأمر

---

(173) قابيل: هو ابن آدم عليه السلام الذي قتل أخاه (هابيل) Abel حسداً له، فكان أول قاتل في تاريخ البشرية على وجه الأرض (المترجم).

(174) الضمير: قصيدة من قصائد (فكتور هوغو) الشهيرة، وتعرف أيضاً باسم (قابيل)، ضمن ديوانه (أسطورة العصور) La légende des siècles (المترجم).

(175) فكتور هوغو: كاتب فرنسي (1802 - 1885)، وشاعر، فقد كان زعيم الحركة الرومانسية في الشعر، وهو أيضاً كاتب مسرحي، وروائي (من أبرز رواياته: البؤساء، وأحدب نوتردام)، وقد عمل أيضاً في الحقل السياسي (المترجم).

بالطقوس، ولكن بعيد الفصح. بعيد الفصح، فهمتَ؟ بالتمجيد. بالـ (must)[176].

لم يكن (تيمور) يبالغ. ففي هذا البلد، لا يمكن أن يُقارَن عيد الفصح بعيدٍ ديني آخر من الأعياد. في (اليونان)، يمثّل عيد الفصح ذروة الإيمان. ومنذ عدة أسابيع، هنالك عدد كبير من الشموع الطويلة ينتظر خلف واجهات المحالّ. وغُمِرتِ الشوارعُ والأزقة بروائح الـ (تسوريكي) tsoureki والـ (كولوريا) koulouria، وبالخبز الصغير المسَمْسَم[177]. ويوم الإثنين، يوم الـ (كاثاري دِفتيرا)[178] la Kathari Deftera، وهو حرفياً بمعنى (الإثنين النقي أو الطاهر)، وبعض المؤمنين كانوا قد غَسَلوا بيوتهم وباحاتها بماء كثير كما يحب المرء أن يغسل قلبَه. وكانت حقائب الفحم قد صُفَّتْ. وقد انهار الجزارون تحت عبء الطلبات. وطيارات الورق الملوَّنة كانت تزيِّن السماء، وكان قرع الأجراس يصعد باتِّجاه (أتِّيك) Attique الثملة من الشراب.

لا، لم يكن عيد الفصح يُشْبِه في شيء الأعياد الدينية الأخرى.

ارتفعت ترنيمةٌ دينية في الوقت نفسه الذي خرج فيه موكب مكوَّنٌ من القرويين والسوّاح إلى السُّوَيْحَة. وكأنه جاء لإعطاء الحق لـ (تيمور) بشكل أفضل. وعلى رأسه كاهنٌ يسير في المقدمة،

(176) أي: بالضرورة (المترجم).

(177) التسوريكي والكولوريا والخبز المسمسم: أنواع ثلاثة من الخبز والفطاير والمعجنات الشعبية التي يجهزها الناس في بيوتهم لاستقبال عيد الفصح وغيره من الأعياد في (اليونان)، وهذه عادات تشبه عادات الشعوب العربية في مثل هذه المناسبات الدينية خاصة (المترجم).

(178) عبَّر المؤلِّف عن الكلمتين بالحروف اللاتينية، وهما بالحروف اليونانية (Δευτέραοςκαθαρ) (المترجم).

له لحية طويلة كثيفة، والشعر مردود خلف العنق بشكل عقيصة. وكان يحمل صليباً، ورأسه مغطّى بقَلَنْسُوَة سوداء، وكانت خطوتُه متثاقلة في الثوب الكهنوتي. وكانت عيون الجميع مُسَمَّرَة عليه كما لو كانت تنتظر أن تراه يتصدَّى لقوى خفية.

همسَ (تيمور) قائلاً:

- شريطة ألا يتخلَّص من قطٍّ أسود.

تبسَّم (تيوفان). فقد كان يعرف التطيُّر: إن التقاء كاهن وقط أسود خلال اليوم نفسه إشارة إلى سوء الحظ.

استأنف الطبيبُ فقال:

- إذن، لسوف تصوم بدءاً من الغد. هل أنت متأكِّد من ذلك؟ لأنه يتعيَّن عليَّ أن أخبِر الخادمة حتى لا تطبُخَ حتى يوم الأحد. اتفقنا؟

تهرَّب (تيمور) من السؤال.

- هل أنت متأكِّد أنهم يصنعون الـ(سوفلاكيس)[179] souvlakis؟

نادى (تيوفان) النادل.

- نعم إنهم يقدِّمون أسياخَ لحم الحمَل.

دقَّق (تيمور) قائلاً:

- مع الـ (تساتسيكي).

- لسوف تنشر رائحةَ الثوم.

- ما أهمية ذلك! لا أنوي أن أعانق أحداً. ولا حتى (أنطونيا).

حدَّق (تيوفان) في وجه ابنه، وهو مذهول، وقال:

- ماذا قلتَ؟

(179) السوفلاكيس: عند اليونان هي المشاوي على السيخ وهي نفسها المعروفة في بلداننا (المترجم).

- حسناً ماذا؟
- أعدْ.
- كنتُ أستطيع أن آكل الثوم، نظراً..
- ولا حتى (أنطونيا).
- بالضبط.

أظهر النادل بعض حركات نفاد الصبر، وسأل:

- هذا كلُّ شيء؟

أكَّد (تيوفان) له ذلك قائلاً:

- نعم. مع زجاجة (لوتراكي) Loutraki.

ثم نظر إلى ابنه وقال:

- والآن؟ لماذا (أنطونيا)؟
- إنك تظهر استياءً من ذلك! وأنت لم تتوقَّف عن الحديث عنها منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. وأستنبط من ذلك أنها تعجبك تماماً. لا بل أكثر.
- هل تعرف على الأقل عمَّ تتحدَّث؟ إنني أكبر منها بعشرين سنة!
- هذه مشكلتك، وليست مشكلتَها.
- بصدق، إنني أتساءل إن كنت بكامل عقلك الآن..

نهض (تيمور)، وقال:

- اعذرني. يجب أن أذهب إلى الحمَّام.

وقبل أن يتوارى، حرك سبّابته تحت أنف أبيه، وقال:

- ولكن ألا تتذكَّر عبارات ميثاقك: إن كانت قد قرَّرتُ أن تكون (أثينا)، فإنك ستكون بحقٍّ صانعَ الفَخَّار؟

(10)

كانت السماء تنعكس في مستنقعات الماء الكالحة التي تكوَّنتْ العشيَّةَ لأنها أمطرت حتى الفجر. وفجأة، ونحو الساعة السابعة صباحاً، انقشعت الغيوم قطعاً باتجاه الجنوب. أيّ يومٍ كان ذلك؟ إنه يوم 21 حزيران/يونيو 1983. نعم. على الأقل هذا اليوم هو 22. لا يهم كثيراً، إنه على كل حال في حزيران/يونيو. وكنت أحاول، وأنا أجلس القرفصاء خلف شاهد قبر، أن أسيطر على ارتعاشات جسمي، مع عدم صرف النظر عن طقوس الجنازة.

لماذا كانت تعاودني بلا انقطاع، صافعةً صدغيّ، ولحوحةً، تلك الجملةُ الشهيرة في رواية (الغريب)[180] L'Étranger: (اليوم، ماتت أمي. أو ربما أمس، لستُ أدري). ومع ذلك، لستُ سيِّئَ الحظّ (مورسو) Meursault، وأمي لم تكن نائمة في هذا الصندوق

---

(180) رواية (الغريب) هذه للكاتب الفرنسي (ألبير كامو) (1913 - 1960)، كان قد ولد في قرية تابعة لمدينة (قسنطينة) بالجزائر، من أب فرنسي وأم إسبانية، وتعلم في جامعة الجزائر، كان فيلسوفاً وجودياً، وقد بذر بذور فلسفة اللامعقول والعبثية في كتابه (أسطورة سيزيف) Le mythe de Sysiphe سنة 1942، ومن خلال تجربته في مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا وكتاباته السياسية وفلسفته نشر كتاب (المتمرِّد) L'Homme révolté سنة 1951، وله ثلاث روايات مشهورة هي (الغريب، والطاعون، والسقوط)، وله مسرحية (كاليغولا) Caligula. نال جائزة نوبل للآداب سنة 1957. توفي في فرنسا، ونقل رفاته بأمر من الرئيس الفرنسي (ساركوزي) لم يكن قد وُلد عام 1957 العام الذي توفى فيه كامو ليدفن في مقبرة العظماء (الأنفاليد) في باريس، في احتفال مهيب (المترجم).

القبيـح، نعـش (فيرون) Vérone الفاخـر، من خشـب شـجرة الـدردار الضخمـة، بسـماكة 41مم، ومبَطَّن، كما لـو أنَّ الديدان تكون في حاجة إلى حدٍّ أدنى من الراحة لتأكل بشراهة جسداً أو من أجل أن تكتمل عملية التحلل حسب الأصول..

مـا الذي يجري لنعش مطمور تحت التراب؟ كنتُ أعرف تقريباً جميـع مراحل التحلُّـل. فبعد الموت ببضع دقائـق، تبدأ التخمُّرات، والمـواد الناتجـة خلال هـذه التفاعلات تطلِـق روائح منفِّـرة جاذِبةً للحشرات الأولى التي تضع بيوضها في الفتحات الطبيعية، ومنها: المسـامات، والمنخـران، والشـرج، والأُذُنـان. وبسـرعة فائقة، تنشَـط الخلايا البكتيرية والحشـرات آكلة الجِيَف على الجثَّة وفي داخلها. وأوَّلُ كتيبـةٍ من الذُّباب الأزرق - ذباب اللحم «بالعامية»[181] - تلقي بنفسها بشراهة على الجثَّة، بينما يجعل الغازُ المحرَّر من العضويات الدقيقة، الأحشاءَ تنتفِخ، بدءاً من الكِرْش، مغيِّراً شكلَه ومظهرَه.

منـذ اليـوم الثالث، تعطـي البيوض الموضوعة فـي المنخرين والفم آلافاً من اليرقات.

وفي اليوم الرابع، تمتلئُ العينانِ بدورهما بالبيوض واليرقات.

وفي اليوم الثامن، يُصبح محجرا العينين فارغين، لأن اليرقات تكـون قـد التهمت كرتي العينين. وفي اليوم التاسـع، ومع التهام الشـفتين، تظهر الأسـنان. وفي اليوم الحادي عشر، تتكوَّن تحت الجثَّة بقعةٌ دهنية، تنتجها الأحماض، بسبب تسَيُّل الأنسجة.

---

(181) هو نوع من الذباب أو الذِّبّان كبير الحجم، يميل لونه إلى الزرقة مع شيء من الاخضرار، وهو شديد الحساسية للحم الطازج المذبوح أو الفاسد بأنواعه، وسريع الوصول إليه في أي مكان كان، وهـذا يعبر عن قدرتـه الهائلة، حتى إن العوام، إذا أرادوا أن يكنوا عن عدم قدرة أحد على الوصـول إلى ما يخبئون - وبخاصـة في جنايات القتل وإخفاء الجثث - يقولون بالعامية: (حتى الدِّبان الأزرق ما يعرفلوش طريق) (المترجم).

وتظهر الدُّفعةُ الثانية من الذباب في نهاية الشهر، لأن تحلُّل المواد البِرازيـة تجذِبهـا. ويسـيل لُعـابٌ مُدَمَّىً من الفـم والأنف بضغطٍ من الغازات على الحجاب الحاجز.

ومِـن ثَمّ، وانطلاقاً من الجمجمة، تتفكّك العضلات. ويتفتَّتُ الجلـدُ والأنسـجةُ الرِّخْوَة كليَّةً. يتخرَّب الدمـاغ، ويوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، يصبح هذا الدماغُ، المخزنُ العظيمُ لأفكارنا وأحلامنا وغرامياتنا، قيئاً وصُهارةً طينية.

وعلـيَّ أن أعترف أن فكرةً مفاجئةً عَنَّتْ لي هي: «وإذا أصبحتْ هـذه الجثّـةُ التي تم وضعُهـا من لحظة في التراب اسـتثناءً من القاعـدة؟». وعلى كل حال، ألم تكن هنالك جُثَثٌ وُجِدَتْ سـليمةً بعـد المـوت بعدَّة سـنين؟ صحيـح أنها كانـت تتعلّق دومـاً بأناسٍ أتقياء، وقدّيسين، وأن الجثّة التي تُدْفَن اليوم ليستْ من زمرتهم.

انتهـتْ الطقـوسُ منـذ نحو ثلاثـين دقيقـة، وبقيـتُ دوماً في مكاني مقرفِصاً. تمثالاً بين التماثيل. وملاكاً للموت بوجهٍ بشري.

عما قليل، سيتسرّب المساء بين القبور.

والآن، بعدمـا نهضتُ، وتأكّدتُ مـن أن المقبرة أصبحت خالية، مشـيتُ حتـى القبـر. كان هنالـك تويج لـوردة بيضاء يلامسـها الهواء، فتهتز فوق التراب الذي لا يزال رطباً.

بقيـتُ وقتـاً طويـلاً بـلا حَـرَاكٍ، مبهـوراً بالقبـر المسـتطيل. وعيناي جافّتان.

أنـا وحيـد الآن، وحيـد مـع وجعي، حتـى نهاية الزمـان. هذا الأمـر، الواضح جداً، جعلني أفقد توازني. فسـقطتُ إلى الأمام، ووجهـي إزاء الأرض. وبحركـة غبيـة بلا شـك، أصابـتْ أصابعي قطعة مَدَرٍ (طين) فحملتُها إلى فمي.

وحينذاك همس صوتٌ في أذُني قائلاً: (بعد الآن، لسوف تفتح قلبك للمرة الأولى لعدم اكتراث الناس المشين).

* * *

أشعل (لوكاس باباداكيس) غليونه، مغلِّفاً نفسَه بسحابة كثيفة من الدخان. والستائر المسدلة كانت تصفّي ضوء النهار، وكان غارقاً في المكتب في نصف عتمة.

وردَّد وهو سارح الفكر:

- (عدم اكتراث الناس المشين). أهذا هو اعتقادك، يا عزيزي (تيو)؟

- إن جوابي لن يرضيَك: فيما عدا واحداً أو اثنين من الكائنات، فكلُّ الناس يسخرون من معرفة إن كان المرءُ حياً أم ميِّتاً.

- واحدٌ أو اثنان من الكائنات؟ فقط؟

- وذلك لأنني سخيّ.

- إني أجدك قاسياً جداً. قاسياً على الآخرين الذين يحبُّونك، وأنا متأكِّدٌ من وجودهم. وأنت قاسٍ أيضاً حتى على نفسِك.

اعتدل (تيوفان) في كرسيِّه الموسد، وقال:

- (لوكاس)، لا تجعلني أعتقد أنك من أولئك الذين يرون قَدَر الإنسان عبر المنشور السِّحريّ[182]. إن المرء يولَد وحيداً. ويعيش وحيداً. ويموت وحيداً. وليس كل ما يحيط بك سوى

---

(182) المنشور السحري: ومثله المرآة السحرية أو الكرة السحرية، من مخترعات الخيال الشعبي عند الأمم المختلفة، وكثير من مخترعات الخيال الشعبي هذه تحولت مع تقدم العلوم إلى وقائع ملموسة: كفكرة الطيران على حصان مجنَّح أو بساط الريح، التي أصبحت عبر الطائرات. ولعل شاشات أجهزة التلفاز، والنقالات الحديثة، واللابتوبات، وأجهزة المراقبة، والتلسكوبات الفضائية حوَّلت (المنشور السحري) إلى واقع في عصرنا (المترجم).

مظهـر. والعالـم ليس حكايـة جِنِّيَـات، يا صديقـي، ولكنه وعاء كبيـر مـن الرمـل ندفع فيه منذ الـولادة أطفالاً يشـيخون: «هيا نذهب! العبوا! العبوا!». ماذا تُسَـمَّى هذه اللعبة؟ آ.. نعم. تسمَّى الخريشة! الا تعرف الخريشة؟ هذا أمر صبياني بالتأكيد.

لقد ألقيتَ روحك في وسـط قطيع من الذئاب الجائعة ومَنْ سيتمسَّـك بهـذه اللعبـة. وعندما بدأنـا، بعد ملايين السـاعات، نتبيَّن كيف تجب حماية روحنا، قام بعضهم بإعلان نهاية اللعبة: هيا! Sto plaísio[183] ! كلُّ الناس في الصندوق!

أطلـق (لـوكاس) ضحكة سـريعة. ويظهـر أنه لـم يُعِر خطبة محدِّثه أيَّ اهتمام، فقال:

- يبـدو جيـداً، يـا صديقـي، أنك قد نسـيتَ ما كنـتُ أحاول شـرحَه لك منذ مدة: وهو أن أفكارك تعمل مثلَ مَصَافِ (فلاتِر) على جهازِ تصوير. فغيِّر..

- فغيِّـر مصافيَـك، يعنـي طريقـةَ نظرك إلى الأشـياء، إلخ. نعـم، إننـي أتذكَّر ذلك تمامـاً. وهذا كمَنْ يطلب إلى السـمكة أن تطير. مستحيل!

دقَّ (لوكاس باباداكيس) غليونه على طرف المنفضة الموضوعة على مكتبه ثم أعاده إلى شفتيه. وقال:

- قُلْ لي، يا (تيوفان)، ما المشاعر التي تحسّ بها إزاء الموت؟

- وهل يمكن أن يحسّ المرء بشيء لا يعرفه؟

- إنَّ ملاحظتَك هذه تدهشني. خذ طفلاً مثلاً. إنه يخاف من التنانـين أو من المرأة العجوز السـاحرة، مع أنهـا كائناتٌ خيالية:

(183) كلمتـان يونانيتـان بحروف لاتينية، بمعنـى (داخل الإطار أو السـياق)، وهما بالحروف اليونانية (πλαίσιοοτσ) (المترجم).

لمـاذا؟ وأنت تعلم ذلك تماماً. إن غيـر الواقعي يـرعبنا أكثر بكثير من الواقعي. والآن (ويشير إلى باب المكتب)، لنتصوَّر أن الموت كان وراءه، وجاهزٌ للدخول، فإذا تمكَّنتَ من إبصاره، فما المشاعر التي تحسّ بها؟

لم يتردَّد (تيوفان) لحظة واحدة، فقال:

- سـأحسّ بـذات المشـاعر التـي ينبغـي أن يحس بهـا أولئك المجهولون المسـاكين، الذين أغلقت عليهـم عربات الحيوانات في القطـارات، وهم في طريقهم إلى معسـكرات المـوت: أي بالحقد، بحقدٍ لا حدود له، بهِياج هائل، وبإحساسٍ بائسٍ بالظلم.

وضَرب غاضباً سطحَ المكتب براحة يده، وقال:

- لا، يا (لوكاس)! إن الأشـياء لن تسـير كما كانت قد سـارت. وإنني متأكِّدٌ أن في حياتك الطبية تشـخيصاً ما بان أنه خاطئ. وإن بعـض الزملاء من الجرّاحين، يقترفون خطأ ما، متسـرِّعين جداً أو متوترين. ولكن لا أحد من بينهم اجتاز قطّ نهر الجحيم. إذن، لماذا أنا؟ لماذا؟

ونهض من كرسـيّه، وذهب إلى النافذة، وأزاح السـتارة بحركة قوية. فاندفع الضوء إلى داخل المكان مُبهِراً.

واسـتمرّ (لـوكاس باباداكيـس) يدخِّـن غليونـه، وهـو رابـط الجأش، واقترح بعد لحظة، قائلاً:

- جيـد جداً، وإذا ما أخبرتُـك أنه لم يبق لك وقت كثير على بقائـك حيـاً؟ وأنـك، عما قريب، سـوف تستسـلم لزمـر الذباب الأزرق الذي وصفتَه وصفاً رائعاً منذ قليل؟

استدار الطبيبُ وقال:

- لقد غَمَرتَني بإحسانك! أوه! إذا علمتَ كمْ!

- دعْني أُكمِلْ. وإذا كان رحيلُك العاجل سيحرمُك من إنقاذِ حياةٍ ما؟

أمعن (تيوفان) النظر في زميله باستفهام صامت، وقال:

- وهذا مع ذلك أمر بسيط، يا صديقي. فهنالك دوماً حياةٌ ما تحتاج إلى إنقاذ. وبلا شكٍّ ليس كليةً، ولا نهائياً، ولكنها موجودة. ففي كل يوم، ومن غير أن نعلم ذلك، نمرُّ إلى جانب منتحرين مستقبليين.

ثم قال (تيوفان) ساخراً:

- حياة ما تحتاج إلى إنقاذ؟

- طبعاً!

نظر (باباداكيس) إلى ساعة جيبه (لقد كان ينتمي إلى اليونانيين الأخيرين الذين يملكون واحدة منها)، ثم نهض وهو عابس الوجه من الوجع. ودمدم، وهو يمسك بذراع (تيوفان)، قائلاً:

- إنه داء المفاصل اللعين! اعذرني، لأن عليَّ أن أدعك.

مشى الرجلان معاً حتى الباب. وعندما وصلا إلى العتبة سأل (تيوفان):

- من أين جاء اعتقادك أن لديَّ حياةً ما تحتاج إلى إنقاذ؟

نظر (باباداكيس) إليه من فوق إلى تحت مرتبكاً، وقال:

- من الحاسَّة السادسة. ألا ترى عن حياة مَنْ أتحدَّث؟

- مطلقاً.

- فكِّرْ، يا عزيزي، فكِّرْ.

(11)

من فوق شرفته، كان (تيوفان) يراقب الذاهب والآيب من الزوارق التي تَمخُر المرسى. وبعد لحظة رفع رأسه نحو الشمس. كانت في أوج توهجها، بينما كانت حياة (تيوفان) تميل إلى الخمود. لم يمرّ عليه يومٌ قطّ عَصَف به بعنفِ الإحساسُ بالزمن الذي يفِرّ، بقدر هذا اليوم، وقلقُ المصباح الذي يتلاشى، والجسد الذي يذبل، وكلٍّ الأشياء التي لا تحصى عدداً، وتَفْسُد وتفنى. فبأي شيء يمكن تشبيه وجعه؟ بصرخةِ محتضِرة؟ أم بصرخةِ غريق يرى سفينةَ تمرّ في الأفق ولا تراه؟ ثلاث سنوات وهو يجرّ هذا الألم وراءَه، وهو عاجز عن التخلّص منه، وساكن داخل آلامه، ولحمُه وروحه يحترقان مثلَ هذه القضبان المتكلّسة في كرم (ديمتري). وكما هي العادة دوماً، وعبر أوقات فتور الهمة هذه، تومض صُوَرُ الأطلال. وكما هو الشأن دوماً أيضاً، ومثلَ مشرفٍ على الموت، كان يرى مرورَ صوَرٍ من الطفولة، ومشاهدَ بعيدةٍ، وظهورِ أثيريٍّ لوجهِ والديه، ولغرفته في القاهرة، ولذكرياته الرحيمة والحزينة التي كانت تناديه. لقد كانت تتحدّث إليه في حقولٍ ظليلة، وحقولٍ غير محدودة.

في كل الأيام، ومن غير أن نعلم ذلك، نمرُّ إلى جانب منتحرين مستقبليين.

وإذا ما كان المنتحر يشبه (تيوفان)؟ وإن كان ينام فيه؟ لا، مستحيل. يمكن للإنسان أن يضحِّيَ بنفسه، أما الطبيبُ فلا. ومن ثمَّ، فإنّ (أنطونيا) موجودة من الآن فصاعداً. إنها، كما لاحظ بحقِ هذا الشيطان (تيمور)، تحتلُّ مكانةً مهيمنةً أكثرَ فأكثَر. فهل يمكن أن يكون القدَر يقوده فجأة إلى طريق جديد؟

- مكانَك، أيها الطبيب!

انحنى (تيوفان) فلمح (ديمتري) يشير إليه بإشارات كثيرة.

أبدى الطبيب ملاحظة فقال:

- أراك في تحسُّن.

- بالضبط. وأتصوَّر أن نقاشي مع هذا البغل (سيفاكيس) سيستمر زمناً أطول..

- أنا آتٍ..

نزل (تيوفان) الدرجات التي تفضي إلى الطابق السفلي، وأخذ حقيبته الجلدية من الممر وخرج. وقال:

- الآن، ودفعة واحدة إلى الخارج. هل دفنتَ بلطة الحرب؟

- تريد أن تضحك! إن نقاشنا دام خمس عشرة دقيقة، وقد مضت عشر دقائق منها في تبادل الشتائم.

- أستنبط من ذلك أنه لا يريد أبداً أن يتخلّى لك عن قطعة الأرض؟

- لا شيء! ولا حتى بوصة واحدة.

- إن هذا الرجل حاقد تماماً. وهذا غير معقول. وتريدها منه بعد أربعين سنة؟ أتحبّ أن أتكلّم معه؟ ربما كان بإمكاني أن أقنعَه.

أظهر اليوناني تكشيرة ازدراء وأخذ صديقه إلى السيارة، وقال:

- لسوف يحقق ذلك شرفاً عظيماً لهذا العقرب! وعلى أي حال، سوف أرى كيف ستنتهي كلُّ هذه القصة. لسوف أبيع كرمي إلى متعهِّدٍ سيرشو رئيس البلدية ليجعل قطعة الأرض صالحة للبناء. وبعد ذلك، سوف يقتلعون أشجار العنب لبناء فندق أو (سوبر ماركِت). لننسَ! والأفضل أن تحدِّثَني عن (بيبيا فاسِّيلي). لماذا هذه الدعوة على الغداء؟ مع أنها لا تعرفني.

- لأننا في أحد الفصح، ولأنها تعلم أننا صديقان و..

ثم قام الطبيب بخطوة إلى الوراء وقال:

- قُلْ إذًا، هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها مرتدياً بدلة! إنك أمير حقيقي!

داعب (ديمتري) بفخر طيَّةَ سترته ذات البياض الناصع، وقال:

- لا بأس به، هيهْ؟ إنه من..

- من الـ (شاركسكان)[184] la sharkskin، إنني أرى جيداً.

- يا لَك من خبير!

أبدى (تيوفان) ابتسامة. فقد كان هذا النسيج مقدَّراً جداً في الخمسينيات بين النخبة القاهرية، وكان يدعى جلدَ القِرْش. يا للهول. إنه يكذب:

- إنه قمة الأناقة. في الصيف، لم يكن أبي يرتدي إلا هذا.

- إن أباك رجل ذوّاقة.

(184) الشاركسكان: نوع من النسيج الذي تصنع منه الثياب (كالبدلات، والمعاطف..) (المترجم).

اندسّ (تيوفان) في جانب السائق، قائلاً:

- وعلى الرغم من كونه رجلاً أكثر من ذواقة. فقد توقَّف فجأة. مات في هوان.

دُهِش (ديمتري)، فقال:

- ماذا تعني؟

- لا شيء سوى أنني بصدد أن أنقل إليك.

* * *

كان الرجل العجوز ممدَّداً على سريره في ضاحيةٍ قذرة من ضواحي (القاهرة). كانت عيونه مثبَّتةً على الجدران الرمادية والقذرة في الغرفة. وهو وحيد. قد هجره الجميع. وحيد. محطم. كان يحاول أن يفكِّر، ولكن أفكاره كانت مثل الخفافيش عمياء وتطير عشوائياً، مذعورةً، وكلٌّ منها يمزِّق جرحَه أكثر.

كان يقول: «يا إلهي! .. يا إلهي! .. لماذا؟».

يُقال إنه استَقبَل، ذاتَ مساء، في ناديه الخاص، الذي كان يُديره، ثلاثةَ ملوكٍ. في أي سنة كان ذلك؟ في سنة 1944؟ 1945؟ وهم: (تسوغ الأول)[185] Zog 1er، ملك (ألبانيا) Albanie،

(185) تسوغ الأول: واسمه (أحمد تسوغو Ahmet Zogu)، واسمه عند مولده (أحمد مختار بك تسوغلِّي 1961 - 1895) (Zogolli)، رجل سياسة ألباني، كانٍ رئيسَ وزراء مرتين، وانتخب سنة 1925 رئيساً لجمهورية (ألبانيا)، ثم نُودِيَ به سنة 1928 ملكاً للألبان باسم (تسوغ الأول)، إثـر تحـوُّل النظام الجمهوري إلى المملكـة الألبانية، وانتهى مُلكَه سـنة 1939 باحتلال إيطاليا الفاشية أيام (موسّوليني) لبلاده. فلجأ تباعاً إلى: اليونان، فتركيا، فرومانيا، فبولونيا، فإستونيا، فالسويد، فالنرويج. ولجأ أخيراً إلى (فرنسا)، وحاول تنظيم مقاومة ضد الإيطاليين في بلاده، لكنه غادر فرنسا إلى (لندن) إثر احتلال النازيين لها. وقد استولت المقاومة الشيوعية الألبانية، المرتبطة بالزعيم (تيتو)، على السلطة سنة 1944 بعد تحرير ألبانيا نهائياً من النازيين. وقامت الجمعية الدستورية في ألبانيا بإلغاء النظام الملكي، وأنشـأت جمهورية ألبانيا الشـعبية. انتقل (تسوغ الأول) من (بريطانيا) إلى (مصر) أيام الملك فاروق قبيل انتهاء الحرب العالمية، لعله يحظى بدعم الزعماء العرب آنذاك للعودة ملكاً إلى بلاده، فأخفق. وبعد استيلاء حركة الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر على السلطة في مصر سنة 1952، غادر مصر للإقامة ←

وصـل أولاً، ثم تبعه (أومبرتو الثانـي)[186] Umberto II، ملكُ (إيطاليـا)، وأخيـراً (فـاروق)[187]. هـؤلاء ثلاثـة ملـوك. وكانـوا جميعاً ينادونه باسمه الشخصي: (موريس) Maurice.

كان الوجع الذي ينتفض في داخل صدره قد أصبح لا يُطاق. حـاول أن ينـادي، وهـو مدرك مع ذلك أن أحداً لـن يردّ عليه، في هذا المستوصف - المزيَّف، الذي لا يُؤوي سوى امرئ مختلٍ مسكين هَجَره المجتمع وأسرتُه، ومديرةٍ سيِّئةِ الخلق وسارقة.

فعـلٌ، ردّةُ فعـلٍ، لا بقاء هنا، مع الموت الذي يتربص به. كيف؟ بقي لديه قليلٌ جداً من القوة.

قـال لهـم: «لـن أتحمَّـل الانحطـاط. لا أسـتطيع. فأرجوكم، جنِّبونـي هذه المهانة. تذكَّـروا، كنتُ أهيمِن على ليالي (القاهرة)،

← في الـ (كوت دازور) في فرنسـا، وأوصى بالعرش سـنة 1957، بعد أن هدَّه المرض، لابنه (ليـكا) Leka، وتوفي سـنة 1961، ودفن في (باريس). وقد عادت أسـرته نهائياً إلى (ألبانيا) سـنة 2002، بعد سـقوط النظام الشيوعي فيها. ثم نقل جثمان (تسوغ الأول)، سنة 2012، من (باريس) ليدفن في عاصمة بلاده (تيرانا) Tirana (المترجم).

(186) أومبرتـو الثانـي (1904 - 1983): آخر ملوك إيطاليا، حكم 35 يوماً فقط من سـنة 1946 التي شـهدت استفتاء شـعبياً حَوَّل إيطاليا إلى النظام الجمهوري، وهو ابن الملك (فكتور - عمانوئيل الثالث) Victor - Emmanuel III الذي حكم إيطاليا من سـنة 1900 إلى سنة 1946، وقد توفي (فكتور) سنة 1947 في الإسكندرية بمصر (المترجم).

(187) فـاروق: وهـو (فـاروق الأول) (1920 - 1965)، آخر ملوك (مصر) عملياً من سـلالة (محمد علي باشا)، القائد العثماني الذي كان قد انفرد بحكم مصر سنة 1805، ثم حصل على اسـتقلال ذاتي لمصر ضمن إطار السلطنة العثمانية، ووَرَّث الحكم لبنيه وأحفاده من بعده. حكم فاروق مصر من سنة 1936 إلى أن خلعه تنظيم الضباط الأحرار يوم 26 تموز/يوليو بعد ثلاثة أيام من انقلابهم عليه، وولوا ابنه (أحمد فؤاد) المولود في 16 كانون الثاني/ يناير سـنة 1952، تحت الوصاية، باسم (الملك فؤاد الثاني)، ثم لم يلبثوا أن خلعوه بدوره في يوم 18 حزيران/يونيو من سـنة 1953، وألغي النظام الملكي بمصر وأعلن النظام الجمهوري. لجأ الملك فاروق أولاً إلى إمـارة (موناكو) Monaco، ثم تحول إلى إيطاليا إلـى أن توفي فيها في ظروف غامضة، ونقل جثمانه ليدفن في مصر. والمعروف أن كاتب الرواية الراهنة (جلبير سـينويه) قد نشر كتاباً سنة 2006 بعنـوان: (الكولونيل والطفل - الملك: ذكرياتٌ من مصـر) - Le colonel et l'enfant roi، mémoires d'Égypte، ويعنـي بـ (الكولونيل) هنا (البكباشـي أو المقدم عبد الناصر)، أما الطفل فهو الأمير (أحمد فؤاد) ولي عهد فاروق (المترجم).

وكنتُ أنتزِع إعجاب الجميع».

لـم يُقدِّمـوا لـه سـوى أجوبـةٍ استسـلامية وإشـارت تعبِّر عن العجز.

وفجأة انقبضت يداه.

كان يشـعر أن شـيئاً مـا يتفتَّتُ وينحلّ في داخل جسـمه غير المرئي. وكانت أحلامه الأخيرة تفسُد ببطء. فقد هَمَد كلُّ ما كان يعيشه قبل اللجوء، وكلُّ ما كان يحبّه، وتحوَّل رماداً.

كانـت أجـراس كنيسـة (القديس يوسـف)، التي يذهـب إليها كل أحد، تُقرَع ظهراً. فلم يسـمعها. فقد كان انتباهه مركَّزاً على الشبح الأسود في زاوية من الغرفة.

وحينئذٍ، مدَّ ذراعيه نحوه ودمدم بقوله: «تعالَ».

* * *

- لم تقُلْ لي قط ماذا كان يعمل في الحياة. بائعَ جِمال؟

أغلق (تيوفان) باب ذكرياته، وأجاب بقوله:

- أنت مُسَلٍّ.

- رجلَ أعمال؟

- تريد أن تضحك؟ لقد أمضى حياته في العطاء، وكان يعلن على حساب أمي قائلاً: «إنني أفضِّل تخزين ذكريات». ومع ذلك كان يكسب مالاً. أطناناً. لقد كان مقامراً، و(كازانوفا)[188] Casanova وسـيِّداً كبيراً.

- أنت مازلت لا تجيبني: ما وظيفته؟

- إنه يعمل في كل شـيء. كاتبَ سيناريوهات، فقد كان مغرماً

(188) كازانوفا (1725 - 1798): مغامـرٌ إيطالي ومؤلِّف مذكّرات، كان نموذجاً فريداً لإغواء النساء، ويوصف باسمه كل من يتشبَّه به أو يسلك سلوكه (المترجم).

بـ (لوبيتش)[189] Lubitsch و(كابـرا)[190] Capra، وقـد عمل مدة في الوســط الســينمائي، إلى اليوم الـذي وُجد فيه، لا أدري كيـف بالضبـط، على رأس نادٍ للعب وحيدٍ في الشـرق الأوســط. إن الملـك (فـاروق)، وهـو جالس بلا شـك حول طاولـة لـ (بوكر) poker (191)، كان قـد منحـه - وهذه حُظوة لا تُقدَّر بثمن في بلد مسلم - رخصة اللعبة والخمر.

- يبدو أنه كان يحبّ أباك!

- ليـس أقـل مـن النـاس. فـي الحقيقـة، كان الملـك، المقامر المتمكِّـن هـو نفســه، يقَدِّر أن ناديـاً للعب داخل بلده سـوف يوفِّر عليـه أن يعبر المتوسِّـط ليذهـب إلى (دوفيـل)[192] Deauville أو (موناكو)[193] Monaco. وأنا أحدِّثك عن سنوات الأربعينيات. وكان الإنكليـز لا يزالـون يحتلون مصر. تصوَّر أناسـاً ميتين من العطـش، في قلـب الصحـراء، ويكتشـفون واحة. وهـذا النادي،

(189) لوبيتـش: (إرنسْـت - Ernst)، مخرجٌ سـينمائي أمريكاني من أصـل ألماني (1892 - 1947) (المترجم).

(190) كابرا: (فرانك - Frank)، مخرج سـينمائي، وكاتب، ومنتجُ سـينما أمريكاني من أصل إيطالي (1897 - 1991) (المترجم).

(191) لعبة ميســر شـائعة في كثير من بلدان العالم وبخاصة أمريـكا والغرب، وهي لعبة ورق ومال، وكانت بعض الشــخصيات السياسـية والفنية العربية مدمنة عليها للأسف الشديد، وهي محرمة شرعاً، لأنها كسب غير مشروع لمال الغير (المترجم).

(192) دوفيل: بلدية في منطقة (كالفادوس) Calvados في الساحل الشمالي لفرنسا، تشتهر بمهرجانها السينمائي الدولي، وبكازينو كبير، وفنادق فخمة، واستراحات ومنتجعات، ويُنظر إلى دوفيل على أنها ملكة شواطئ النورماندي، وفيها مركز للمؤتمرات، وفيلّات (المترجم).

(193) موناكو: إمارة تقع على (الشـاطئ الأزرق Cote d'Azur) على المتوســط، في منتصف المسافة بين (نيس) Nice والحدود الإيطالية، وهي دويلة مستقلة، ذات نظام دستوري، مساحتها نحو 2كم2، وسكانها نحو أربعين ألف نسمة، وعاصمتها (موناكو) ومنطقة (مونتيكارلو) Monte Carlo - جزء منها، وفيها كازينو، وفيها أنشـطة فنية كثيرة، ومتاحف، ومحطة إذاعة شـهيرة، وهي قبلة السـواح مـن العالم، للأثرياء جداً فقط، واللغة الفرنسـية هي اللغة الرسـمية فيها (المترجم).

سـرعان ما أصبـح منجماً للذهـب. وأنت لا تسـتطيع أن تتصوَّر المبالـغ التـي كان يُلْعَـبُ بها علـى الطاولات الخضـر، ويتقاضى والدي عليها نسبة مئوية.

أطلق (ديمتري) صَفْرَة إعجاب، وقال:

- حسناً! إنه لمن المؤسف أن يحترق هذا كله. وإلا كنتَ وجدتَ نفسَك على منبع للثروة.

هزَّ (تيوفان) كتفيه، وقال:

- لا شيء. ولا حتى فلْسٌ واحد. إن نبع الغنى كسَبتُه بنفسي، يـا صديقي. وكما يقـول الإنكليـز: So what[194] ؟ المال يذهب ويجيء. ويمكنك أن تجمعه، ويستمر في كونه على ما هو: كومةً من الرمل. والمرء لا يبني شيئاً على الرمل.

وبينمـا كانـا يصعدان نحـو القلعة وحصونهـا، ازدحمت الأزقة بسـكان الجزيـرة الذين يرتدون لباس الأحد. وفجـأة انطلق حمّار من الشيطان، وفوراً حُيِّيَ بوابلٍ من الشتائم، فزار (ديمتري) قائلاً:

- Ghamoto[195] ! ماخورا!

كبح (ديمتري) نفسه، وقال بلهجة أكثر اعتدالاً:

- أرجـوك، يـا (تيـو)، لا تهزَّنَّ بدنـي بتُرَّهاتٍ مـن قبيلِ (المال لا يصنع السعادة). الأمر ليس كذلك عندي، من فضلك.

- أنـت لم تفهـم. الأمر لا يتعلَّق بالسـعادة، ولكن بعجز المال فـي مواجهة التعاسـة، والمـرض، والوحدة. إن أي ثـروة لن تحوِّل إنساناً إلى ما لا يمكن أن يكون عليه.

(194) بمعنى: ما الضرر؟ (المترجم).

(195) كلمـة يونانيـة بحروف لاتينيـة تعني (ماخور)، وهـو بالحروف اليونانيـة (οτγαμο) (المترجم).

رفع (ديمتري) عينيه إلى السماء، وقال:

- Mallakiess[196]، حماقات! إنني أتَّفِق معك، إن الثروة لا تكفي، لا اليوم ولا حتى إلى الأبد، كي تسمو بإنسان. ولكن اليوم، أكثر من أي وقت مضى، يحطّ الفقرُ منه. أنت، الطبيب، تعلم جيداً أفضل من أي شخص أن عالم المعالجات ينقسم بين أغنياء ومُعْوِزين. اذهب إذن وقف في الصف في مشافينا العامة، واسأل هؤلاء الناس الفقراء إذا ما كان المال لا يصنع السعادة. طبعاً، لو كنتَ عليلاً، فإن ملياراتِكَ لن تنقذك، ومن هنا، فإنني أفضِّل أن أرحل مرفوع الرأس، أليس كذلك؟

وتابع يقول:

- وفيما يخُصّ الوحدة.. كلُّ شيء يتعلَّق بماهيَّتها، يا عزيزي: هل هي مختارَة أم مفروضة؟

قال (تيوفان):

- قفْ على اليمين.

وفي الحال أُوقِفتِ السيارة، واستأنف (ديمتري) يقول:

- ومن نحو آخر، في موضوع الوحدة. لماذا تعيش وحيداً؟ من غير أي امرأة خلال ثلاث سنوات. وأنت لا تزال شاباً، أنت في..

- في الخامسة والأربعين..

- أنت أصغر مني بخمسَ عشرةَ سنة ولا تَزِن مئة وعشرين كيلو. وأنتَ مَهِيبُ الطلعة. إذًا لماذا؟

بقي سؤال (ديمتري) بلا جواب. غادر (تيوفان) السيارة.

* * *

(196) هذه الكلمة باليونانية (ςεἰμαλακ)، وهي بمعنى (حماقات) التي ذكرها (ديمتري) بعدها (المترجم).

اقترحت (بيبا) قائلةً:

- أيرغب أحدٌ في القهوة؟

ارتفعتْ أيادي (الباشا) و(أنطونيا) و(تيوفان).

فسألتْ (بيبا):

- وأنتَ، يا سيِّد (هاتسيس)[197] Hatzís؟

-ناديني(ديمتري).أشكركِ.إن votrekokoretsi[198] غمرتني!

وتلمَّس كِرْشَه، وقال:

- لا ينقُصكِ شيء لتغمريني به.

لم يكن (فالستاف)[199] يبالغ، فالنقانق الضخمة من ذبائح الحيوانات، والسَّلَطات، والحَمَل المشوي، وما لا يُحصى من أنواع الفواكه والحلويات تُشبِع كتيبة.

ألحتْ عليه (بيبا) قائلة:

- بحقٍّ؟ لا شيء؟

وكانت قد أرفقتْ سؤالَها بنظرة نافذة.

قال (ديمتري):

- لا، يا سيِّدتي، بحقٍّ.

- (بيبا)..

- (بيبا).

- إنه لأمر مؤسِف. أرجو ألا تَأسَف على ذلك.

---

(197) الاسم الثاني أو اسم النسبة لـ (ديمتري)، ونادتْه به (بيبا) احتراماً له (المترجم).

(198) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتعني (المشاوي)، على طريقة (الشاورما)، ولكن على أسياخ أفقية، وهي تشتمل على أحشاء الحمل أو الماعز: كالأمعاء، والرئتين، والقلب، والكبد.. بعد غسلها جيداً وتمليحها وتتبيلها، وغمرِها بالليمون، إلخ، والكلمة بالحروف اليونانية (οκορέτσικ)، وهي طبق بلقاني أو تركي غالباً لأن اسمه بالتركية (kokoreç) (المترجم).

(199) يعني به هنا (ديمتري) نفسه، لشبهه ببطل شكسبير الذي مرت الإشارة إلى مواصفاته من قبل (المترجم).

إن النبرة التي نطقتْ بها الملاحظة الأخيرة هذه كانت ملتبِسَة على الأقل.

سأل (تيوفان) نفسه: بأي شيء تلعب؟ فمنذ بداية الغداء، كانت مُضيفتُهم تعرض جميع أوراقها الرابحة، تلعب بشعرها، ووِركَيْها، ويديها، وصوتها، وكلٍّ ذلك لهدف وحيد هو: أن تسبي عقل (ديمتري). لقد كانت أشبه بـ (سيلفانا مانغانو)[200] Silvana Mangano في قمة إغوائها. هل كان ذلك شذا خمر (فوكيانو) التي حملها إليها (ديمتري) أم الابتهاج بالشخص الذي عاد من بين الأموات؟

جهر (آخيل) بالقول وهو يرفع كأسه:

- Christos Anesti؛[201] المسيح قام!

فأجاب (ديمتري) و(بيبا) بشكل كَوْرَس:

- Alithos Anesti[202].

انفجرت ضحكات من بعض الجوانب. ضحكات أطفال. انطلق (أليكسيس) فجأة إلى الشرفة، يلاحقه ثلاثة من أولاد الأزقة، وهو يصيح:

- لقد فُزْتُ!

كان يلوِّح ببيضة ملونة بالأحمر وكأنها غنيمة. قال وهو يندفع نحو (تيوفان):

(200) سيلفانا مانغانو: ممثلة إيطالية (1930 - 1989)، عانت من الفقر في الحرب العالمية الثانية، وتدربت على الرقص، وعملت موديلاً، قبل فوزها بلقب (ملكة جمال روما) سنة 1946، فتلقفتها السينما ومثلت فيها جملة أفلام. وقد سبقت الإشارة إليها من قبل، من غير ذكر اسمها لأنه كان يزعم أنه قد نسيه، ويتذكره هنا (المترجم).

(201) كلمتان يونانيتان بحروف لاتينية بمعنى الترجمة الواردة بعدهما، أي (المسيح قام) يعني: قام من بين الأموات، وصعِد إلى السماء بعد صلبه وموته بثلاثة أيام، حسب المعتقد النصراني، وهي عبارة شهيرة للتهنئة، وتكتب بالحروف اليونانية (ἀνέστηχριστός) (المترجم).

(202) كلمتان يونانيتان أيضاً بحروف لاتينية بمعنى (حقاً، قام)، وتأتيان رداً على التهنئة السابقة وتكتبان بالحروف اليونانية (ἀνέστηἀληθῶσ) (المترجم).

- انظــر، يــا دكتور، إنها ســليمة! بينما بيضاتهم (وأشــار إلى رفاقه) تكسَّرتْ!

قال أحد الصبيان:

- لقد غششتَ!

- أنا؟ غششتُ؟

قالت (أنطونيا):

- اهدأ.

استفهم الطبيب قائلاً:

- هل يمكنك أن توضِح لي؟ بأي لعبة يتعلَّق الأمر؟

شرح (أليكسيس) قائلاً:

- تُمسِــك بيضتَــك بثـلاث أصابــع، وتَصدِمها بشــدة ببيضة منافســيك وأنــت تقــول: قــام المســيح «Christos Anesti»، والفائزُ هو الذي ينجح في أن يحافظ على بيضته ســليمة. وإن حصَل ذلك، كان له حظٌّ أكيد كلَّ السنة.

- تهانــيَّ. والآن، عِدْنــي ببعــض الأشــياء. إذا صــادف أن بقي لديك فائض من الحظ، ففكِّرْ بي. اتفقنا؟

مد الصبيُّ يده، وقال:

- صافِحْ!

- أُصافِح!

- وأنت، هل تريد أن تصطحبني للقيام بالغوص؟

قطَّبتْ (أنطونيا) حاجبيها وقالت:

- قُلْ لي، ألا تعتقد أنك تبالِغ؟

قال (تيوفان):

- لا عليكِ. سيســرني ذلك. ولكن لا يمكنني أن أكون حراً إلا

بعد الظهر، بعد مناوبتي. وعليك أن تخبرني قبل يوم.

أنارت ابتسامة مشرِقةُ أسارير (أليكسيس)، وقال:

- إذًا أخبرك: بعد غدٍ. وفي الساعة الثالثة. (أوكي) OK؟

انفجرتْ (أنطونيا) فقالت:

- (أليكسيس)!

فطمأنه (تيوفان) بيده، وقال:

- ليس هذا بشيء. أنا مغتبط. ولسوف أغوص أنا أيضاً معك.

واقترح على (أنطونيا) قائلاً:

- وأنتِ سترافقيننا، أليس كذلك؟

ظهرت على شفتي الفتاة الشابة تكشيرة خفيفة.

سأل الصبي:

- هل ستساعدني في تثبيت زعانف الغوص؟

وبقي هادئ الأعصاب.

اقترح (الباشا) فجأة تكريماً لـ (ديمتري) قائلاً:

- هل ترغب في تدخين سيكار جيد؟ وأنا لن أقدمه لك.

ثم التفتَ هذه المرة إلى (تيوفان)، وقال:

- أعتقد أني فهمتُ أثناء عَشائنا الأخير أنك لا تحتمل رائحته.

أوشك الطبيبُ أن يرُدّ بأنه لا يتذكَّر إطلاقاً أنه تطرَّق إلى هذا الموضوع، ولكنه تأخَّر في الرد كثيراً. فقد كان (آخيل) قد دعا (ديمتري) للتو أن يتبعه إلى الداخل.

صاح (أليكسيس)، وهو يدور على عَقِبَيه:

- Yassou giatros[203]. لا تنسَ. الساعة الثالثة، بعد غدٍ! لسوف تعطينا أمي السيارة.

(203) كلمتان يونانيتان بحروف لاتينية بمعنى (سلاماً أيها الطبيب) (المترجم).

قالت (أنطونيا)، وهي تمسِك بمقبضي عُكّازَتيها:

- سأذهب بحثاً عن قهوة.

قال (تيوفان):

- لا، لا تتحرَّكي، سأتكَفَّل أنا بها.

وتوارى غيرَ مبالٍ باحتجاجات الفتاة الشابة.

وعندما عاد، لم يجدها في المكان.

أمـر غير متوقَّع، إنها لا تـزال محيِّرةً. وتردَّد هو في الانطلاق للبحث عنها.

تجـرَّع القهـوة دفعـة واحدة. من قلـب المدينة كانـت تتصاعد أنغام الموسيقى، على إيقاع قرع الأجراس.

لمـاذا يَهيجُهـا الشـيطانُ هكـذا؟ في وقـت من الأوقـات، في مطعـم ومقهـى (غريكـوس)، اعتقـد (تيوفان) أنهـا لانتْ. لقد ضلَّ الطريق.

ألا تتذكَّر عبارات ميثاقك: إن كانت قد قرَّرتْ أن تكون (أثينا)، فإنك ستكون بحقٍّ صانع الفَخَّار؟

وكمـا هـي عادتـه، كان هـذا الوغدُ (تيمـور) قد طرح السـؤال الجيِّد. فهل كان (تيوفان) يرى نفسه في هذا الدور؟ لا يُعْقَل! مع هذه السـنوات من الفارق. لسـوف يبدو في مظهر عجوز فاسـق. ومع ذلك..

كـم مرَّةً، منـذ توقُّفِهما في (غريكوس)، ظهر طيفُ (أنطونيا) فـي مسـير الليالـي؟ وكم مـرَّةً تخيَّل راحـة يده على خـد الفتاة الشـابة، أو تخيَّـل خدَّه على خدِّهـا، وجَفنَيها قرب شـفتيه؟ هل هذه بِدعَة؟ أو ضلالة؟

لماذا تعيش وحيداً؟

لم يكن بإمكان (فالستاف)[204] أن يتوقّع أن فكرة التودُّد نفسَها إلى امرأةٍ لا تلامس أبداً روحه. لا شك في أن الخوف من إلحاق الألم بغيره، أو إلحاقه بنفسه هو سبب التردُّد. كم من الأيام، أو السنين، يمكن للمرء أن يحيا من غير أن يُحِب، أو من غير أن يُحَبّ؟ وأين يقع الحدّ الذي يحدُّد الحاجة الماسَّة لملء فراغ ويحدُّد الرغبة الحقيقية؟ وكم مرةً لم يَصِح المرءُ في حياته قائلاً: «ها هي ذي، ها هو ذا!»، ليستيقظ في بعض الأسحار فيما بعد وهو يَهْمِس: «إنها ليستْ هي على الإطلاق، إنه ليسَ هو على الإطلاق». عندما التقى (تيوفان) تلك التي ستصبح زوجتَه، كان مقتنعاً أنه في حضرة الحب الكبير. وفيما بعد، ويوماً إثرَ يوم، باشر الوهنُ عملَه التقويضي، من غير علمِهما. لم يكن منظوراً ولا معروفاً. وأخيراً، فإن الكائنات لا تتحابّ إلا في المستحيل، والخطر، والشكّ.

عادت (بيبا) إلى الشرفة مع (ديمتري)، وقالت:

- هل ترافقنا، يا دكتور؟

كان (ديمتري) وراءها بخطوة، ويداه معقودتان على بطنه، على اليسار قليلاً. وفكّر (تيوفان): «حقاً، لقد فَتنتْه». ثم سأل:

- إلى أين تذهبان؟

- نريد القيام بجولة في الميناء.

- و(آخيل)؟

- أتمزَح؟ هذه ساعة قيلولته. إنه يغطّ في النوم الآن. فهل تأتي؟

- أشكركِ. إن (سكالا) الآن تكون غاصَّةً بالناس. سأعود إلى البيت.

(204) يعني به (ديمتري) للسبب الذي سبقت الإشارة إليه من قبل.

فذكَّره (ديمتري):

- ولكنَّ السيارة معي.

- في هذه الحالة، سأنتظركما هنا.

جاء صوتُ (أنطونيا) قائلةً:

- لا تقلقوا. سأبقى برفقة الدكتور.

وتقدمت نحوهم بلهاثٍ هامس، وشفتين مشدودتين. ووقفت دفعة واحدة أمام الطبيب، وسألتْ:

- هل تعرف لعب الطاولة؟

فقال (ديمتري) ساخراً:

- بل إنه بطلٌ فيها.

- إذًا، سنلعبها.

أطلق اليوناني إشارة تشجيع صغيرة باتجاه الطبيب وتبِع خُطى (بيبا فاسِّيلي).

وخرج الاثنان دفعة واحدة، وأخذت (أنطونيا) مكانها على أقرب كرسي. وحين نظر (تيوفان) في وجهها، لاحظ أنها كانت تتنفس بصوت. ولم يكن قط رأى مثل هذا الشحوب في وجهها. فقال قلقاً:

- هل أنتِ بخير؟

- أعتقد ذلك. إنني بخير قدرَ الإمكان.

أراها فنجان القهوة الفارغ. وقال:

- آسِف. كنتُ أظنّ أنكِ لن تعودي.

اجتاح اضطرابٌ يدَيْ (أنطونيا)، وقالت:

- خطأ، يا دكتور. لقد ذهبتُ لأتناول الدواء الذي كنتَ قد وصفتَه لي في حالة الوجع المفصلي.

وأبدت له ابتسامةً شجاعة، قائلة:

- لا شيء خطيرٌ.

وكانت تريد أن تضيف شيئاً ما، لكنَّ شفتيها اللتين لا تزالان منفرجتين التصقتا بشدة، واجتاحتْها رَجْفةٌ قوية عبر كل جسمها. فمالت بجذعها إلى الأمام وتشبَّثَتْ بطرف الطاولة. فاندفَع نحوها، قائلاً:

- ما الذي تناولتِه؟

قالت بتلعثم:

- تناولتُ الـ (دانترو.. Dantro).. شيئاً من هذا القبيل.

- الـ (دانترولين Dantrolène).

قطّب وجه (أنطونيا)، وهي تنتفض باستمرار من الرجفة التي سرَتْ من يديها المتشنِّجتين حتى وجهها. نهض (تيوفان) دفعة واحدة، وقال:

- لا تتحرَّكي. سأعود.

وبعد لحظة، عاد إلى الظهور مع حقيبته الجلدية. وفتَّش في داخلها، واستخرج قِنينةَ (فاليوم Valium)، وحزاماً وإبرةَ حَقْنٍ وكحولاً بـ 90 درجة.

وجدت (أنطونيا) قوة للسخرية، بالقول:

- إبرة؟ إني أهيم بها!

شَدّ (تيوفان) الحزام فوق ثنية الكوع، ونظَّف التجويف الذي أتاح المجال لظهور وريدٍ. أصدرتْ (أنطونيا) أنَّةً خفيفة عندما غرز الإبرة فيه.

دام الحقْنُ بضعَ ثوانٍ. ثم قال (تيوفان):

- عليك أن تتمدَّدي. تعالَيْ، سأرافقك إلى غرفتك.

- بِمَ حَقَنْتَني؟

- بمضادٍّ للتشَـنُّج. صدقيني، الأفضل أن تأوِي إلى السـرير. أرجوك. تعالَيْ.

مال عليها ورفعها.

(12)

أغلـق (تيوفـان) النوافـذ الخارجيـة فغرقت الغرفة في شـبه عتمة لطيفة. وفي الخارج أصواتُ ضحكٍ تسـتمرّ في الانطلاق، بينما كانت الشـمس تسـتعدّ للذوبان فِي ظلٍّ جزيرتي (ليبسي) و(ماراثي) الصغيرتين.

نطقت (أنطونيا) بصوتٍ مهموس، ورأسها يرتاح على الوسائد، قائلة:

- (تيوفان)، لماذا أنا؟

سمعها (تيوفان) تنطق باسمه الشخصي للمرة الأولى.

جلس على طرف سريرها، وقال:

- ماذا تعنين؟

كرَّرت سؤالها قائلة:

- لماذا أنا؟ أيّ ذنب اقترفتُ لأستحقّ هذا الجسَد الأشَلّ، وهذه الساق المشوَّهة؟ ولماذا جعل القدَرُ مني دميةً بلا خيط حتى إن النـاس المهذَّبـين جـداً يتجنَّبون النظـر إليها عندما تمـرّ، ولكنّ الأنـذال والصغار يشـيرون إليها بالأصابع؟ لمـاذا؟ أعطني جواباً يا دكتور (دِبّانه)!

أمعن (تيوفان) النظر فيها مليّاً، وقال:

- أنــت تقترفـين خطأً، يـا (أنطونيا). أنت غير مسـؤولة عن حالتك ولا آثمة، أنت فقط ضحيةُ سبب طبيعي.

- طبيعي؟

- إن الأمـراض التـي تصيبنا لا تشُـنُّها علينا قـوىً خَفِيّةٌ أو شـيطانية، ولا المصادفـة، ولا الآلِهةُ. وإنما تنشـأ من اختلالٍ في توازننا الداخليّ. والطبيعةُ ليستْ غريبة، ولا ظالمة، ولا مجنونة، وهـي على العكس ثابِتـةٌ وأمينة في مسـلكها الخاص. ومرضك لم يقع عن قصد، وإنما جاء من فيروسٍ لشـلل الأطفال متفَشٍّ للغاية شـاء نحسه أن يقف في طريقك. ماءٌ ملَوَّثٌ وطعامٌ فاسِدٌ لا علاقة له بعقوبة خفِيَّة.

رمقتـه (أنطونيـا) بإمعان وعدم تصديـق، إن لم يكن بذهول، قائلةً:

- هـل أنتَ مُدركٌ لعدم تماسُـكِ افتراضك وأنـت تقول: «من فيـروسٍ لشـللِ الأطفال متَفَشٍّ للغاية شـاء نحسـه أن يقف في طريقك»؟

فأكّد لها ذلك.

لكنها قالت:

- وأنــت تعتقـد دائمـاً أنني أخطـئ عندما أطرح سـؤالي: «لماذا أنـا؟»، لمـاذا فيـروسُ الشـلل هذا وُجِـد في طريقـي أنا، لا فـي طريـق أخي، أو أمـي، أو صديقتي الأثيـرة، أو طريقكَ أنت؟ (تيوفان)، أنا لسـت عالمة مثلَك، ومع ذلك فإنني أتخيَّل أن هنالك كثيراً من الناس الذين يشـربون، في كل الأيام، من ذات المـاء، ويأكلـون من ذات الطعام الفاسـد الذي أفسَـد عليَّ حياتي. ومع ذلك لم يتأثّر هؤلاء الناس. لا تقُلْ لـي: لا! فأنتَ

تعلم أن الحق معي. الحقُّ معي، أليس كذلك؟

وبينما كانت (أنطونيا) تتكلَّم، خطر على بال (تيوفان) مقالٌ قرأه في مجلة علميّة حين كان يتابع دراساته في الطب. كان في القرن 19، فيزيائي ألماني، هو (روبرت كوخ) Robert Koch[205]، يُدافِع عن النظرية، التي أصبحت اليوم مقبولة على نطاق واسع، وتقول إن الجراثيم (البكتيريا) والفيروسات تشكِّل أسباب أمراضنا. وفي العصر نفسه، قام أحد زملائه، وكان معارضاً بضراوة لهذه الفكرة، بتجرُّع كأس من ماء ملوَّث بالبكتيريا الهدبِيّة (Vibrio cholente)، المسؤولة عن الكوليرا في رأي (كوخ). وكانت المفاجأة العامة، أن الرجل ظل في صحة تامة. وقد انتهت مقالة المجلة هكذا: «لسبب لا يمكن تفسيره، لم يشعر هذا الرجل بأي عَرَض، ولكنه كان مع ذلك على خطأ». غير معقول! فكَّر (تيوفان) فوراً. لقد عاش الرجل، ومع ذلك فإن كاتب المقالة أصَرّ على نقده النظرية (كوخ). فإذا كانت (البكتيريا الهدبية) تسبِّب الكوليرا، وإذا كان هذا الرجل لم يتأثَّر بها، فإذن كيف يكون على خطأ؟ وقد استنبط (تيوفان) من ذلك أن العالِم العلميّ كان يرفض عموماً أن يَأخُذ بالحسْبان الاستثناءات المتعلِّقة بنظريةٍ ما، لأن هذه الاستثناءات كانت تجازِف بأن تُقيم الدليل على حدودها.

---

(205) روبرت كوخ: فيزيائي ألماني (1843 - 1910)، وهو أحد مؤسسي (علم البكتيريا) bactériologie، واكتشف سبب مرض (الجمرة) anthrax سنة 1876، والجرثومة المسؤولة عن مرض السل الرئوي (الدَّرَن) المسماة باسمه (عُصَية كوخ) سنة 1882، والجرثومة المسؤولة عن مرض (الكوليرا) سنة 1883. وقد نال جائزة نوبل في الفيزيولوجيا سنة 1905 (المترجم).

لماذا أنا؟

لما كان (تيوفان) مرتبكاً، فقد صلَّى بصمت من أجل أن يأتيه جواب متماسِكٌ، فلم يجد شيئاً.

ولما كان مَرهقاً قليلاً، سُمِع يُدَمدِم بقوله:

- Mektoub[206].

وما إنْ نطق بهذه الكلمة، حتى قال في نفسه إن (أنطونيا) سوف تلعنه لهذا الاعتراف بجميع أنواع العَجْز، ولهذا العُذر الذي يستدعيه (الإسلامُ) بشدَّة لتسويغ قُصُور المرء الذاتي[207]. ولكن لا. على العكس، ظهر بريقٌ مَرِح في عينيها. وقالت:

- أبعِدْ عنك العامل الطبيعي.. فأنت بعدَ ما يقرُب من ثلاثين عاماً في (الغرب) تظلُّ في النهاية عربياً.

وباندفاع عفوي أخذتْ (أنطونيا) يدَه وضغطَتْ عليها بلطفٍ. وفي الحال، سَرَتْ في جسم (تيوفان) رعشَةٌ، امتدَّتْ موجتها إلى بطنه وقلبه. وفي لحظةٍ، لحظةٍ واحدة فقط، فكَّر في أن عليه أن يتخلَّص. وعندما حرَّر يده، كان ذلك من أجل أن يطوِّق يدَ الفتاة الشابة. كانت أيديهما تتبادل الكلام، هذا أكيد. وكانت أصابعهما تتبادل الكلمات. لقد تسلَّلتِ

(206) كُتب هذا اللفظ العربي (مكتوب) هنا بالحروف اللاتينية، ولعله يقصد به أن هذا ما كتبه القَدَر الغيبي على المرء، كأن يمرض أو يُصاب بمصيبة، على حد قول العامة (إللي مكتوب عالجبين لازم تشوفه العين)، في نوع من التسليم بالحتمية أو الجبرية في الحياة، وهذه الكلمة التي خطرت على بال المؤلف في هذا السياق من تأثير فترة عيشه الأولى بمصر (المترجم).

(207) يشير المؤلف هنا، على لسان (تيوفان)، إلى مسألة التسليم بالقضاء والقدر في الخير والشر مما لا يملك المرء لنفسه فيه شيئاً، لا جلباً ولا ردّاً، وهو ما يعرف في الفلسفة الإسلامية بالجبرية، أي أن الإنسان مسيَّر في الحياة، في مقابل الفلسفة التي تقول بأنه مخيَّر، وتُعرف بالفلسفة القَدَرِيّة (المترجم).

الحياة للتو بـين وحْدتيْهِما. أغمض (تيوفان) عينيه. وعندما فتحَهما، كانت (أنطونيا) قد غَفَتْ.

* * *

همسَ صوتٌ:

- دكتور (دِبّانِه)؟

التفتَ (تيوفان)، فرأى (آخيل) على عتبة الغرفة.

كانت (أنطونيا) لا تزال نائمة. فنهضَ (تيوفان) بهدوء.

سأل (الباشا):

- هل هي بخير؟

- إنها أفضل.

وأغلق الباب.

وفي الصالون بعد ذلك، كان (الباشـا)، يمسِك مسبحته، وقد دعـا الطبيـبَ إلى الجلـوس بجانبه علـى الأريكـة. كان الصمتُ يسـود في البيت، فقد كان (ديمتـري) و(بيبا) يواصلان جولتهما في (سـكالا). كانت الساعة 16:10. كم من الوقت بقي (تيوفان) جالساً على السرير؟

قال (الباشا):

- ما الأمر، يا دكتور؟

- كانتْ أوجاعها العضلية تعذِّبها. وقد أعطيتُها حُقنَة.

- يا للصغيرة المسكينة. إنني لم أعرفها في صحة جيدة سوى بضعة أشـهر. وعندمـا قدَّمتْ أمُّها أحدَنا للآخـر، كانت (طونيا) قد بلغت الحادية عشرة من العمر. وبعد سنة، أصابها هذا المرض القبيـح. يا لَلتعاسـة! فتـاةٌ جميلة جداً، ومتأَلِّقة جـداً، حُطِّمَتْ بهذه الطريقة.

ثم قال:

- Mektoub[208].

فعلّق (تيوفان) على ذلك قولَه:

- فعلاً.. إن هذا الأمر في مورِّثاتِك (جيناتِك)، أنتَ أيضاً..

طَرَف (الباشا) بعينيه، وقال:

- عفواً؟

- لا شيءَ. لا شيءَ مهِمٌّ. هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً فضولياً؟

- إنْ قلتُ لك لا، فإنّ حوارنا يجازف بأن يكون قصيراً. ولسوف آسَف على ذلك. هيّا قُلْ.

- كيفَ عرفتَ (بيبا)؟

أخذ (آخيل) نفَساً، وقال:

- أوَليس لديك سؤالٌ آخر؟ لأنك تجازف بأن يُخيِّبَ الجوابُ أملَك.

- قُلْ على أيّ حال.

- بالمصادفة. عرفتُ (بيبا) بالمصادفة. ذات يومٍ، في مكانٍ ما.

- هذا هو ما يستحق التوضيح.

- تخيَّل المشهدَ، قبل عشرين سنة. وكنتُ لا أزال نشيطاً نسبياً. وكانت هي، في أوج جمالها، ثمرةً يانعَة. وقد وقعتُ في غرامها، لا إلى أقصى حدٍّ، ولكن برفقٍ. كنتُ أحترِس من الأهواء، فقد كانت تُحرِق ولكنها لا تُدْفِئ. وقبل خمس سنوات أودت

(208) يكرِّر (الباشا) هنا ذات الكلمة التي ذكرها (تيوفان) آنفاً لـ (أنطونيا)، تعبيراً عن التسليم بما يأتي به القدَر، وذلك من غير اتفاق بينهما، وقد تنبَّه (تيوفان) فوراً، وأطلق تعليقه، الذي يعبِّر عن وجود تأثير مشترك للعيش السابق لكليهما في مصر بين المسلمين (المترجم).

بزوجتي (لوكيميا) leucémie [209] صاعقة. فماذا يفعل المرء حينما يكون في عمر أقلَّ من الستين، ويكون ثرياً، وفي صحة جيدة، ووحيداً في هذا العالم؟ وأخيراً، كنتُ وحيداً تقريباً. كان لديَّ دوماً كثيرٌ من الأصدقاء.

- أوَليس لديك أطفال؟

- لا. لا زوجتي (ليلَى) Leila، ولا انا كنا نتمنّاهم. لأن المرء يمكن أن يعيش عيشة أفضل بلا أطفال. هل لديك انت أطفال؟

فتَّش (تيوفان) في سترته وأمسك بعلبة سكائره، وقال لـ (الباشا):

- هل ترغب في واحدة؟

- أنا لا أدخِّن سوى سيكار، وأيضاً لا أكثر من واحد في اليوم. قلبي لا يحبّه كثيراً.

- معه حقّ. و(ليلَى).. شَرقيَّة، أظُنّ؟

- إنها مصرية ومسلِمة. ولكنها مسلِمة حقيقية. وليست من اللواتي بدأ المرء يلتقيهنّ في شوارع (القاهرة). وقد رفضتْ أن تتحوَّل عن دينها احتراماً له. ومن نحو آخر لم تكن هي تتمنَّى هذا التحوُّل. ولكنني انا مَن انتقل إلى الجهة الأخرى.

- ومن غير حالة نفسية؟

- أبداً. ففي نظري هناك ما يَمُتّ بصلة إلى حكايات الجنيات. ومن غير happy end [210]. لقد هِمْتُ

(209) اللوكيميا: سرطان الدم، ويعرف أيضاً بابيضاض الدم، نظراً للتكاثر الشاذ للكريات البيض في الدم على حساب الكريات الحمر التي تحمل الأوكسيجين من الرئتين إلى القلب فسائر الأعضاء، وتعود بثاني أوكسيد الكربون من سائر الأعضاء إلى القلب فالرئتين (المترجم).

(210) نهاية سعيدة (المترجم).

بـ(الثلجة البيضاء)[211] Blanche Neige. ولم يكن كثيراً أنني كنت مستعداً لأن أضحّيَ بحياتي من أجل الأقزام السبعة[212]. فلو كانت (ليلى) بوذيّة[213]، لكنتُ تحوَّلتُ براهمانياً[214].

- لا يسَعُني إلا أن أشاركك في الراي بخصوص التحوُّل الحزين الجاري في (مصر) وفي كل (المشرق) أيضاً. فأثناء رحلتي الأخيرة، إلى هناك، راعني أن أكتشف في شوارع طفولتي

(211) الثلجة البيضاء: حكاية شعبية المانية الأصل تدعى بالألمانية (Schneewittchen) بالمعنى نفسه، لها روايات كثيرة تختلف في التفاصيل وبعض المفاصل، وقد جمعها ونشرها الأخَوَان (ياكوب وفيلهلم غريم) Jacob und Wilhelm Grimm، ونشراها سنة 1812، وقد ترجمت إلى لغات كثيرة منها الفرنسية، والإنكليزية بعنوان (Snow White)، وقد اقتبست في ميادين مختلفة منها: الأفلام السينمائية الصامتة والناطقة، وأفلام الرسوم المتحركة، والمسرح، والموسيقى، والأدب، إلخ. وأطلق اسم (بياض الثلج) على أفلام الرسوم المتحركة المدبلجة بالعربية، ونفضل تسمية (الثلجة البيضاء) أي القطعة من الثلج، لا (الثلج الأبيض) كما هي الترجمة الحرفية للاسم، وقد ذكرها المؤلف في هذا السياق للمبالغة في جمال الأميرة التي أطلق عليها هذا الاسم في عصرها. وقد كنى (آخيل) باسمها هنا عن (ليلى) عندما أحبها وتزوَّجها في عز شبابها وجمالها (المترجم).

(212) الأقزام السبعة هنا هم الذين أوت الأميرة (الثلجة البيضاء) إلى كوخهم في الغابة، حين هربت من خطر امرأة أبيها الملك، وعاشت معهم وساعدوها حتى تزوجت من الأمير الذي هام بها وأنقذ حياتها في نهاية المطاف (المترجم).

(213) البوذية: ديانة أرضية وفلسفة أسسها (بوذا الشكياموني) (536 - 480 ق.م) في الهند، لكنها انحسرت منها نهائياً تقريباً لصالح الهندوسية، وأكثر البلدان التي تنتشر فيها البوذية تقع في شرق آسيا وجنوبها الشرقي، وعلى النحو التالي حسب النسبة المئوية لسكانها: كمبوديا (97)، تايلاند (93)، لاوس (90)، بورما (80)، بوتان (75)، سريلانكا (69)، منغوليا (55)، الصين واليابان والكوريتان وفييتنام (36)، سنغافورة (33)، تايوان (21)، نيبال (15). وكان لـ (بوذا) تمثال ضخم جداً منحوت في واجهة جبل في باميان في أفغانستان تم تفجيره من قبل نظام حكم طالبان سنة 2001. ومما يروى هنا أن البوذية أخذت تتفشى ولو على استحياء في بعض الدول الإسلامية كالباكستان وإيران، وإلى بعض الدول العربية كلبنان والسعودية وقطر والإمارات، ربما بسبب العمالة الآسيوية فيها. يبلغ مجموع البوذيين في العالم نحو 500 مليون نسمة، والغالبية العظمى منهم في البلدان التي ذكرنا النسبة فيها. وهي في ترتيب الديانات - من حيث الانتشار - رابعة بعد: النصرانية، فالإسلام، فالهندوسية (المترجم).

(214) البراهماني: نسبة إلى (براهما) إله الخلق في الديانة (الهندوسية) التي تعد ثالث ديانة من حيث عدد الأتباع بعد: النصرانية، والإسلام. ويبدو أن المؤلف خلط هنا، على لسان (آخيل)، ما بين البوذية والبراهمانية التي هي (الهندوسية) نفسها في تعبيره من حيث لا يدري، ومركز ثقل هذه الديانة في الهند ونيبال (المترجم).

التغيّر. ويمكنني أن أؤكِّد لك أنَّهُنَّ كُنَّ من المسلمات النبيلات، وبهذا الخصوص، عليَّ أن أروي لك مشهداً لا يزال منقوشاً في ذهني. وكان هذا المشهد قد جرى في (القاهرة)..

توقَّف (تيوفان) من أجل إطفاء سيكارته في المِنْفَضة، ثم تابع يقول:

- كنتُ آنذاك أتناول فطوري في صالة الطعام، لا أدري في أي فندقٍ. وكانت هنالك امرأة منقبّة، وتجلِس قُبالتي إلى طاولة، ويداها في قُفازَين أسودين. وتضع طفلها على ركبتيها. كانت هذه المسكينة ترغم على أن ترفع حجابَها جزئياً لتلتهم طعامها. إنها صندوق رسائل بشري. وما أثَّر فِيَّ، حقيقةً، هو موقف الطفل. فقد وَقَفَ الطفل طوال الفطور على محاولة يائسةٍ لنزع الحجاب عن أمه. هل يمكنك أن تتصوَّر الأفكار التي كانت تتزاحم في رأس هذا الطفل المحروم فجأة من وجه أمه؟ بين الأقربين، كان بإمكانه أن يتأمَّله على مهلٍ. أما هنا، بين الجمهور، فكان الوجه محجوباً عنه. وهذه حالةٌ عجيبة يمكن أن يستمتع بها الدكتور (فرويد)[215] Freud، الا تعتقد ذلك؟

قال (الباشا):

- لنتجاوز الأمر! إن مجرَّد الحديث عن ذلك يحرِّك عليَّ قَرْحتي.

(215) فرويد: (سيغموند - Sigmund)، عالم أعصاب نمسوي (1856 - 1939)، أسَّس (علم النفس التحليلي)، وكانت فرضياته عن اللاوعي، والـ(هو)، والـ (أنا)، والـ (أنا الأعلى)، وكبت الدوافع، والأهمية المركزية للنزعة الجنسية، والـ (ليبيدو) أي (البحث الغريزي عن اللذة)، وفكرة العقد، وتفسير الأحلام،»وسوى ذلك، قد أحدثت ثورة في علم النفس، وأحدثت تحوُّلاً في رؤية الكائن البشري، وقد أفاد كثيراً من معطيات الأدب القديم (المترجم).

- لنتجاوَزْهُ، كما قُلتَ. والأفضل أن نتحدَّث عنك وعن (ليلَى): لماذا لم تكونا تتمنَّيان أطفالاً؟

- لأننا ربّما كنا نشكّل بزَهو الزوجين الأكثر أنانيةً في العالم. وقد كُفِيْنا الرضّاعات، والحفَّاظات، والبكاء. وأنا لا أعرف من قال: «إنجابُ الأطفال شكلٌ من الخلُود». وأنا و(ليلَى) كنا نريد أن نعيش، وأن نسافر، وأن نزور أجمل الأماكن في هذا الكوكب. وباختصار، لقد ضحكنا كثيراً وعشنا كثيراً.

أطلق (تيوفان) نفثةَ دُخانٍ بقيتْ معلَّقةً بنور الغرفة الشاحب، وقال:

- ليس لديك أطفال، ولكن عندك (أنطونيا).

- إنها هَدِيةٌ. نعم، وأنا أحبها بعمق. وأعلم أنها تقدُرك. إضافة إلى أنني مقتنع بأنك تحمِل لها الكثير. بل سوف أذهب إلى أبعد من ذلك: أعتقد أنها تحمِل لك مثل ذلك.

ابتسم (تيوفان) وقال:

- ولهذا السبب تركتنا وحيدين على المصطبة؟

- لا يمكنني أن أخفي عنك شيئاً. إن اللقاءات لا تكون دوماً ثمرة المصادفة. إن الأطفال الذين يشكِّلون حيواتنا هم أكثر تعقيداً وغموضاً بكثير. إن النساء، والرجال، والحيوانات، والأطفال جميعاً ليسوا سوى طلاسم.

وتابع بلهجة نشطة مفاجئة قائلاً:

- (تيوفان)، قُلْ لي الحقيقة، ألا يمكن فعل شيء من أجلِها؟ لقد عرَف الطِّبّ تقدُّماً كبيراً منذ خمسة عشر عاماً. أوَليس هنالك أيّ مداخلة جراحية لها؟ إن لدَيّ المال، وأنت تعلم. لقد كلَّفني هذا النُّزُل ثروةً طائلة. ولسوف أقدِّم عن طِيْبِ خاطرٍ كلَّ ما بقي لديَّ إن كانت هنالك فرصةٌ، ولو كانت بسيطةً، لشفاء (أنطونيا).

اعترَف الطبيب بعجزه قائلاً:

- لسوء الحظ، فيما يخصّ جلسات إعادة التأهيل، التي تسمح أحياناً بأن تشجِّع تنشيط بعض العضلات العاجزة وتحسينَها، ليس هنالك شيءٌ. وينصح بعض الأطباء بالتنبيه الكهربائي التوظيفي، وأما أنا، فإنني أعبِّر عن شكٍّ في ذلك، لأن هذا التنبيه يمكن أن يُنهِك العضلة التي يريد أن يحسِّنها.

أخرج (آخيل) ساعة جيبه من صدريته وقال:

- أصبح الوقتُ متأخِّراً. إلى أين ذهبا؟

- أتصوَّر أنك تتحدَّث عن (ديمتري) و(بيبا). من المحتمل أنهما نسيا نفسيهما وهما يثرثران. ألا تعرف (ديمتري). إنه ثرثار للغاية، حتى إنه ليحدُث أن يكلِّم نفسَه وهو بمفرده تماماً.

كان (تيوفان) قد اتَّخذ، عن طيب خاطر، لهجة خفيفة، ولكنه في أعماقه، لم يكن يشعر براحة. فقد شاهَدَ رقصة المناديل السبعة[216] التي انهمكت فيها (بيبا فاسِّيلي) طيلة الغداء وتمكَّن من رؤية قطرات العرق التي كانت تُلهِب جبين المسكين

(216) رقصة المناديل السبعة: ورد في (إنجيل متى: الإصحاح 14، الفقرات 3 - 11) أن القديس (يوحنا المعمدان) Jean - Baptiste (وهو النبي يحيى بن زكريا عند المسلمين) كان يقول للملك اليهود (هيرودس أنتيباس) (7ق.م - 39م) إن هيروديا زوجة أخيه لا تحلُّ له زوجة، فسجنه (ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبي. ثم لما صار مولد هيرودس رقصت ابنة هيروديا (وهي الأميرة اليهودية سالومي Salomé) في الوسط فسَرَّتْ هيرودس. ومن ثَمَّ وَعَدَ بقَسَم إنه مهما طلبتْ يعطيها. فهي إذ كانتْ قد تلقَّنتْ من أمها قالت أعطني على طَبَق رأسَ يوحنا المعمدان. فاغتمّ الملك ولكن من أجل الأقسام والمتَّكئين معه أمر أن يُعطَى. فأرسَل وقطع رأس يوحنا في السجن (سنة 28م). فأُحضِر رأسُه في طبق ودُفِع إلى الصبيَّة فجاءت به إلى أمها)، ويروى أن الرقصة التي رقصتها (سالومي) هي رقصة المناديل السبعة، وسمِّيَتْ بذلك لأن الراقصة كانت تلفّ جسدها بسبعة مناديل رقيقة، كل منها بلون مختلف، فتحلّ الأوّل وترقص به، ثم ترميه، وتحلّ الآخر حتى السابع، وتنتهي الرقصة بذلك. ويبدو أن أصل هذه الرقصة القديم كان فيما يروى في الأساطير البابلية والآشورية أن إلهة الخصْب (عشتار) كانت أول من رقصها، ولكن فيما يشبه تعري الراقصات قطعة قطعة في أيامنا أو رقص الـ (ستريبتيز) strip - tease حتى تنتهي من آخر منديل عارية تماماً أمام الحضور (المترجم).

(فالستاف)[217]. وأعلن تلقائياً قوله لـ (آخيل):

- لا تقلَقْ. فلن يتأخَّرا.

انفجر (الباشا) ضاحكاً، وقال:

- أقلَقُ؟ أنتَ حقاً مثير للشـفَقة وإني لأدرِك ما تعني ضمناً. كن مطمئناً. إن العلاقات بيني وبين (بيبا) ليسـت تلك العلاقات التي تعتقدها. إني أحبُّها، وأهيم بها، لكونها: مندفعة، ومجنونة، وغيـر معقولة، ومتصلِّبـة، ومشـبوبة العاطفة، وجَذّابـة للغاية، للغايـة. وكنتَ فـي الحال قد أعلنْـتَ أنني وجدتُ فـي (أنطونيا) ابنةً. لا. لقد وجدتُ فيهما اثنتين: و(بيبا) هي الثانية. صدِّقْني، إنني..

ثُـمّ توقَّف. فقد صدرت صرخةٌ حـادَّة دوَّتْ للتوّ آتية من غرفة (أنطونيا). فقفَز (تيوفان) أولاً.

وعلى عتبة الغرفة كان ينتظره مشهد مُريعٌ: كان (أليكسيس) جاثيـاً علـى ركبتيه قرب أخته الممدَّدة علـى الأرض، وكان يتأمَّلُ، غيرَ مصدِّق، خيوط الدم التي كانت تسـيل، من غير انتظام، من الرُّسُغ الأيسر لـ(أنطونيا)، مشكّلةً بَتَلات حمراء فوق البلاط.

وعلى السرير كان يلمع الطرف الحادُّ من شظِيّة مِرآة.

(217) يعني به (ديمتري) (المترجم).

(13)

وهـذا مع ذلك أمر بسـيط، يـا صديقي. فهنالك دومـاً حياةٌ مـا تحتـاج إلـى إنقاذ. وبلا شـكٍّ ليس كليـةً، ولا نهائيـاً، ولكنها موجـودة. ففـي كل يوم، ومن غيـر أن نعلم ذلك، نمـرُّ إلى جانب منتحرين مستقبليين.

عندمـا تلفَّـظ الدكتور (باباداكيـس) بهذه الكلمـات، لم يكن يتصوَّر قطّ كم كان يقول الحقيقة.

* * *

كانـت هـذه غرفةً صغيـرة جدرانها بيضاء علـى صورة جميع الغـرف في المشـافي، علـى الرغم مـن أننا لا نسـتطيع أن نطلِق كلمة مشفى على مُنْشأةٍ متواضعة جداً كمستوصَف (شورا).

كانـت (بيبـا)، وهي جالسـة على الكرسـي الوحيـد، وعيناها مغرورقتـان بالدمـوع، تسـحق، وتدعـك، وتضغط بـين أصابعها منديلاً صغيراً، وكأنها كانت تسعى إلى أن تبثّ فيه حزنها.

وبقـي (تيوفـان) بقربها، وهو مسـنِدٌ ظهره بوقـار إلى الباب، متنبِّهـاً لأقل حركة في وجه (أنطونيا). لقد كانت الفتاة الشـابة غافيةً. متعبة كما لو أن سُمّاً كان قد سرى فيها. وكانت قَسَماتُها معذَّبةً، كما لو كانت روحها تهشَّـمتْ عبر جسـدها. وكانت خُصَل

الشعر السوداء التي تغطّي جبينها وخدَّيها جزئياً، تبرز الشحوب البالغ جداً لقَسَماتها. وعلى ذراعها الأيمن، ثُبِّتَتْ إبرةُ مَصْلِ (سيروم غلوكوز) يَقْطُر ببطء. وبعد ساعة قبل الأوان، ولأسباب غير مفسّرة، توقَّفت القطرةُ - قطرة، وهذا خطأ من الممرِّضة، فسحب (تيوفان) الإبرة بنفسِه وشكَّها في وريدٍ آخَر.

* * *

«أنتَ لا ترى هدفاً لحياتك. أنت غائص للغاية هناك حتى إنك لا ترى بوضوح. أنتَ لا تفكِّر في شيء، ما دمتَ في الداخل. قبلُ، ثم بعدُ، ولكن طيلةَ الوقت، أنت لا تفكِّر في شيء. أنت تبدأ. ولكن قبلُ، من المؤكَّد أنك فكَّرت فيه: (هل فعلتُ ذلك أم لم أفعلْه؟). في لحظةٍ ما، تحقَّقتُ من أنني كنتُ أهمّ بالرحيل. وقلتُ لنفسي: (ما الذي سيحدث الآن، وحالاً، لو أنني مت؟)».

هذا البَوْح الذي قدَّمَتْه إليه، قبلَ نحو عشر سنين، صبيّة في الرابعة عشرة من عمرها، لم يكُفَّ عن الدوران في رأس الطبيب. كانت هذه الصبيّة قد نُقِلَتْ إلى قسم الطوارئ بعد محاولتها الانتحار. قامت الخدمة الداخلية بتقديم الإسعافات الأولية لها، ولكنها كانت، على ما يظهر، من غير أهلية كافية. فأدى ذلك إلى ارتخاء قلب هذه البنت الصغيرة. كان ذلك يوم الإثنين. ونحو الساعة الثالثة عشرة، كان (تيوفان) قد أنهى للتو مداخلةً ثقيلة: هي تجسير الأبهر التاجي لمريض، وكان أكثر تعقيداً من المتوقَّع. واستغرقت العملية ستَّ ساعات. وبينما كان يخرج من غرفة العمليات، هُرِعتْ ممرِّضةٌ مضطربة لتطلب إليه أن ينقذ تلك الفتاةَ المراهِقةَ، قائلةً:

- أرجوك، يا دكتور (دبّانه)، إن الخدمة الداخلية فقدت السيطرة.

فقام بإنقاذها.

كان بالإمكان أن تبقى الأمور على ما هي عليه هنا. غير أن عمل هذه الفتاة المراهقة ظلَّ يعصف به. كيف يكون بإمكان كائنٍ أن يقرِّر ببرود أن يلغي نفسَه؟ النهاية لا تطرأ فجأة على أي حالٍ؟ إذًا، لماذا استعجلتْها؟ ثُمَّ إنَّ هذا الفعلَ كان يتعارَض إلى أقصى حدٍّ مع الفلسفة التي كانت تُلهِم حياة (تيوفان) منذ سنين، وهي: إنقاذ الحيوات. الحفاظ على الحيوات. صَوْن الحياة. الحياة. إنها صِراعُ (سيزيف)[218] Sisyphe، الذي يتكرر دومًا. لم يستطع (تيوفان) أن يمنع نفسه من سؤال البنت الشابة فقال:

- هل فكَّرتِ في العذاب الذي كنتِ ستجلبينه للآخرين؟ لوالدَيك؟

- كنتُ أقول لنفسي فقط: ماذا سيفعلان حين يجدانني في غرفتي؟ وكنتُ أعتقد أن بعضهم سيكون حزيناً وبعضهم الآخر سيكون سعيداً.

(218) سيزيف: كان - في الأساطير اليونانية القديمة - مؤسِّس مدينة (كورنثة) Corinthe في اليونان وكان ملكاً عليها، ويروى أنه وَسَّع البحارة والتجارة، غير أنه ظهر بخيلاً ومخادعاً وكان يقتل المسافرين، وقد حكمتْ عليه الآلهة بعقاب هو أن يُدَحْرِج في الجحيم، وإلى الأبد، صخرة من سفح جبل إلى قمته، لكن الصخرة كانت تسقط إلى السفح كلما اقترب من القمة، فيضطر إلى رفعها مرة أخرى. وقد ذكر (هوميروس) عقابه هذا في (الأوديسّة: الأنشودة 11)، ولكنه لم يذكر السبب، وذكرت بعض الروايات أن السبب هو تجرُّؤه على تحدي الآلهة، وذكرت أخرى أن السبب هو كونه قاطعَ طريق وشريراً مجرماً. وقد اتَّخذه بعض الشعراء العرب المحدَثين رمزاً لعذاب الإنسانية الأبدي ومعاناة الناس (كالبياتي والسيَّاب). واتخذه (البير كامو) في كتابه: أسطورة سيزيف (المنشور سنة 1942 في دار غاليمار بباريس)، رمزاً لعبثية الحياة التي تجري فيها أشياء غير معقولة تدعو بعض الناس إلى التمرُّد أو الانتحار (المترجم).

- سعيداً لرؤيتك ميتَة؟

- نعم. انت لا تَدرِك الأمر. إنني لم أكن أنا نفســي، لقد كنتُ مُقاطَعَـة من الجميع، وكنت أهزَأ مــن الجميع. وكان بإمكاني أن أجعل قطاراً يسحقني، ولم يكن ذلك يزعجني. كان في رأسي أنه يتعـيَّن عليَّ أن أموت. ولم يكن هنالك شــيء يوقِفَني. كنتُ أرغب في أن أضع حدّاً نهائياً لعذابي. ينبغي أن يكون الموت خلاصاً.

- خلاصاً من أي شيء.

- من هذه الحياة! من هذا الغلاف النتن لروحي. ولقطع كل هذه العلاقات. لأتخلَّص..

هذه الأفكار نفسُها ربما كانت تتزاحم في ذهن (انطونيا).

* * *

قالتْ (بيبا) وهي تنظر إلى (تيوفان) نظرتها إلى مُخلِّص:

- (تيوفان)، هل تعتقد أنها ستخرج من هذه الأزمة؟

- لقد تم ذلك. وهي تتخلَّص منها. لا تقلقي.

- لـولاك لكانت سـتموت. وأنت تـدرِك الأمــر، أليس كذلك؟ لقد أنقذتَ حياتها، وأنقذتَ حياتي.

هَزَّ (تيوفان) رأسَــه. فهو لم يصنع شـيئاً ســوى أنه أدَّى عملاً يقوم به أول مُسْعِف. وهو عَقْدُ رِباط لمنع النزيف أعلى الجرح.

ولحسـن الحـظ أنّ (انطونيـا)، وهي تقطـع الأوردة، لم تصل إلـى العصَـب. لو حدث ذلـك، لوجـب أن تتطلَّب وحـداتِ دَمٍ من (ناكسوس)[219] Náxos، لا بل من (اثينا).

اقترح (تيوفان) قائلاً:

(219) ناكســوس: جزيــرة يونانية في بحر إيجــة، تقع في منتصف المســافة تقريباً بين جزيرة (باتموس) والعاصمة (أثينا) (المترجم).

- تعالي نذهب لنشرب كأساً.

فمشَتْ على خطاه.

في الخارج، كان الوقتُ ليلاً. كان نور نصف القمر ينعكس على الحجارة السود والبيض التي تكوِّن بلاطَ الزُّقاق.

شاهدا مقهىً (Kafeneion) ووجدا فيه طاولة شاغرة بأعجوبة. فطلب زجاجة شراب (أوزو)، فطلبتْ مثلَه. كان هنالك جوٌّ احتفاليّ مرِح يسود حولَهما، بعيداً عن المأساة التي كانت أسرة (فاسِّيلي) تعيشها، وعن مأساة (أنطونيا).

«إنه لأمرٌ مدهِشٌ حين ترِنُّ خطوات امرأة في دماغ الفقراء التعساء».

إنها كلمات جميلة لـ (فرلين)[220] Verlaine. وإنه لأمر طريفٌ حين يقيم الدماغ أحياناً جسوراً بين فكرة وفكرة أخرى. فبأيٍّ رابط يتمّ ذلك؟ هل تصبح سعادة الآخرين غير مسموح بها لمن يتعذّبون؟

سألت (بيبا)؟

- يمكن لـ (أنطونيا) أن تبدأ من جديد، أليس كذلك؟

لم يفاجئه سؤالُها. فهو دوماً السؤال الذي يطرحه المحيط بعد كل محاولة انتحار.

أبى (تيوفان) أن يكذب عليها، فقال:

- هذا ممكِنٌ في الحقيقة. وعلينا أن نسهر عليها أكثر من أي وقتٍ مضى.

(220) فرلين: (بول - Paul) شاعر فرنسي (1844 - 1896)، كان شعره يلعب على وتر الأحاسيس والرموز، مع جِسٍّ موسيقي نادر، عن طريق التحوُّلات وعدم الاستقرار، مستخدماً موارد اللغة المختلفة (المترجم).

قــال (علينـــا)، طبعاً، كما لو كان يشــعر من الآن بأنه مســؤول أيضاً عن مصير (أنطونيا).

- لو كنتَ تعلم كم كان الأمر كلُّه قاسياً عليَّ.

أمعن (تيوفان) النظر فيها، مندهِشــاً من أن يراها شاخَتْ في بضع ساعات.

استأنفتْ كلامها وهي تحدِّق في الأفق قائلة:

- هل روى لك (الباشا) كيف تلاقينا؟

ولم تنتظر (بيبا) الجواب، وقالت:

- تلاقينا في ماخور.

واستأنفت تقول:

- أوه! لا تتصوَّر أنه ذو صلة بواحد من بيوت الدعارة عند سِفْلَة الناس. لا. كان المكانُ فاخراً، ذا عمدان، وأبواب، ومرمر في كل مكان، وغــرف فخمــة. إنه مكان فخْمٌ جداً تقريباً، كما هو شــأن هذا البيت الباريسي المغلق[221] cette maison close في أيامِ زمانٍ.

قال (تيوفان):

- الـ (شابانيه)[222] Le Chabanais؟

- نعــم، الـ (شــابانيه). يروى أن أحد زبائنه الأكثر شــهرة كان ملكَ (إنكلترا) (إدوارد السابع)[223] Édourd VII أو (الثامن)،

---

(221) مبنى يقع في رقم 12 شـــارع (شابانيه) في الدائرة الثانية بباريس، كان واحداً من البيوت المغلقــة الأكثر شــهرة وأناقة في باريس بين عامــي 1878و1946، التاريخ الذي أصبح فيه غير قانوني في (فرنسا). ومما يروى عنه أن شخصيات كبيرة وبارزة كانت تتردَّد عليه: كبعضٍ رجال الدولة، والدبلوماسيين، والوزراء، وكبار الموظفين: منهم الأمير البريطاني الذي أصبح ملكاً باسم (إدوارد السابع) الذي ستذكره (بيبا) في المتن (المترجم).

(222) يقصــد بالبيت المغلق هنا البيت الذي تمارس فيه الدعــارة المنظمة تحت أنظار المجتمع (المترجم).

(223) إدوارد السابع (1841 - 1910): أصبح ملك بريطانيا سنة 1901 إلى وفاته (المترجم).

لا أدري، وكان لا يزال آنذاك أمير (غالّ)[224] Galles.

قال (تيوفان):

- لم يكن في المبنى سواه. كما كان (موباسّان)[225] Maupassant، و(أناتول فرانس)[226] Anatole France..

وكلُّ مَنْ كانت (أوروبا) تَعُدُّهم من الرجال العظماء، كانوا قد دخلوا هذا المبنى.

- حسناً، هنالك أمر مماثِل، عندنا. وطبعاً كان علينا أن نقاسي من سَفَلة (الكولونيلات) الذين كانوا يُخالطون سِفْلَةَ الناس قبل أن يرتكبوا جرائمهم. كان ذلك سنة 1970. وقبل ثلاث سنوات، وبمساعدة من الـ (سي.آي.إي)[227] CIA، استولت اللجنةُ العسكرية على السلطة. لقد كانت هفوةً من هؤلاء الأمريكان الأعزاء الذين كانت لديهم عادةٌ مؤسِفَة هي عدم التمييز بين الشعوب والحيوانات. لقد كنتُ أمقُتُ هذه الفترة. لو تعلم كم! لقد وُضِع جميع المعارضين السياسيين في إقامة تحت المراقبة، أو حُبِسُوا، أو أُرسلوا إلى معتقَلاتٍ في جُزُرٍ مُقفرةٍ في بحر (إيجة)، أو عُذِّبوا. وفُصِل الصبيانُ عن البنات بعدما كانوا

(224) ويدعى بالإنكليزية (أمير ويلز) prince of Wales، وهو لقب يطلق في بريطانيا على الابن البكر لملك البلاد أو ملكتها. وتقابل كلمة (غالّ) بالفرنسية كلمة (ويلز) بالإنكليزية، و(ويلز) إقليم في غرب بريطانيا قاعدته مدينة (كارديف) Cardiff (المترجم).

(225) موباسّان: (غي دو - Guy de)، كاتب فرنسي (1850 - 1893)، كان سيِّد الأقصوصة والرواية القصيرة الواقعيتين في الأدب الفرنسي.

(226) أناتول فرانس: كاتب فرنسي (1844 - 1924)، تتميَّز رواياته بصياغةٍ كلاسية منقّاة، وتمتزج كتاباته النقدية وأقاصيصه ورواياته بالنزعة الارتيابية والإنسانية العِلمانية ومعارضة تدخُّل رجال الدين في الشؤون العامة. من أشهر رواياته (البحث عن الزمن المفقود)، وهي مترجمة إلى العربية. نال جائزة نوبل للآداب سنة 1921 (المترجم).

(227) هذه الحروف إختصارٌ لاسم (وكالة الاستخبارات المركزية) الأمريكية Central Intellegece Agency (المترجم).

يَدْرُسون في مدارس مختلطة. وأصبح اللباسُ الموحَّد وتحيّةُ العلَم إلزاميين في كل صباح. وكانت صورة (الكولونيل) الرئيسي (بابادوبولوس)[228] Papadopoulos تنتشر في كل مكان[229]. وأصبح طائر (العنقاء)[230] phénix شعاراً للنظام. ولكنني لم أكن أمقُتُ (الكولونيلات) لهذا السبب فقط. وسأشرح لك لماذا فيما بعد.

ثم طلبت إلى النادل أن يحضر بعض المقبِّلات، وتابعت تقول:

- لم أكن قد بلغت الثلاثين من العمر وكنتُ رائعة. وقد كنتُ ملِكةً حقيقية للجمال. ولقد لقبتني صديقاتي وزبائني بلقب (بوبولينا)[231] Boubolina، وهو اسم تلك البطلة اليونانية العظيمة التي كافحتْ ضد الأتراك خلال حرب الاستقلال[232].

(228) بابادوبولوس: (جيورجيوس - 1999 - 1919) (Georgios)، كان (كولونيلاً) في الجيش اليوناني، قاد انقلاباً عسكرياً مع ضابطين آخرين في 21 نيسان/أبريل سنة 1967، بإيعاز وتعاون مع الـ (سي.آي.إي)، فدشنوا ما يعرف بـ (ديكتاتورية الكولونيلات)، ورفعوا شعارات مكافحة الشيوعية: وملؤوا السجون، وحُوِّل عددٌ من الجزر إلى معتقلات، ومارسوا التعذيب، وحظوا بدعم الكنيسة الأرثوذكسية. أصبح (بابادوبولوس) رئيساً للوزراء (1967 - 1973)، وكان وصياً على عرش اليونان (1972 - 1973)، وأخيراً رئيساً للدولة (1973) بعد إلغاء الملَكيّة في اليونان. ثم قام الجيش اليوناني، سنة 1973، بانقلاب على (الكولونيلات)، وتم سجن (بابادوبولوس) حتى وفاته بالسرطان سنة 1999 عن عمر يناهز الثمانين (المترجم).

(229) كصورة عنترة في قصيدة نزار قباني (المترجم).

(230) طائر الفينيق: ويكتب اسمه أيضاً (phoenix) و(phœnix)، وهو طائر أسطوري فريد من نوعه في الأساطير القديمة، قام حياً من رماده، وقد كان يظهر في شعار ذلك النظام بشكل طائر يخفق بجناحيه مرتفعاً عن ألسنة اللهب تحته. ولعله الطائر المعروف عند العرب باسم (العنقاء المُغرِب) يذكرونه ويقولون إنه لا حقيقة له أو إنه طائرٌ معروف الاسم مجهول الجِسْم (المترجم).

(231) بوبولينا: (لاسكارينا - 1825 - 1771) (Laskarina)، أصلها من جزيرة (هيدرا) Hydra، كانت قائدة بحرية يونانية وبطلة من أبطال حرب الاستقلال اليونانية ضد السلطنة العثمانية منذ سنة 1821 (المترجم).

(232) حرب الاستقلال اليونانية: وتعرف أيضاً باسم (الثورة اليونانية) وبالتركية العثمانية (يونان عصياني)، قامت ضد السلطنة العثمانية المهيمنة على اليونان، ما بين سنتي 1821 و1832، وقد ساعدتهم بأساطيلها البحرية كل من روسيا القيصرية، وبريطانيا ⟵

فهل تتصوَّر أنني أنا، المومِسَ، أُلَقَّبُ باسم أشهر مواطناتنا؟! ..

ثم إنها كرَّرتْ ما قالته بخصوص (الكولونيلات):

- سأشرح لك سبب هذا اللقب فيما بعد.

ثم صبَّتْ قليلاً من الماء في كأس شراب الـ (أوزو)، فأضفى على شراب اليانَسُونِ هذا لوناً حليبياً[233]. ثم تناولتْه جُرعَة واحدة. واستأنفتْ تقول:

- وذاتَ مساء، قبل عيد الميلاد بقليل، دخل (الباشا) من باب الماخور. كان يخطو نحو الستين من العمر، ولكن أيُّ طَلعةٍ مَهيبةٍ كانت له! إنه (لورد)[234] حقيقي. فأي فتاةٍ اختار من بين كل الفتيات اللاتي عُرِضَتْ عليه؟ لقد اختارني أنا، مع أنني كنتُ أكبرَهُنَّ سنّاً. هذا غيرُ معقول، أليس كذلك؟ ولكن غير المعقول أكثرَ هو ما سيأتي. فقد صعِدنا إلى الغرفة، فطلَب (شامبانيا دو فرانس)[235] Champagne de France. ثم تحدَّثنا، وتحدَّثنا، وتحدَّثنا. وشعرتُ بأنني أتناقش مع أحدٍ من معارفي في حياةٍ

← العظمى، وفرنسا، وبعض القوى الأوروبية، وأما السلطنة فقد وقفت معها مصر محمد علي وولاية تونس وولاية الجزائر، وقد تحطّم خلال هذه الحرب الأسطولان العثماني والمصري، في معركة (نافارين) Navarin الشهيرة سنة 1827، فأدى ذلك إلى استشراء المقاومة اليونانية في الجزر اليونانية التي لا حصر لها، وانحسار قبضة الأتراك عنها، وكان من نتائجها تجرؤ فرنسا على احتلال الجزائر سنة 1830، وتوسّع محمد علي نحو الشام وآسيا الصغرى على حساب العثمانيين، الأمر الذي دعا بريطانيا وفرنسا للتدخل مع السلطنة ضد محمد علي حتى لا تنشأ دولة قوية في شرق المتوسط على أنقاضها تهدِّد مصالح الدولتين وأطماعهما فيه (المترجم).

(233) يبدو من هذا الوصف أن شراب الـ (أوزو) اليوناني هذا هو العرَق نفسه في بعض البلدان العربية (المترجم).

(234) كلمة (لورد) لقب لنبلاء بريطانيا، وتمنحه الملكة لمن قدَّم خدمات جُلَّى لبريطانيا، ويضم حمَلَتَه مجلسٌ يدعى (مجلس اللوردات)، ولهم مزايا يتمتعون بها، لكونهم نخبة المجتمع البريطاني (المترجم).

(235) وهي خمرٌ بيضاء فوَّارة من منطقة (شامبانيا) التي اشتهرت بإنتاجها، وهي إقليم قديم يقع في شرقِ الحوض الباريسي بفرنسا (المترجم).

أخرى. لقد باح لي بأسرار طفولته في (مصر)، وزواجه من (ليلى)، ووفاتِها. وفي لحظةٍ معيَّنة قلتُ لنفسي: عودي إلى الواقع. فتظاهرتُ بأني أهمُّ بالجلوس على ركبتيه، فرجاني بلطفٍ أن أعود إلى مكاني، وبحنانٍ أيضاً. وسألني بابتسامة عريضة: «ألسنا جيِّدَينِ هكذا نحنُ الاثنانِ؟». فتمتمتُ ببعض الأشياء التي لا أدري ما هي. وربما حسبني قلِقة، فأخرج رزمةً من المال من محفظته، ووضعها على الطاولة، وهمس لي بلهجة تشجيع قائلاً: «هذا لكِ أنتِ وسأدفع لـ (مدام داليا) على حدَة». كنتُ مذهولةً. ولأوّل وهْلَة - وينبغي لي ألا أبوح لك أكثر - تَملَّكني بعضُ الخوف. ما الذي سيطلبُه مني بعد ذلك؟ فقال كما لو أنه كان يقرأ أفكاري: «(بيبا). لن أطلب منك شيئاً. لقد كانت لديَّ رغبةٌ فقط في الحديث. وهذا كلُّ شيء». إنه مجنونٌ نوعاً ما، أليس كذلك؟

فردَّ (تيوفان) بقوله:

- ليس مجنوناً. بل جميلٌ. وبما أننا نبوح بالأسرار: ألم تناما معاً في نهاية المطاف؟

- بلى. مرَّةً واحدة. مرةً واحدة خلال ستةَ عشرَ عاماً. وقد أنحى بعضنا على بعض باللوم، وكانت تلك خيبةَ معلِّم. Méghalo!(236). كان ما يشعر به (آخيل) تجاهي ينتمي إلى نوع من الإحساس الأبوي، أو من الحماية، لستُ أدري! أكثرَ مما ينتمي إلى رغبة جنسية. وقد عرفتُ بسرعة فائقة أن ما بيننا لن يكون بقصد المتعة الحسية. ومع ذلك كنا ننام معاً كعاشقينِ: متعانقين، متراصَّيْنِ، وملتصقاً أحدنا بالآخَر مثل طابَعٍ على بطاقةٍ بريديّة. هذا كثيرٌ أليسَ كذلك؟

(236) كلمة يونانية بمعنى (عظيم!) وتكتب فيها (μεγαλο) (المترجم).

- علـى كل حـال، هذا خيـرٌ مما لو أنك كنـتِ تلاعبين الهواء كلَّ مساء.

قالتْ:

- مطلقـاً. إن الـروح البشـرية فـي أغلـب الأحيـان تتـورَّط، فالشهوة تشوِّش على أحاسيسِنا. لقد عرفت عدداً لا يُحصَى من الرجال، ولم أشـعر بهذا الاندماج إلا مع اثنين منهم فقط: والد (أنطونيا) ووالد (أليكسيس).

- فقط مع هذين الرجلين؟..

فقالت مقاطعةً:

- يوماً ما سأقول لك.

- كمـا تشـائين. وعندمـا التقيتِ (آخيـل)، كانـت (أنطونيا) موجودة، أليس كذلك؟

- صحيح.

ثم اقترحـتْ عليه قليلاً من الـ (خورياتيكي) Khoriatiki، وهو سلطة من خِيار، وطماطم، وبصل، وزيتون، وجبنة، فقَبِل.

واستأنفتْ تقول:

- كانـت (أنطونيا) قـد احتفلت بالذكرى العاشـرة لمولدها. وكان المرض قد تشكَّل في داخل جسدها. وعندما تمنَّى (آخيل) أن يتعرَّف عليها كان القلَقُ يستولي عليَّ. هل بإمكان هذين الاثنين أن يتفاهما؟ وكانت المعجزة. فقد اتَّفقَتْ (طونيا) مع (آخيل) على الفور. وأنا..

كان يُسْـمَع فـي المـكان ضوضـاء كراسِـيٍّ تُدفَـع، وتصفيـقٌ، وصيحاتٌ. قطعتْ حديثَها.

عُزِفَـت النوطـات الأولـى على البُـزُق، وكانت معدنيـة وحادَّة. وقـفَ رَجُـلٌ، وخلع قميصـه، ومدَّ رجلَه إلى الأمـام، ومسَّ الأرضَ

بطرَفِها مسّاً خفيفاً، ثم مدَّ الرجْلَ الأخرى. وتحرَّكتْ خُطاه، شيئاً فشيئاً، مع تشجيع زبائن المقهى من حوله. لم تكن هنالك أي قاعدة تتعلَّق بتصميم الرقصة في تتابع حركاته. ولم يكن هنالك أي التزامات حركية. ويبدو أن الراقِصَ كان يزايد على جاذبية وزنه أكثرَ من سعيه إلى التحرُّرِ منها. أبقى نظراته منخفضةً نحو فراغٍ يكتم الأسرار. وكان ينبعث منه شيءٌ من النفور والقسوة على شاكلة العواصف غيرِ المتوقَّعة التي تخرُق كالريح الجامحة حين تعوي على الجزُر.

قالَت (بيبا) وهي تمطّ شفتيها:

- إنها رقصةُ الـ (زيبيكيكو)[237] zeïmbékiko. وهي رقصة همجية.

(237) رقصة شعبية جداً في اليونان وقبرص، وأبرز سماتها الا تقبل غالباً سوى راقص واحد، يحيط به الحضور جلوساً أو وقوفاً، ويصفقون له، وهو يرقص على إيقاعات آلة (البُزق) الوترية الشهيرة في الموسيقى الشعبية اليونانية: والكلمة اليونانية الأصلية هي (οκικέπμϊεζ) وتلفظ حسب الحروف الفرنسية (zebekiko) كما أثبتناها في المتن، ويلاحظ أن (الميم = μ)، هنا، لا تلفظ في هذه الكلمة، وإن كُتِبتْ، ومن طريف هذه الكلمة أن أصلها مأخوذ من (المحاربين الزيبقيين)، الذين ظهروا في الإقليم الإيجي، أي الواجهة البحرية التركية المطلة على بحر إيجة ولها عمق بطولها نحو الداخل، إبان العصر العثماني، من أواخر القرن 17 إلى أوائل القرن 20، وهم محاربون غير نظاميين، كانوا أشبه بنظام الفتوة أو الفتيان في بعض الأقاليم العربية آنذاك، وكانوا يقومون بحماية سكان القرى من عَسْف مُلّاك الأراضي، ومن قاطعي الطريق واللصوص، ومن فارضي الإتاوات أو الخُوّات على الناس ظلماً وعدواناً، ويتميزون بالشهامة والإيثار والشجاعة، ولعل قصة (علي الزيبق) التي يمتد حديثها من بغداد إلى دمشق والقاهرة كانت بوحي من هذه الجماعة، أو أن نشأة هذا النظام في منطقة تركيا عموماً وإقليم إيجة خصوصاً كان متأثراً بحركة الفتوة عند العرب. ولعل هذه الرقصة نشأتْ في اليونان متأثرة برقصة كان يمارسها أولئك المحاربون (الزيبقيون العثمانيون). ويلاحظ المرء أن فلسفة هذه الرقصة تقوم على الحركات الجسدية (من أذرع وأرجل) في كل اتجاه، وهبوطاً وصعوداً ودوراناً، مع سكون تارة وحركة تارة أخرى، وبطء في الحركة حيناً، وسرعة حيناً آخر، وهي بذلك تتطابق مع فلسفة نظام (المحاربين الزيبقيين) على نمط تحركات (علي الزيبق) ضد الظالمين ويمكن تسمية هذه الرقصة في العربية بـ (الرقصة الزيبقية)، وربما اشتقت التسمية من معدن (الزئبق أو الزيبق) الرجراج الذي يصعب الإمساك به، ومن خواصه التمدُّد بالحرارة والتقلّص بالبرودة (المترجم).

بين الحين والحين، كانـت هنالك أصواتُ مُحاكاةٍ تصدُر، على شـاكلة: (هوبـا)، (هوبـا)؛ hopa ، hopa التـي تشـبه صرخات الحب.

كان الرجل يواصل التمايل. ومن وقت لآخر، كان يفتح ذراعيه علـى اتِّسـاعهما وكأنـه كان يريد أن يعانـق النـاس، وكان يفرقع أصابعـه، ويسـقط على ركبتـه، ويخبِط الأرض بيـده ليعود إلى النهـوض، مترنِّحاً ببطء على نفسـه، في وضـع مرتَصٍّ رجوليّ، ولكنه متقلِّب بشكلٍ لا يُتَصَوَّر.

قالت (بيبا) وهي تشعل سيكاراً صغيراً:

- كأنَّ المشهدَ قد أعجبَك، فأنتَ تبدو مبهوراً به.

بقي الطبيبُ صامتاً، وقد فُتِح عليه بابٌ من الذكريات.

* * *

- انظر، يابني، بإعجاب، فإنَّ تحت نظرك أعظمَ راقصة بطن في (مصر) كلها.

- ما اسمها؟

- (سامية جَمَال)[238]. اليستْ رائعة؟

كان فـمُ (تيوفان) جافاً. وقد جعل الانفعالُ قلبَه يخفُق كمئة طبلة. إن الراقصة، التي كان عمرها أكبر من ثلاثين سنة بقليل، أي أكبر منه باثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، كانت ترفع ذراعيها العاريين وتجعلهما يتلوَّيان فوق شعرها الأسود الطويل، فتصبح يداهـا قلبـاً، قلباً منتَظَماً، قوياً، كلُّ نبضة فيه تحدِثُ عند هؤلاء الحالـمين هِـزَّةً جديـدة. وكانــت، أحيانـاً، تتلوَّى حـول الطاولات،

(238) سـامية جمال: راقصة وممثلـة مصرية (1924 - 1994) لها أكثر من خمسـين فلماً، وشكلت ثنائياً ناجحاً مع الفنان فريد الأطرش في نحو ستة أفلام شهيرة (المترجم).

وتلمس الزبائن، وهم مبهورون، لمساً، فيبادرون بدسّ بعض الأوراق المالية في حمّالة الثديين ذات التباريق[239]. وعندما كانت تدنو ببطنها العاري من وجه (تيوفان)، كان يشعر بقوة خارقة تتدفّق في كيانه. ثم كانت تتراجع، بخفّةِ فَرَاشَة، وترشقُه بابتسامة ماكِرة. ولم تكن تعود إلى وسط الحلبة، وردفُها مكشوفٌ، إلا ناراً. وكانت الرؤية تتعمّق، بتحريض من الجمهور، بتقوُّس الخَصْرَيْنِ، وبالحركات المتّقدة وضربات الرجلين الارتعاشية.

ماذا أصبحت (سامية جَمَال)؟ في تلك الفترة، سنة 1959، تم طلاقُها من مليارديـر، لتتزوَّج من ممثِّلٍ مصري شهير[240]. واليوم؟

ثم تمتم (تيوفان):

- شيءٌ ساحِرٌ.

هل قال ذلك عن (سامية جمال) أم عن الراقص اليوناني؟

لم يكن هذا السؤال مطروحاً على (بيبا).

قالت (بيبا):

- يا عزيزي، ألسنا في (اليونان)؟ إنَّ كلَّ ما يولَد على هذه الأرض ساحِرٌ، ولا حدَّ له. هل رأيتَ من قبلُ يونانِيَّيْنِ يلتقيان مصادفةً في شارع من شوارع (لندن) أو (باريس)؟ إنهما حينئذٍ يصرُخان، ويُشبِّران، ويضحكان، ويبكيان. وتصبح المدينةُ كلُّها على عِلْم بلقائهما. ومن هنا كان الفرق الذي سيبقَى قائماً بين شعوب البحر المتوسط والشعوب الشماليين[241]؛ فالأولى تكاد

(239) نوع من الزركشة بقطع معدنية أو بلاستيكية برَّاقة (المترجم).

(240) هو الفنان (رشدي اباظة) (1927 - 1980) (المترجم).

(241) يعني بالشماليين شعوب أوروبا في البلدان غير المطلّة على المتوسط، وكأن سكان حوض المتوسط أكثر اجتماعية وحميمية من سكان تلك البلدان، وهو مجرَّد رأي (المترجم).

تلامس (الهستيريا)[242] l'hystérie، والأخرى تكاد تلامس (البارانويا)[243] la paranoïa. فكيف لها أن تتمكَّن من أن تتفاهم؟ تصوَّرْ للحظة (جنتلمان) إنكليزياً محصوراً في مِصْعَدٍ متعطِّل مع مشرقيٍّ[244].

انتزعت هذه المقارنة ضحكة مدوية من (تيوفان)، وقال:

- سأتذكَّر ذلك. لو عدنا إلى لقاء (أنطونيا) و(الباشا).

- لقد أحبَّ أحدُهما الآخَر على الفور. لأنها وجدتْ فيه أباً، ووجد هو فيها الطفل الذي لم يكن قد حصلَ عليه من زوجته الراحلة. واقترح عليَّ (آخيل) آنذاك أن أترك عملي، وأن أعيش معه. وكان يهتم بكل شيء، بما في ذلك (أنطونيا)، وأكَّد لي أنه لن يَنقُص عليَّ شيءٌ أبداً. ولكن بشرطٍ: عدمِ الزواج.

- مُدهش! وهل قبلت؟

- سأكذِب عليكَ إن قلتُ لك إنَّ ذلك كان أمراً سهلاً. لا للدوافعِ التي يمكنك تخيُّلُها. فقد كنتُ متزوجة من والد (أنطونيا). فأنا إذن لم أكن أنتمي إلى هذه الفِرَق من النساء اللواتي يحلُمنَ بحفلة زواج في الثوب الأبيض. ولم يكن ذلك سهلاً أيضاً لأننا كنا نَعيش في (اليونان)، بلدٍ

(242) الهستيريا: اضطرابات عارضة في الذهن والحس والحركة (المترجم).

(243) البارانويا: ذُهان الأوهام الثابتة والمنظَّمة، كجنون العظمة، والارتياب، والاضطهاد. وصاحب هذا الذُهان يبدو سليماً معافًى، لكن تحليل أقواله ومواقفه يبيِّن تهافتَها ويكشف عدم تماسك بعضها مع بعض إلا في الظاهر (المترجم).

(244) أظن هذا المثالَ غير موفق، لأن المشرقيين لا يطلّون جميعاً على المتوسِّط، وكأن (بيبا) - أعني المؤلِّف طبعاً - أرادت هنا أن تشمل شعوب الجنوب عموماً في مقابل شعوب الشمال غيرِ المطلة على شمال المتوسط: فالجنتلمان الإنكليزي سيكون دمه بارداً في المصعد ويظل ساكناً في حين أن المشرقي سيتضايق ويتأفَّف ويضجر ويبدأ بمحاولة الوصول إلى حل سريع للموقف (المترجم).

التقاليد، وحيث الكنيسَةُ في كل مكان، وهي حاضرة. ومن ثَمَّ الناسُ يتكلّمون. ويحبون القيلَ والقالَ: امرأة تعيش مع رجل كزوجين، هذا أمر قبيح في عيون المجتمع، حتى لو كان الزوجان غيرُ الشرْعِيينِ يتضاجعان خِفيةً بنشاط. ومع ذلك قبلتُ. وعلى أي حال، كانت المهنة التي أعمل بها قبيحةً أيضاً، أليس كذلك؟

عاد راقص الـ (زيبيكيكو) إلى مكانه، وحلت محلّه على الفور جلَبةُ الأصوات.

قال (تيوفان):

- شيءٌ ما في تصرُّف (آخيل) كان يشغل بالي، فهو رجلٌ يقارِب الستين، وهي السن التي يتجنَّب فيها المرء عموماً تحمُّلَ مسؤوليات جديدة. إنه ثرِيٌّ، وكان بإمكانه أن يستمرّ في العيش بهدوء وحدَه.

هزّت (بيبا) رأسها متظاهرة بالفهم، وقالت:

- هل قرأتَ (راموز)[245] Ramuz؟

نفى (تيوفان) ذلك، فقالت:

- عليك بقراءته. فأنا أعترف أن رواياته كانت نوعاً ما - وبَحَثَتْ عن كلمة دقيقة - خاصَّةً ومُبْهَمة. وكانت يومياتُه، في المقابل، تُكْسب الحِيلة. هل تعلَم ما كتب فيها؟ كتب يقول: «كونُ الإنسان معزولاً عن سائر البشر يُشْعِره بأنه غيرُ نافعٍ. وشعورُه بأنه غير نافع أسوأ أيضاً من شعوره بأنه مذنِبٌ».

(245) راموز: هو (شارل فردينان - Charles Ferdinand) كاتبٌ سويسري بالفرنسية (1878 - 1947)، كان يُشيد بالعودة إلى ما هو بدائي وجوهري. كتب دراسات، وروايات، في تعزيز الأخلاق والقيم الروحية، مع موافقة الطبيعة في الرؤية، بأسلوب بسيط وقوي، ومن أعماله: (الخوف العظيم في الجبل)، و(دِرْبورانس)، و(الجمال على الأرض) (المترجم).

وكان (آخيل) يكره أن يشعُر بأنه غيرُ نافِع. هل يكفيكَ هذا الجواب؟

- يكفيني.

(راموز)! .. إن هذه المرأة لا تكفّ عن مفاجأته. لقد فهم الآن فهماً أفضل وجود مؤلَّفات كثيرة كانت تزيِّن رفوفَ صالونِها. قال:

- يبدو أنك ملتَهِمةٌ للكتُب.

فقالت:

- لقد تركتُ المدرسة من الصف السادس، مقتنعةً بأنني أستطيع العيش بلا ثقافة، ولا معارف، إلى اليوم الذي ذكر لي فيه رجلٌ مهووسٌ بالشِّعْر، هو والدُ (أنطونيا)، اسم (جورج سيفيريس)[246] Georges Séféris. وكان ذلك سنة 1963، وكان عمري آنذاك اثنين وعشرين عاماً، وكان (سيفيريس) قد نال مؤخراً جائزة نوبل. ومن شدة حيائي، كان عليَّ أن أعترف بأنني لم أكن أعرِف شيئاً عن هذا الشاعر. فبدا لي (بطرس) Petros، وهو زوجي الأول، مشدوهاً. فقد كان جهل أحد اليونانيين بـ(سيفيريس)، في نظره، أمراً غيرَ طبيعي، كأن يجهل أين يقع الـ (أكروبول)[247] l'Acropole. ومن غير المجدي أن أذكر لك شعور الهوان، وخصوصاً الحزن الذي عانيت منه في ذلك اليوم. ومن اليوم التالي، ألقيتُ نفسي جسداً وروحاً في أحضان المطالعة.

---

(246) جورج سيفيريس: اسم مستعار للشاعر اليوناني (غورغوس سيفيرياديس) (1900 - 1971)، نال جائزة نوبل للآداب سنة 1963 (المترجم).

(247) الأكروبول: هضبة صخرية مرتفعة في وسط (أثينا)، بنيت عليها قديماً مدينة، والكلمة اليونانية (أكروبول) (ἀκρόπολις) مركبة أصلاً من كلمتين: الأولى (ἄκρος) بمعنى (المرتفعة)، والثانية (πόλις) بمعنى (المدينة)، وهكذا تعني كلمة (أكروبول) (المدينة المرتفعة) (المترجم).

فقـــراتُ (ســيــفيريس) بالتــأكــيــد، وقــرأتُ كــذلـــك (كازانتســاكي)[248] Kazantzaki، و(إيليتيــس)[249] Elýtis، وآخرين. وأخذتُ التَهِم، بسُعارٍ حقيقيّ، كلَّ ما كان يمرّ بين يديّ من الكتُب.

ثم مالت برأسها، وقالت:

- وهأنذي!

وبينما كانت تُشعِل سـيكاراً صغيراً، ظهر علـى وجهها تعبيرٌ كئيب. وقالتْ بهمسٍ تقريباً:

- أرجو الا أكون في نظرك قذرة جداً.

لمس (تيوفان) خدَّها لمساً خفيفاً بحنانٍ، وقال:

- عزيزتــي (بيبــا)، ليس هنالك حياةٌ مــن غير جانبٍ مظلم. ولعلَّـك تُفاجَئين لو أكّدتُ لك أن الأكثرَ دَنَســاً، منا نحن الاثنانَ، ليس الذي يُظَنّ..

لم تُعلِّق (بيبا) بشيء. وقد كان مقتنعاً بأنها تظنّ أنه هو.

استفسَر (تيوفان) فجأة:

- وما شأنُ (ديمتري)؟

ظلَّت (بيبا) مذهولة، ثم قالت:

- أنت لا يَفُوتُكَ شيءٌ.

ثم تحرَّكتْ على كرسيِّها حركةً شِبهَ طفولية، وقالت:

(248) كازانتســـاكي: هــو (نيكوس - Nikos)، روائي، وفيلســوف، وشـــاعر يوناني (1883 - 1957)، اشــهر أعماله التي شــهرته رواية (أليكسيس زوربا) التي اقتبســت في السينما فيلماً بعنوان (زوربا اليوناني) (المترجم).

(249) إيليتيــس: هو (أوديســياس - Odysseas) وكان الاســمَ المســتعار للشــاعر اليوناني (أوديســياس اليبوديليــس Alepoudellis) (1911 - 1996)، نال جائزة نوبل للآداب ســنة 1979. كان مقرَّباً من الشــعراء الســرياليين الفرنســيين، والمصوِّرين مثل (بيكاسّو) و(ماتيسّ) اللذين زيَّنا بعض أعماله المنشورة، وكان صديقاً لـ (البير كامو) أيضاً (المترجم).

- هـل تذكُـر؟ كنتُ أقول إن الرغبة تشـوِّش على أحاسيسِـنا. ومن المؤسِـف أنني في حاجة إليها أيضاً. وكما قال (برنارد شـو) Bernard Shaw [250]: «العِفَّـةُ أخطرُ من جميع الانحرافات». ومــن ناحيتــي، أرى أن الرغبة مثلُ الذاكـرة، إن لم تجعلها تعمل فإنها تضمُر. إن صديقَك (ديمتري) ليس جميلاً، إنه بدينٌ، أكثر من شبابه الأول، ولكنه يُطْلِق (ما لا أَدريه)[251] - je - ne - sais - quoi. فحاوِلْ أنت العملَ على فهم النساء. والخلاصة: أنا أكرَه أن أفقد ذاكرتي.

- يَنبغي أن أُسَـلِّم لكِ بأنكِ اسـتعملتِ فن الاسـتعارة بمهارة هنا.

- وأنت؟

- أنا؟

- هـل تلاعـب الهـواء مــن وقـت لآخَر؟ سـتردُّ علـيَّ بالقول: لا ينبغــي لرجـلٍ، علــى هــذه الجزيـرة، بخصـوص الأمريكيـات الحيوِيّات، أن يُدخِل شيئاً تافهاً على نفسه. فهل أنا مخطئة؟

- لقد أصبتِ (الجوكر)[252] ؛ Joker.

- إنه حقُّك.

---

(250) برنارد شـــو: هو (جورج - george)، كاتبٌ ومؤلِّفٌ مسرحي إيرلندي (1856 - 1950)، جعلت منه فكاهتُه اللاذعة والساخرة مجادلاً مخيفاً، كان ذا نزعة اشتراكية. وقد أسهم في تجديد المســرح الإنكليزي. ومن أبرز أعمالــه: (البطل والجندي)، و(قيصــر وكليوباترا)، و(أندروكليس والأسد)، و(بيغماليون) وهي أشهر مسرحياته، و(القديسة جانّ) (المترجم).

(251) هذه العبارة تســتعمل هكذا اســتعمال الاسم المذكر في الفرنســية، وهي تعني ما يُحِسّ بــه المرء من شــعور أو ما يخطر على باله من معنى، ولكنه يعجــز عن التعبير عنه باللغة، فيبقى فــي الذهن ضبابياً وغامضاً، كالعجز عن التعبير عن الأذواق أو مفاهيم الجمال الفاتن الجذاب (المترجم).

(252) الجوكــر: ورقة رابحة فــي ورق اللعب وتحل محل أيٍّ منها، وكنــى (تيوفان) بذكرها عن تأييده لرأيها الذي أبدته (المترجم).

ورشقَتْه بنظرةٍ فاحصةٍ، ثم قالت:

- هل أنت بخير؟

ولما بدا وكأنه لم يفهم قصدها، وضَّحت له (بيبا) قائلة:

- أعنـي: هـل أنت على خلاف مع أحدهـم؟ هل يريد أحدُهم بك شرّاً؟ هل لديك همومٌ صِحيَّة؟

فردّ بارتباك:

- لا، على ما أعلَم.

- هل تقول لي الحقيقة يا (تيو)؟

- قطعاً. من أين جاءتْك هذه الأفكار؟

- من الورق. إن الورقَ يكشف الحقائق الخفية تماماً.

فضحك ضحكة عالية، وقال:

- اطمئني. ليس لي أعداء. وصحتي على ما يُرام.

هزَّت رأسَها مِراراً، وقالت:

- لا أصدِّق أيَّ كلمة من ذلك. ولكنَّك حُرٌّ في ألا تبوح بسِرّ. واعلَمْ مع ذلك أنني هنا. في حالةِ ما..

ثم دفعتْ كرسِيَّها وأعطت إشارة الانطلاق، وقالت:

- لِنذهبْ لرؤية (أنطونيا). ينبغي أن تكون قد أفاقتْ من النوم في هذه الساعة.

* * *

وبينما كانا يجتازان باب المستوصَف، أبدى (تيوفان) لها ملاحظة قائلاً:

- لقد تركتِ مناطقَ معتمة كثيرة: فمَنْ والدُ (أليكسيس)؟ وماذا حصل لزوجكِ الأول؟ ولأيِّ سبَبٍ كانت صديقاتُك يُلقبْنكِ (بوبولينا)؟

فوضعتْ (بيبا) سبّابتَها على فم الطبيب، وقالت:

- اسكُتْ، يا صديقي! فالاعترافاتُ تُقَطَّر مثلَ السُّمّ: قطرةً قطرة. وقد سكبتُ لك منها قدراً لا بأسَ به.

- وأنا أُقِرّ بذلك. إذنْ أجيبيني على الأقل عن سؤالٍ يَنْخُر بي منذ أسابيع: لماذا أطلقتِ على نُزُلِكِ اسم (إيبيفانيا) Épiphaneia؟

- ألم تتوقَّع لماذا؟ إنه اسم الماخور.

- ماذا؟! .. أنتِ تمزحين!

- إنّ (مدام داليا)، مديرتَه، كانت تقول لنا: إنّ هذه الكلمة كانت تستدعي ظهور المسيح الطفلِ للملوك المجوس الذين جاؤوا بحثاً عنه. والحاصلُ، حسبَ رأيِها، كان الرجالُ الذين يزوروننا يمثّلون، بشكلٍ ما، ملوكَ المجوس. ونحن جميعاً كنا مقدَّسات. فتصوَّرْ أنْ يُسمَّى ماخور باسم (إيبيفانيا) في بلدٍ متديِّنٍ جداً[253] يُمَجَّد فيه الباباوات عملياً.

(253) تقصد بلاد اليونان التي اشتهرت بالتدين لجملة أسباب لا مجال لحصرها هنا (المترجم).

(14)

هنالـك صُوَرٌ جدارية، قديمة منذ أكثر من سـبعة قرون، كانت تغطِّي في بعض الأماكن جدران الكهف الذي عاش فيه، بحسـب الأسـطورة، (القديس يوحنا)، وأنشـأ رؤياه لنهاية الأزمان: (رؤيا القديـس يوحنـا) l'Apocalypse. وفي ركن مُضـاءٍ بمصابيح خافتـة النـور، هنالـك حجَـر مطـوَّق بمعـدِن يشـير إلـى المكان المفترَض حيث كان الرسول يريح رأسَه للنوم. وكان هنالك ثلاثة صُـدُوعٍ في أحد الجدران كانت تمثِّل الثالوثَ المقدَّس la sainte Trinité. وكان صوتٌ يأتي من خلالها. وفي أقصى الكهف، على اليمـين، كانت هنالك صخرةٌ تكوِّن ما يشـبه مكتبـاً طبيعياً كان أحد تلاميذ (يوحنا)، كما يؤكِّدون، يكتبُ ما يمليه عليه.

ألقى (تيوفان) نظرةً متحفِّظةً نحو (أنطونيا). كانت جالسـة بجانـب جدار، وهي منحرفةٌ جانباً، وعيناها مغلقتان، وشـفتاها ترتجفان. وكان يبدو أنهما تتمتمان بقولها: «ساعدوني». أو على الأقـل «سـامحوني». كانت هنالك موجـةٌ من الأفـكار المتناقضة تتفجَّر في نفسـها. ربّما كانت تستشـِفّ فـي محاولتِها الانتحار تأكيـداً لتعاسـتها، أو لإنذارٍ مُبهَم بسـوء جديد، أو لسـوء حالها آنئذ.

اقترحتْ (أنطونيا) على (تيوفان) بعد عودتها من المستوصف ببضعة أيام قائلة: «هل ترغب في مرافقتي إلى كهف (القديس يوحنا)؟». وللوهلة الأولى، ظنَّ أنها مَزْحةٌ. وكان مخطئاً في ظنه. فقد قالت له: «أنا لستُ متزمِّتةً مثلَ أمي، ولا أزال قليلة الالتزام، ولكنني أشعر بحاجة ماسَّةٍ إلى لطف الله».

«لا متزمِّتة ولا ملتزمة؟ ولكنْ مؤمنة في الوقتِ نفسه». انطلق جواب (أنطونيا) بلا أي ظلٍّ للتردُّد: «إنني مقتنعة فقط بأنه موجود، مثلَما أؤمن بقوة الصلاة».

قوة الصلاة! إنه إعلان متناقض للإيمان المنبثق من كائن كان، قبل قليل من الوقت، يتمسَّك بلغةٍ متمرِّدة، وعنيفة أيضاً، محتجَّة ولاعِنةً مصيرَها.

كان اللقاء الوحيد لـ (تيوفان) مع نص (رؤيا يوحنا اللاهوتي) يعود إلى الفترة البعيدة من دراسته لدى (اليسوعيين). غير أن هذه الرؤيا، على هذه الجزيرة، جعلته يعود إلى ذكرياته دفعة واحدة. فكيف يفرّ منها؟ فالرسول كان يتردَّد على شوارع جزيرة (باتموس) وكانت أجراس الدير القلعة تذكِّر بوجوده بلا انقطاع. وهكذا، وبدافع من الفضول أكثر من الاستلهام بدوافع دينية، قرَّر أن يراجع الفقرات، متسائلاً في نهاية المطاف عن الصحَّة العقلية لمؤلِّفها. و(تيمور) الذي كان (تيوفان) قد قرأ عليه بعض الفقرات، كان يصيح قائلاً: «هل كان يُزيِّل السَّجَّادَ هذا الشخص أم ماذا؟».

وما إن عرف أنه قد تخلَّص من القصة حتى أطلق نفثةَ حقيقية.

مرَّت الدقائق. ولاتزال (أنطونيا) غارقة في تأمُّلِها. ثم أتى الوقت الذي كان التوتر، الذي يسكن، حتى الآن، في ملامحها،

قد بدأ بالتلاشي لمغادرة المكان إلى نوع من المهادنة. وببطء، فتحت عينيها، ورفعت وجهها نحو (تيوفان)، وقالت:

- شكراً لك على التضحية.

- لا شكرَ بيننا. ومن جهتي لم أضحِّ بأي طريقة، لقد أتحتِ لي أن أراجِع دروسي في الدين. هل تشعرين بالقدرة على الذهاب إلى (سابسيلا) Sapsila؟

- حتماً. لقد وعدتُ (أليكسيس) بأنني سأكون طوعاً لكما. وأشعر بالألم إن خيَّبتُ أمله. ثم إن مسّ البحر والرمل..

وفي اللحظة التي أخذها من ذراعها، اجتاز زائر عتبة الكهف. كان ابن نحو خمسين سنة، بشعر أصهَب. وعندما وصل إليهما توقَّف فجأة وتفرَّس في وجه (تيوفان) بتعبيرٍ حائر. وعلى الفور، خفض الطبيب نظره، وأمال بخفَّةٍ رأسَه، وأخذ (أنطونيا) نحو المخرَج.

قالت (أنطونيا)، وهي تجاهد الدرجات الحجرية الموصِلةَ إلى الشارع:

- هل تعرِفه؟

- مَنْ؟

- هذا الرجل الذي التقيناه قبل قليل.

هزَّ (تيوفان) رأسَه وقال:

- لم أره قطّ.

* * *

أوقف سيارتَه الـ (فيات) على طرف شاطئ (سابسيلا)، ولكن كان هنالك مع ذلك نحو مئة مترٍ يجب قطعها قبل الوصول إلى شطِّ البحر.

دمدمت (أنطونيا) قائلة:

- لن أصل إليه أبداً. فأنا مرهقَة جداً. هيا نرجع.

قال (تيوفان):

- سيخيب أملُ (أليكسيس).

فرمتْه (أنطونيا) بنظرةٍ مريرة. فقال (أليكسيس):

- وأنا؟ هل حدث أن فكَّرتما فيَّ؟

فاستشاطتْ غضباً ثانية. كالعاصفة بعد الهدوء. وانتابت (تيوفان) رغبةٌ فجأة في أن يمدَّ إليها يدَه كما لو كان يريد أن يمرِّرَها بين قضبان حديقة الحيوان لتداعب بعضها. وقال:

- سأحملك.

- لا تفكِّر في ذلك! فالشطُّ بعيد جداً.

- أنتِ لا تبلغين وزن (ديمتري).

ثم دار حول السيارة، وفتح بابها. وباحتراسٍ دسَّ ذراعاً تحت ظهر الفتاة الشابة، ودسَّ الأخرى تحت فخِذَيها ورفعها خارج السيارة. قائلاً:

- أرجو أن تكوني قد فكَّرتِ في أن ترتدي (المايو) تحت ثيابك.

فدمدمتْ بصوت محاكاة كان يشبه كلمة (نعم).

الآن وقد حملها بين ذراعيه، وقد أصبحت قريبةً جداً، كان بإمكانه أن يشم بوضوح عطرَها، إنها رائحة تذكُر بالعنبر، أو كذلك رائحة عُشبٍ نديٍ دفَّأه القشْر.

كان (أليكسيس)، وهو يضع نظَارات الغوص على جبينه، يوجِّه إليهما إشارات كثيرة، ويصيح:

- (طونيا)! (تيو)!

وعلى جانبيه، كان المرء يلمح صبياً آخَر في نحو الثانية عشرة من العمر، وامرأةً مكتنزة، ممتلئة لحماً.

وما إنْ وصلا حتى ارتمى (أليكسيس) عليهما، وقال:

- هائل! لقد خِفتُ ألا تأتيا!

وقدَّم المرأة التي كانت (أنطونيا) تعرفها من قبل، قائلاً:

- (ميلينـا) Mélina. دكتور (تيوفـان). والصبي هنالك، إنه (ميخاليس) Mikhalis. وهو ابن (ميلينا)، وصديقي.

حيّاهـا الطبيـبُ بحركـة مـن رأسِـه وسـاعد (أنطونيـا) على التمدُّد على الحشيَّة، وقال:

- كل شيء على ما يُرام؟ ألم أهزُزْكِ كثيراً؟

غطَّى الصوتُ الراعِد لـ (أليكسيس) على الجواب، وهو يقول:

- هل جئتَ لتسبح، يا دكتور؟

فاحتجَّتْ أخته، قائلة:

- كفى! اهدَأْ. أعطنا فرصة لنتنفَّس!

ونادَتْ (ميلينا)، وسألتْها:

- كيف تصنعين لتتحمَّليه؟

- كالعادة، يا عزيزتي. هل نسـيتِ أن عندي من الأولاد ثلاثةً آخرين في البيت؟

أصرَّ (أليكسيس) قائلاً لـ (ميلينا):

- والآن؟

- أعطني الوقت لأخلع ثيابي. وسألحق بك.

قالتْ (أنطونيا):

- هـذه غلطتُـك. لـم يكـن عليـك أن تدعيـه يتطـاول. أنت تعطينه يدَك، فيأخذ منك ذراعَك.

- ومع ذلك، أحبه كثيراً.

خلع (أليكسيس) ثيابه، وقال وهو ينطلق:

- كوني جاهزة. بعد قليل، سأعود باحثاً عنك.

* * *

دقيقة و10 ثوان، دقيقة و15 ثانية، دقيقة و20 ثانية.. دقيقة..

عاد (أليكسيس) إلى الظهور داخل دوّامة من الزَّبَد. وسأل وهو يلهث: كم؟

- دقيقة و50 ثانية. تحياتي!

- تفوُّق! حُطِّم الرقم القياسي بثماني ثوانٍ!

كان (أليكسيس) يلهث، ويبصق باستمرار، وينتفض.

قال (تيوفان):

- برافو، يا (أليكسيس). ولكن كان عليك ألا تضغط كثيراً على الآلة. انظر لنفسِك، كأنك يقطينة جاهزة للانفجار. عليك أن ترتاح الآن. هيّا! نصف دورة.

وعن غير رضا، سبح الصبيّ نحو الشاطئ مقتفياً أثر الطبيب. قال وهو يلهث باستمرار:

- المدة جيدة، ولكنها غير كافية. ومن الآن فصاعداً سوف أتدرَّب على النزول إلى الأسفل أكثر. وفي يوم ما، سوف أحطم الرقم القياسي لـ (مايول) Mayol.

- (مايول)؟

- ألا تعرف (مايول)؟ إنه فرنسي مثلك. قبل ثلاث سنوات، عجوز مثله، نجح في النزول إلى 105 أمتار!

- عجوز؟ ما عمره؟

- إنـه عجـوز جداً. في السـتين مـن العمر علـى الأقل. ولقد قرأتُ أن قلبَه لم يكن ينبض سوى 26 نبضة في الدقيقة. أمر لا يُصَدَّق، أليس كذلك؟

قال (تيوفان):

- تذكَّـر من الآن فصاعـداً أن القفص الصـدري لطفلٍ ليس واسـعاً كفايـة مثـل القفـص الصـدري لبالـغٍ. وبالنتيجـة، فهو يحتوي على أوكسيجين أقل. انظر كم تلهث.

- لا تقلق!

وكانـا يسـتعِدّان للخروج من الماء، عندما سـأل (أليكسـيس) قائلاً:

- قل لي يا دكتور، لماذا أرادتْ (طونيا) أن تموت؟

- إنهـا لـم تكـن تريد أن تمـوت. وإنما كانت تسـعى فقط لأن تقول لنا إنها كانت تعِسة.

- أما كان بالإمكانَ أن تعبِّر عن ذلك بالكلمات؟

- إن الذيـن يتألَّمـون لا يفكِّرون مثلك ومثلـي. وبالتالي، لكل امرئ طريقتُه في التعبير عن مشاعره. فبعضهم يصرخ، ويبكي، وآخرون يلوذون بالصمت، وغيرهم يكفُّون عن الأكل. وقد اختارت (انطونيا) طريقتها.

هزَّ (أليكسيس) رأسَه برصانة، وقال:

- فهمـتُ. إذًا هنـاك حاجـةً ملحَّـة لكـي تشـعر بالسـعادة، غير أن..

- غير أن؟

- غير أنها ستبدأ ثانية، وهذا أكيد.

* * *

قالت (أنطونيا):

- لقد أتعبك كما أتصوَّر؟

- تقريباً.

كانت ترتدي مايوهاً من قطعة واحدة. وشعرها الأسود، المسترسل إلى الخلف، كان يبرز صفاء ملامحها. وفيما عدا تشوُّهَ ساقِها، كان جسمها تاماً. وبدلاً من أن يشوِّه هذا الأمر قوامَها الرشيق، فإنه أضفى عليه مظهراً رائعاً بشكل مدهش.

واقترح وهو ينحني على الفتاة الشابة ليرفعها، قائلاً:

- هل نذهب (للسباحة)؟

تردَّدتْ، فشجَّعَتْها (ميلينا) قائلة:

- Ella pedimou![254].

وهكذا، تركت نفسها في أحضان (تيوفان). فقالت له:

- أنت لن تُغْرِقَني، هذا وَعدٌ؟

فابتسم، وقال:

- مجازفة محتمَلة.

* * *

وعندما غطستْ في الماء برفق، أبقاها مشدودة إليه.

ومرةً أخرى جاءه هذا المزيج من العنبر والعشب النديّ، وأُضيفت إليهما الآن عطورٌ مملَّحة. فهل كان ذلك لأنه لم يأخذ امرأة في أحضانه منذ زمن طويل جداً حتى إنه كان يشعر، من هذه الناحية، أنه قد ضلَّ الطريق؟

كان قلبه يخفُق بشدة إلى حد أنه خشي أن تسمعَه، بينما كان البحر حولَهما يترجرج بهدوء في رقصة (باليه) هادئة بين الزَّبَد والماء.

(254) بمعنى (هيّا يا طفلتي παίδιμου!) (المترجم).

كانت قد حافظت على خدها الموضوع على خد (تيوفان). وعلى صدرها إزاء صدره. في أي لحظة رفعت نحوه عينيها البنيتين الكبيرتين؟ لقد كان لديه انطباع بأنها تسأله النظر إليها، وكأنها كانت تدرِك السلطة التي كانت تمارسها عليه.

تمتم الطبيبُ، وهو يدرك أنه يتفوَّه بكلام مبتذل:

- هذا لطيف.

- تتكلَّم عن البحر، كما أتصوَّر؟

وأضافتْ قائلة:

- كيف سأعرف ذلك، بينما أنت تتسبب بنثر الماء؟

أمعن النظر فيها وهو تائهُ قليلاً. واستأنفت هي تقول:

- نعم، أنت تنثر الماء يا (تيو). إن جسدي لا يعرف البحر. وهو لا يُحِس به. وأنا لا أشعر إلا بك. بقربي، وملتصقاً بي. شيء جميل حتى إنني لأستحيي منه.

فقال:

- إذن حياؤك وحيائي يندمجان.

وعلى الفور، أصبحت الحياة خفيفة كريشة. وتجدَّدتْ عُذْرِيَّةُ العالَم. وعندئذٍ، تجرَّأ على أن يقبِّل جفنيها وأحسّ بدمعةٍ تتلألأ على طرف رموشها.

قالت (أنطونيا):

- أنا غبِيَّة، أليس كذلك؟ وأظنّ أنني سأنفجر بالبكاء. فالسعادة تجعل المرء يبكي إذًا؟ قُلْ لي.

- من بعيدٍ جداً أتذكَّر: نعم. وكان ذلك منذ زمن طويل.

توقَّف الزمن. واتَّسع الفضاء. ولم تكن لهما حدود سوى هذا المحيط البحري مع كيانَيْهما.

وعندما خرجا من الماء، وبدلاً من أن يأخذها إلى الحشِيَّة، وضعها على الرمل، وتمدَّد قربها.

قالتْ بصوتٍ خفيضٍ خوفاً من أن يسمعها أحد:

- ما الذي يجري؟ ماذا حصل لي؟ ماذا نعيش؟

فابتسم، وقال:

- (رؤيا يوحنا اللاهوتي)، بلا شك؟

- أي نهاية العالَم إذن.

- لا، إنه نهاية عالَم.

أدارتْ رأسَها باتجاه المِظلات الشمسية و(ميلينا). كانت تلك المرأة غارقة في نسج الصوف. وغير بعيدٍ منها، يجلس (أليكسيس) على الرمل، وكان يتجادل مع رفيقه.

قالت (أنطونيا):

- تعتقِد أنهم رأونا؟

- وإن كانت هذه هي الحال؟

- كنا قليلي الحياء، أليس كذلك؟

- إنهم يعرفون كيف يتظاهرون بالتسامح.

ثم حلَّ صمتٌ طويل، يُوقِّعه أنينُ الهواء الذي كان يهبّ على الخليج الصغير. مرَّرتْ (أنطونيا) يدَها اليمنى على امتداد إعاقتها، وقرَصَتِ اللحم بين إبهامها وسبّابتِها وتركته. وقالت:

- لا شيء.. لا شيء يحيا تحت هذا الجلد. ماذا ستصنع بنصف ميّتة؟ من يرغب فيها؟

فردَّ بلا تردُّد قائلاً:

- يرغبُ فيها أحدُهم، وهو أيضاً ميِّتٌ جزئياً.

- اشرح لي ذلك.

- أنتِ لا تعرفين حياتي. أريد أن أتحدَّث عن حياتي القديمة، أي حياتي قبل جزيرة (باتموس). ويوماً ما، سأبوح لكِ بكل شيء. واعلمي فقط أننا أنا وأنتِ صنوانِ. إننا مختلفان، ولكننا صِنوانِ. إن جزءاً صغيراً من جَسَدِك ميِّت بالفعل، وإن جزءاً صغيراً من روحي كذلك.

- إن الروح يمكن أن تحيا، يا (تيو)، أما الجسد، فلا.

- جزئياً، نعم. أنا مقتنِعٌ بذلك.

فقالت بسخرية:

- بشرابٍ سحري؟

- إنني جادٌّ. وأنا أفكِّر في ذلك أحياناً.

- المشي؟ الشفاء؟ استرداد استعمال ساقَيَّ؟ إنه لمستحيل.

- لا يُعْقَل. ولكنني أفكر في مدخل آخر. فدعيني أفكِّر أيضاً قليلاً. وسأجيبك. هذا وعدٌ مني.

فأشارت بسبّابتِها نحوه، وقالت:

- احترِسْ، يا دكتور: «لا تغذّي الأمل في مَنْ لا أمل فيه». وإلا انفتحتْ عليك أبوابُ الشر.

(15)

كان الوقتُ ليلاً. وكانت هنالك بضع شمعاتٍ تضيء صالون المنزل، وتضفي على (تيمور) مَظهَراً شبحياً. كان يَذرَعُ الغرفة جيئة وذهاباً، وكأنه يبحث عن مخرج. وقال:

- إن ما فعلتَه لم يكن حسناً! من قبلُ، كنتَ تثِق بي، وكنا نتقاسم كلَّ شيء. غير أنك، منذ بضعة أيام، تحبس نفسك، وتنطوي عليها. وقد أصبحَتْ حواراتنا محدودة بأمور تافهة: «هل نِمْتَ جيداً؟ ماذا تريد أن تحضِّر لك الخادمة من طعام؟ هل راجعت درس الجغرافيا؟»، وحماقات أخرى! لم أعد أحتمل عدم وجودك!

واصل (تيوفان) بهدوء ضبط أوتار غيتاره، وقال:

- لا يجدي في شيء أن تزعق، يا بُنَيّ. فأنا على بعد متر واحد منك.

- نعم! لسوف أزعَق. فهذا يُنفِّس عني.

ثم توقَّف، ويداه خلف ظهره، متقوِّس الظهر.

فكَّر (تيوفان): «كأنه رجل عجوز».

واستأنف (تيمور) قائلاً:

- (ديمتري)، (أنطونيا)، (بيبا)، وذلك (المصري)! (أناغنوس) Anagnos.. فلان.

- إنه (اناغنوستاكيس) Anagnostakis.

-وهذاالطبيبالعجوزالخرِف(باباداكيس)!آ..نعم!و(أليكسيس) أيضاً. كنت سأنسى هذا الـ (فرميسيد)[255] vermicide.

- أنـتَ تعني هذا الـ (فرميسِـلّ)[256] vermicelle، على ما أظن؟

توقّـف (تيمـور)، ونظر بـازدراء إلـى أبيه، وقبضتـا يديه على وَرِكَيْه، وقال:

- لقـد حلَّ محلّي، أليس كذلـك؟ الحقيقة! أنتَ تؤثِرُه عليَّ. لا تكْذِبْ!

وضع (تيوفان) الغيتار بجانب الحائط.

- عد إلى الواقع!

- مستحيل!

- مـن أيـن طرأتْ لك هـذه الفكرة، وهي أنني أسـتطيع إيثار غيرِك عليك؟ هل نسيتَ أنك ابني؟

- لقد ذهبتَ للغوص معه. ووعدته أيضاً بالعودة إلى الغوص ثانية، وأنت..

- توقّـف، يـا (تيمـور)! هذه مجـرّد غَيْـرة! أن تشـاطر بعض اللحظات مع (أليكسـيس) لا يعني أنه حلَّ محلَّك. أنتَ لا يمكن أن يُستبدل بك أحد، لأنك أنت من لحمي، لا هوَ.

- ومـع ذلك أعلنتَ لـ (أنطونيا) أنك تحب (أليكسيس).

- هنالـك فـرق دقيق. لقد قلتُ: «أحبه كثيراً»، وهذا لا يشـبه ذاك بتاتاً.

(255) هذه الكلمة تعني (المادة التي تقتل الديدان) (المترجم).

(256) هـذه الكلمة تعني (الشُّـعَيْرِيّة) وهي من المعجنات الجافة التي تشـبه (المعكرونة) لكنها رفيعة جداً، ولعلَّ (تيمور) أراد أن يكنّي بها عن نحافة (أليكسيس) وهزاله (المترجم).

نهض (تيوفان) وأشعل مسجِّلة الـ (Hi - Fi)[257]، ووضع فيها (سي دي) CD لـ (جون ويليامز)[258] John Williams، فاجتاحت الفواصلُ الأولى الساحرة لـ (المعزوفة المكسيكية)[259] Scherzino mexicano الغرفة.

قال (تيمور):

- ومع (انطونيا)، أين أنتَ منها؟
- هذه ليستْ قضيتَك.
- خطأ! من حقي معرفة ذلك! وأنا مَعْنِيّ بها.
- معنيٌّ بها؟
- طبعاً. إنْ كانت قضيتك جادة، فستطرد أمي، أليس كذلك؟

صبَّ الطبيبُ لنفسه كأساً من شراب (فوكيانو)، وذهب للجلوس.

- لقد أبديتُ لك ملاحظة أنه منذ ثلاث سنوات لم تُطْرَح هذه المسألة. اسمع، يا (تيمور).. أنت تعذِّب نفسَك للاشيء. صحيح أنني منجذب - وهذه الكلمة ضعيفة - إلى (أنطونيا). لأنها تفتنني.. وهي تجدِّدني. وقد أذكَت النار التي كنتُ أعتقِد أنها خَبَتْ. لكن كل شيء معقَّد. وفارقُ السِّنّ قبل كلِّ شيء..

- هذا تماماً! يمكنها أن تكون ابنة لك. فعلاقتك بها غير طبيعية!

(257) هذه الكلمة اختصار لكلمتين هما (High - Fidelity)، يعني إعادة إنتاج الصوت وتضخيمه بأمانة أو دقة عالية، عن طريق جهاز صوتي كهربائي ذي مكبِّرات متعددة (المترجم).
(258) جون ويليامز: مؤلِّفٌ موسيقي أمريكي (ولد سنة 1932)، وقائد فرقة موسيقية، وعازف بيانو، ويُعَدّ على نطاقٍ واسع أحدَ أكبر مؤلِّفي موسيقى الأفلام في كل تاريخها، وقد أسهم في وضع موسيقى أفلام الرواية الخيالية (هارِّي بوتِّر) Harry Potter الشهيرة (المترجم).
(259) المعزوفة المكسيكية: من أشهر مؤلَّفات (ويليامز) الموسيقية المعروفة والمنتشرة التي تعزف على الغيتار (المترجم).

رفع (تيوفان) حاجبيه دَهِشاً، وقال:

- انتبه، انتبه. من قليل، أبديتُ لك ملاحظةً أنني أكبر منها بعشرين سنة، فكان ردُّك: «هذه مشكلتُك، لا مشكلتها». وأنت كنتَ تبدو مشجِّعاً لي على هذه العلاقة. أليس ذلك صحيحاً؟

أعرض الفتى المراهق عن ذلك منزعجاً، وقال:

- والآن، أين المشكلة؟

- إنها بالتحديد مشكلة السن. فعندما أكون في الخامسة والستين، سيكون عمرها ستاً وأربعين سنة. وستكون في أوج جمالِها وأنا على الزَّلاقَة، والانحدار نحو الأغوار.

قام (تيمور) بخطوة نحو أبيه وتأمَّله برصانة، وقال:

- لقد أهملتَ عنصراً آخَر.

عقد (تيوفان) ذراعيه على صدره وترقَّب التالي. فقال (تيمور):

- هو الطفل. إنها سترغب في طفلٍ.

- أنا أحلُم! من أين جاءتك مثل هذه الأفكار؟

- على الرغم من مرضها، يمكن أن يكون لها أطفالٌ، أليس كذلك؟

- لنغيِّر الموضوع.

- هل يمكنها أم لا؟

- نعم. ولكن ليس من غير مخاطر التعقيدات.

- مثل ماذا؟

- أنت تضايقني!

- أن تموت؟

- لا نبالغ. نزيف. قصورٌ تنفُّسِيّ. وستكون عاجزة عن استعمال

الركاب أثناء الولادة بسبب الـ (تشوُّه في مِفْصَل الركبة) genu recurvatum لديها. وفي هذه الحالة، يجب اللجوء إلى الولادة القيصرية. باختصار.. لسنا بصدد ذلك. وهيهات!

تأمَّل (تيمور) وقتاً طويلاً، وقام بخطوة أخرى وسأل وهو يشير إلى ذراعي أبيه:

- ممكن؟

- يا له من سؤال! تعالَ.

فضمَّه (تيوفان) إليه، وقال:

- لا فائدة من تعذيب أنفسنا. هذا غير معقول. إني أحبّك.

- إنني خائف، يا أبتي. خائف من غيابك. مع أنني أعلم أن وقت ذلك سيأتي. وهذا واضح. ولم يكن ذلك يبدو لي قط واضحاً. وبقي لي سؤالٌ واحد مهمّ: لقد تركتَ (أنطونيا) تفهم أن بإمكانها أن تستردّ الاستعمال الجزئي لساقيها. فهل كنتَ تكذِب عليها؟

- انتبه! كان جوابي بلا التباسٍ: لا يُعْقَل.

- إذًا ماذا تنوي؟

- أنوي استلهامَ (لِيْس هارتِل)[260] Lis Hartel.

- (لِيْس هارتِل)؟ من؟

(260) ليس هارتل: كانت فارسةً تدريب دانماركية على ركوب الخيل (1921 - 2009)، وفي سنة 1944، كانت حاملاً بطفلها الثاني، وصارت ضحية لشلل الأطفال polio، وبقيت مشلولة تحت الركبتين، وخضعت لإعادة التأهيل ثلاث سنوات. وفي سنة 1952، السنة التي حصلت فيها المرأة على حق المشاركة في الألعاب الأولمبية، اشتركت فيها، في (هلسنكي) Helsinki (عاصمة فنلندا)، وحصلت على الميدالية الفضية. وبعد أربع سنوات، حقَّقت النتيجة نفسَها في (ستوكهولم) Stockholm (عاصمة السويد)، على الرغم من أنها كانت تحتاج إلى مساعدة لركوب الحصان والنزول عنه، وأصبحت مضرب المثل في تحدي الإعاقة، وانتشرت شهرتها في أنحاء العالَم، وسميت باسمها نوادٍ كثيرة للفروسية في الدانمارك وغيرها من البلدان تخليداً لذكراها (المترجم).

- امرأة.

- كان قلبي يحدثني بذلك، ماذا أيضاً؟

- إن نقطة الانطلاق في كل شيء هي: انتصار الفكر والإرادة على المرض.

- اشرح لي ذلك.

- مرّةً أخرى.

- كمـا تشـاء. وفـي انتظار ذلـك، قُلْ لي على الأقـل ما الذي تعتَزِم أن تفعلَه لساقَيْ (أنطونيا).

- أريد أن يكون لها أربع أرجل.

- أربع أرجل؟

كرَّر (تيوفان) قوله:

- أربع أرجل.. نعم.

(16)

أخفَتْ ريحُ الشَّمال السُّحُب التي كانت تحجُب الأفق. وصخور جزيرتي (ليبسي) و(ماراتي) الصغيرتين، المغطاتين بالسحب البيضاء الأخيرة، يبدو أنهما طفتا فوق الأمواج[261].

كان هنالك قطيع من الماعز، ذواتي الضروع المثقلة يسبقه راعٍ، ينحدر بخطى ثقيلة، من المرتفعات المجاورة. ويتبعه كلب.

اعترف الدكتور (باباداكيس) وهو يعرج قائلاً:

- إنني أفهم شعور التمرد لدى هذه الفتاة الشابة. وللأسف، ليست الحياةُ سوى ظُلْمٍ، يا صديقي.

وأشار إلى مقعد حجريّ عند منعطف الزقاق، كان الرجلان قد جلسا عليه في متاهة (شور). وقال:

- لنجلِسْ، ألا ترغب في ذلك؟ إن الصعود والنزول عبر هذه الشوارع الصغيرة ليس مناسباً لمفاصلي.

كان الجو لطيفاً. سماء صافية صفاءً لا يُصَدَّق كان يغطي المشهد. وكانت المدينة تغفو.

قال (تيوفان) وهو جالس قرب زميله:

---

(261) يبدو أن هاتين الجزيرتين القريبتين من (باتموس) تُغمَران بماء البحر في أوقات، وينحسر عنهما في أوقات أخرى، لتركيبهما الجيولوجي الرقيق (المترجم).

- انــت تعــرف. ليس فــي العالـَم ما هو أشـدُّ خيبـةَ أملٍ لطبيبٍ حين يعلِن لمريضه قائلاً: «آسِّـف. لا أملَ في شفائك». وهذا هو الشـعور الذي أحسسـتُ به عندما طلَب إليَّ (آخيل) والـد (أنطونيـا) بالتبنـي، إن كان بالإمكــان فعـل شـيء من أجلها.

ثم أخذ نفَساً قصيراً، وقال:

- ومن تلك اللحظة نشأتْ الفكرة التي عرَضتُها عليك. فهل هـي فكرة مُحِقَّة؟ وهل أمامها فرصة، ولو طفيفة، للنجاح؟ إنني في حاجةٍ لرأيك.

ردَّ (باباداكيس) أولاً بهزِّ كتِفَيه، ثم قال:

- هـل تعـرف الدكتـور (البيـر ماسُـون)[262] Albert Mason؟ تعـود القضيـة إلـى الخمسـينيات. ففـي سـنة 1951، كان هنالك فتًى عمره ستة عشر عاماً، جسمه مغطًّى بالثآليـل البشـعة التي تنشـر رائحـة كريهة، وقـد حضر إلى عيـادة (ماسُـون). كان جلـده القاسـي، والجـاف، يشـبه جلدَ فيـلٍ، وكان ذلك منذ ولادته. نفَض الطبُّ المتعارَف عليه يديه منـه. وقـرَّر (ماسُـون) حينـذاك أن يعالـج مريضَـه بالتنويم المغناطيسـي فقـط. وهـو منهـج موجـود مـن آلاف السـنين. هل تعلم أن المصريين القدماء كانوا يستعملونه؟ وأنا شخصياً، أتيحـت لـي الفرصة لقراءة مقطـع من البَرْديّة الشـهيرة في

(262) البير ماسُـون: طبيب إنكليزي، استطاع عن طريق المعالجة بالتنويم المغناطيسي أن يعالج بقعة من جلد الفتى السميك الذي كان مغطًى بما يشبه حراشف السمك، خلال عشرة أيام، وتابع مـن ثم هذا النوع من العلاج، حتى عاد جلد الفتى المريض كجلد غيره من الفتيان العاديين، وقد كتب بحثاً عن ذلك سنة 1952 (المترجم).

(ليدن)[263] Leyde، وقد وُصِفَ فيها ما يقارِب كثيرًا جلسةَ تنويم مغناطيسي.

- أَعترف بجهلي ذلك.

فضحك (لوكاس) من قلبه، وقال:

- إني أعذُرك. لنعُد إلى الدكتور (ماسُون) ومريضه الشاب. ركَّزت الجلسة الأولى فقط على منطقة الذراع. وعندما دخل الفتى في غَشْيَة التنويم المغناطيسي، أكَّد له زميلُنا صراحةً أن جلده سيُشْفى، وأن الثآليل ستختفي. ولما عاد بعد أسبوع، اكتشف المعالِج أن الثآليل قد اختفت. ولما كان متأثِّراً، ومتفوِّقاً بلا شك بمأثرته الخاصة، قرَّر على الفور أن يرجِع إلى الجرَّاح الذي أرسل إليه هذا المريض. وكان هذا الجراح، الذي أذكره عرَضاً، قد حاول مرتين تطعيم جلد الصبي، بلا أي نجاح. وكانت النتيجة مذهلة، وفي الأصل لم يكن الفتى يعاني من ثآليل تافهة، وإنما من مرضٍ جيني يتيم يدعى (داء السَّمَك) الخَلْقِيّ ichtyose congénitale. وقد أنجز (ماسُون)، آنذاك، عن طريق اللاشعور التام وبسلطته العقلية الوحيدة، ما كان يُعَدّ، حتى ذلك الحين، أمراً مستحيلاً، وهو: قهر مرض جيني بالطاقة العقلية وحدَها. ويحافز من نجاحه، واصل الطبيبُ معالجة الصبي، بالتنويم المغناطيسي أيضًا، حتى حصل له على الشفاء التام.

كان (تيوفان) يبدو مشدوهاً، وقال:

- أتصوَّر أن حكايتك لا تتوقَّف هنا؟

(263) ليدن: من المدن الكبرى في (هولندا) وهي Leiden باللغة الهولندية، وفيها أقدم جامعة، واشتهرت بقسم الاستشراق العريق الذي كان يهتم بطباعة الكتب العربية في مطبعة (بريل) Brill الشهيرة، وعرف بحفظ المخطوطات والوثائق من كل نوع، ومنها البردية المشار إليها التي اكتشفت في (طيبة) بمصر في القرن 19 (المترجم).

- بالضبط. في السنة نفسها، وصفَ (ماسُون) علاجه بالتنويم المغناطيسي في المجلة الرصينة جداً (المجلة الطبية البريطانية The British Medical Journal). وقد أحدث المقال وقعاً لا بأس به. وقد هلَّل له البريطاني في وسائل الإعلام، وكانت النتيجة المنطقية، أن المرضى القادمين من أربعة أركان (إنكلترا)، والذين كانوا يعانون من المرض نفسه، اجتاحوا عيادتَه. وفي هذه المرحلة أصبحت القضية محيِّرة.

أمسك (باباداكيس) بمنديلِه وجفَّف عرَقَه، قائلاً:

- ألا ترى أن الجوّ حارّ؟

- لا. ليس صحيحاً.

- إذًا، هذا هو التعب. أين كنتُ وقفتُ؟

- كنتَ تقول إن الازدحام..

- آ.. نعم! كان المرضى يتزاحمون عند (ماسُون). ولأسباب يتعذَّر تفسيرُها، لم يُفلِح العلاج بالتنويم المغناطيسيّ. وأخفقتْ كلُّ محاولات الطبيب.

- وهل من تفسير؟

- هنالك تفسيرٌ وحيد، هو تفسيري. فأنا مقتنعٌ بأنه لما أصبح يعي خطر المرض المعالَج في المرة الأولى وبجهلٍ تامٍّ، تسلَّل الشك إلى روح (ماسُون). ففقد قوة الإقناع التي أبداها عند الانطلاق ونقل شكوكَه إلى المرضَى الجدُد. ومن تلك اللحظة، أصبح عاجزاً عن إعادة إنتاج السلوكِ الجادّ والعفوي الذي كان لدى الطبيب الشابّ المقتنع بمعالجة حالة صعبة للتآليل وليس لـ (داء السمك) الخَلْقِيّ.

رفع (تيوفان) حاجبيه، وقال:

- اعذُرني، إن تفسيرك لا يكفي. فـ (داء السمك) الخَلْقِيّ تسبِّبه جينة (مورِّثة) gène. فكيف يتم الاستنتاج بأن الروح - لأن الأمر يتعلق هنا بالقوة الوحيدة للروح - يتجاوز البرمجة الجينية؟ وبأي شيء كان بإمكان يقين (ماسُون) في معالجته أن يؤثِّر في نتائجه؟

- لأنه على الرغم من أن الطِّبّ الغربي كان يسعى دائماً وبمنهجية إلى فصلهما، فإن الروح والجسد مرتبطان ارتباطاً حميمياً. وأنا مقتنع بأن الروح، التي هي طاقة محضة، يمكن أن تؤثِّر في الجسد، الذي هو مادة محضة.

فكَّر (تيوفان) بضع لحظات قبل أن يبدي ملاحظة بقوله:

- أنت لا يفوتك العلم، بطبيعة الحال، بأن هذه الفرَضيّة مرفوضة على نطاق واسع من قِبَل عقول العلماء، كـ (ديكارت)[264] Descartes وغيره. وبالنسبة للفيلسوف المادة يمكن أن تؤثِّر فقط في المادة. وروح «غير مادية» لا يمكن أن تؤثِّر في جسد «مادي».

فثار (لوكاس) وقال:

- ثُبْ إلى رُشْدِك. فطاقة الفكر تتمكَّن من تنشيط إنتاج الخلية من البروتين أو تثبيطه بآلية تداخلات بنَّاءة أو سلبية تخفَى عنا قواعدها، وهذا صحيح. خذ هذه الممارسة الهندوسية الغريبة في المشي على النار. أليستْ مثالاً شائعاً يتحدَّى به الواقعُ المعتقد العلمي الثابت؟ وعلى الرغم من أن حرارة الفحم

(264) ديكارت: (رُنيه - René)، فيلسوف وعالم فرنسي (1596 - 1650)، دافع عن الأولوية المطلقة للعقل التحليلي، من أجل الوصول إلى الحقيقة، مطبقاً هذا المبدأ على الرياضيات والفيزياء، وكان لأفكاره تأثير واسع في الغرب، ومن أهم ما اثر عنه (خطاب حول المنهج)، وهو القائل: (أنا أفكر إذًا أنا موجود)، وتبنى نظرية الشك أيضاً (المترجم).

وزمن العرض كافيان لإصابة الماشين عليه بحروقٍ بليغة في القدمين، ولكنهم يخرجون منه سالمين تماماً. ومثالُ المصابين بالسرطان الذين يستردّون صحتهم بعد شفاء تلقائي، أليس محيِّراً أكثر كذلك؟

- ليس الأمرُ كذلك، إنْ قبلتَ أن هؤلاء المرضَى كانوا موضوع خطأ في التشخيص.

رفض (باباداكيس) الاقتراح بإشارة من قفا اليد، وقال:

- وتأثير العلاج البديل placebo؟ الا يقدِّم برهاناً مطلقاً على ما أسميه تأثير المعتقَد؟ البرهان الذي يتعذّر رفضُه على طاقة شفاء الجسم من قبل الروح؟ وفي الحقيقة، وإذا ما كان البحث في هذا المجال وجد نفسه في نقطة ميتة، أو شبه ميتة، فذلك يعود بشكل رئيسي إلى المسائل القذرة للمصالح المالية. فهل عليَّ أن أعلِّم طبيباً مثلك كم تُنتِج صناعة الصيدلة من مليارات الدولارات وكم تستثمر في البحث الكيميائي؟ وفي المقابل، إن كان بالإمكان أن توضع قوة الروح في أقراص، فلسوف تُفاجأ برؤية عدد المختبرات التي ستصنِّعها!

وشَخَصَ ببصره نحو شجرة زيتون تنتصب غير بعيد وصمَتَ.

احترم (تيوفان) صمته، حتى برز السؤال الذي كان يُحْرِق شَفَتَيْه، وقال:

- أنت تعتقد إذًا أن فكرتي ليستْ غير معقولة كلية؟

- وملهِمتُنا، (ليس هارتِل)، ألم تُثبِت ذلك؟ وما كنتُ قد عرضتُه عليك للتو ألا يؤكِّده؟ ومع ذلك، أعلمك أن عليك أن تبرهن على صبرك وإصرارك على نتيجةِ غير أكيدة. وتَشْعُر أنك أهلٌ لها؟

- تماماً.

- وعليك أن تُحِبّها.

- حتـى لـو كان الرجـل لا يحبّهـا، فعلى الطبيـب أن يحاول ذلك.

أنارت ابتسامة ملامح (باباداكيس)، فقال:

- وفـي النهايـة، لن أكون مخطئاً إن أعلنتُ ذاتَ يوم «أن لدينا دومـاً حيـاةً يجب إنقاذهـا. لا كلّيّةً بلا شـكّ، ولا نهائيّـاً، ولكنها موجودة».

أقـرَّ (تيوفـان) بذلـك بانحنـاءة من رأسـه، بينمـا كان زميله يضيف قوله:

- وحينئذٍ، ربما يكون تشاطر الأرواح هذا هو تشاطر فدائك.

أشـار (باباداكيس) بسـبّابته إلى شـجرة الزيتون وقال بصوتٍ عميق:

- هل تصدِّق أنها سئمت من بلوغها نحو مئة عام؟

* * *

((2فنظـرتُ وإذا فـرسٌ أبيضُ والجالسُ عليـه معه قوسٌ وقد أُعْطِيَ إكليلاً وانطلق غالباً ولكي يغلب

3ولمـا فَتَحَ الختـْمَ الثاني سـمعتُ الحيوان الثانـي قائلاً هلُمَّ وانظُرْ

4فخـرج فـرسٌ آخَـرُ أحمـرُ وللجالِـس عليـه أُعْطِـيَ أن يَنْزِعَ السَّلامَ من الأرضِ وأن يقتُل بعضُهم بعَضَاً وأُعْطِيَ سَيفاً عظيماً

5ولمـا فَتَـح الخَتْمَ الثالثَ سـمعتُ الحيوان الثالـثَ قائلاً هلُمَّ وانظُـرْ. فنظـرتُ وإذا فرسٌ أسـودُ والجالِسُ عليـه معه ميزانٌ في يده

6وسمعتُ صوتاً في وسط الأربعة الحيوانات قائلاً ثُمْنيَّة قَمْحٍ بدينار وثلاثُ ثماني شعيرٍ بدينار وأما الزيتُ والخمرُ فلا تضرَّهما

7ولما فَتحَ الختمَ الرابعَ سمعتُ صوت الحيوان الرابع قائلاً هلُمَّ وانظُرْ

8فنظرتُ وإذا فرسٌ أخضرُ والجالِسُ عليه اسمُه الموتُ والهاويةُ تَتْبَعُه))[265].

فعلى أيٍّ من هذه الأفراس الأربعة تملك القدرة على الركوب، يا (تيوفان)؟ ذلك الفرس الذي يجعلك غالباً، ولكن بأي ثمن؟ أم ذلك الفرس الذي يحمل لك السلام، ولكن بقتل كل الكائنات من حولِك؟[266] أو فرس القاضي والمحب للعدل؟ أو الفرس الذي سيقتلك آخر الأمر؟[267].

فتذكَّرْ (أوريست) الشقي. واحذر ربات الانتقام. وقد قالت لك (أنطونيا): «إن (ربات الانتقام) لا يعرفن سوى قانونهن الخاص ويعاقبْنَ من يخرِقه».

ألقى (تيوفان) سترة الجوخ بحركة غاضبة.

كانت ساعتُه تشير إلى الثانية صباحاً.

(265) نقل المؤلِّف نصّ ترجمة ما بين قوسين إلى الفرنسية من (رؤيا يوحنا اللاهوتي) المعروفة باسم (Apocalypse)، ونقلنا نحن مقابله تماماً من: الكتاب المقدس، الترجمة العربية المنشورة في المطبعة الأمريكانية ببيروت، سنة 1913، العهد الجديد (المترجَم عن اليونانية)، الفقرات 2 - 7 ومن الفقرة 8، ص280 - 281 (المترجم).

(266) يبدو لنا سوء فهم المؤلِّف هنا لمهمة راكب الفرس الثاني الأحمر التي هي انتزاع نزعة السلام من قلوب البشر للميل إلى أن يتقاتلوا إلى حد انقراضهم من فوق وجه الأرض، لا لضمان سلامه الخاص (المترجم).

(267) من الواضح أن المؤلف أساء هنا أيضاً فهم المقصود من الفقرة 8 من (الرؤيا)، فراكب الفرس ليس مستهدفاً بالموت، لأنه هو الموت بنفسه، وأما الهاوية فهي التي تجمع كل من وقع عليه فعله (المترجم).

فنهـض، وتنـاول زجاجة خمـر وصعد الدرجـات المفضية إلى الشرفة.

لم يكن هنالك أي صوت. ولا نَسْمةُ هواء. وكان يبدو أن الزمن ينـام هـو أيضاً، على شـاكلة البشـر، وأن السـاعات تنطوي ريثما ينتهي الليل. وفي الفجر، يُبْعَث كل شـيء ثانية، ويواصل الناسُ تقدّمَهم في السن.

مـاذا تصنع (طونيا)؟ إنهـا ريما كانت نائمة. لا. فبالنظر إلى الطريقـة التـي تركها بها، لا بـد أنها كانت تبحث هـي أيضاً عن النوم. وإلا فإنه لم يكن يفهمها جيدًا.

وقبل بضعِ سـاعات، بعد العَشـاء، ونظـراً لأن (بيبا) لم تظهر مـن المسـاء، ولأن (الباشـا) كان قـد ذهب إلى الصالـون لتدخين سيكاره، أعلنتْ له (أنطونيا) برصانة قائلة:

- أنا غيرُ متأكِّدة.

- غيرُ متأكِّدة؟

- من مشاعري. إن كل شيء يختلط في رأسي. فهل الطبيب يُطَمئِن المريضة التـي أنـا هي؟ أم أننـي، مثـل كل العطاشِ إلى الحنان، أكون مستعدةً لأن ألقي بنفسي على أول مورد؟

- أنت تُغفلين ذكر فرضية ثالثة.

كانت الرموش الطويلة لـ (أنطونيا) ترِفّ كأجنحة الفراشات.

- ألا يمكن تصوُّر شعور يشبه الحب؟

أمسكتْ (أنطونيا) يد الطبيب، ورفعتْها إلى شفتَيْها وقبّلتها.

- هذا هو كل ما كنتُ أريد أن أسمعك تقوله.

ثم:

- يا (تيو). هنالك بعض الأشياء التي كنتُ أحبّ أن أبوح بها إليك.

عقد (تيوفان) ذراعيه فوق صدره إشارة منه إلى انتظار ذلك.

- هـل تذكر اليوم الذي سـألتُك فيه، ونحـن في (غريكوس)، إلـى أي صنفٍ من الرجال تنتمـي؟ فأجبتني: «إنني أجهل ذلك. وأعتقـد ببسـاطة أنني، وقد طغـت عليّ الأولويـات التي لم تكن كذلك، نسيت بلا شك أن أعطي الآخرين».

- وماذا بعد؟

- والآن، أودّ أن أعـرف مـن أنت. نعم، يـا (تيو). أريد أن أعرف هذا الذي يبدي، في عينيك، بريقَ حزنٍ لا نهائي. لقد تنبّأت أمي عـن طريق ورق اللعـب. وبالتأكيد نحن داخـل اللامنطقي. فهل تعلم، مع ذلك، ما كَشـفَتْه؟ كشـفَتْ أن بالإمكان أن تكون مصاباً بمرض لا شفاء منه. فما سِرُّك، يا (تيوفان)؟ بُحْ لي بسِرِّك.

إذا ما تمكّن، في هذا الوقت المحدَّد، أن يتأمَّل في مرآة، فسوف يكتشـف وجهـاً مخيفـاً. ومـع ذلـك حـاول أن يحتفـظ بلهجة طليقة. فقال:

- ورق اللعب! أنتِ مع ذلك تعتقدين بهذا النوع من التنبُّؤ؟

- لقـد تحدَّثتَ للتـو عن مولد الحب. وليس بالإمكان إخفاءُ أسـرار عـن أولئك الذين يحبّهـم المرء. وينبغـي ألا يكون هنالك خجـل، ولا خـوفٌ، ولا حياء. تفهَمُني؟ وأنا في حاجة إلى معرفة من تكون.

إنه لن ينسى أبداً الملامح التي تلبَّسَتْه في اللحظة التي نطقتْ فيهـا هـذه الكلمات. إنها كلمـاتُ اعتقَدَ أنه يسـمع داخلها كلماتٍ أخرى، هي: «إنني سأبحث عن سِرِّكَ، وسأجده، وأستولي عليه».

(كان النزف يستمر على الرغم من الخياطة، بل إنه يتفاقم.

ثم قال:

- تبًّا لهذا!

كان قد فهم الأمر.

فهو عندما قام بثَقْبِ الشريان لتفريغ الهواء، نفَذَ الثَّقْبُ من جانب إلى آخَر.

أصدَر أمره إلى الجرَّاح الثاني قائلاً:

- اسحب الهواء! فإنني لا أكاد أرى شيئاً.

- (تيوفان)! هذا لن يجدي، يجب التوسيع أو التحويل.

- عنده حقٌّ، يا (تيوفان)، فالمريض سوف يُفْلِتُ منا. لا يمكنك أن تتابِع)[268].

* * *

وعلى شكلِ سَيلٍ جارِف، كانتِ الأصوات، والخيالات، تتلاطم بين السماء والأرض. لم تكن ذكرياتُ تلك اللحظات ترد على خاطره منذ بعض الوقت، لكن استجوابات (أنطونيا) بعثتْها ثانية، وبعثتْ معها حِصَّتها من خيبة الأمل.

أودّ أن أعرف من أنت.

وغدٌ! أنت وغدٌ، يا (تيوفان)! وغدٌ ومريض. مريض بالغرور، مريض بالغطرسة التي لا حد لها! لقد دمَّرتَ حياتنا. إنكَ وَحْشٌ[269].

كان قد قال لها:

(268) ما بين قوسين قائمين هنا تَرددٌ لمجريات الحوار داخل غرفة العمليات بين (تيوفان) ومساعديه أثناء إجراء العملية في قلب مريض انتهت إلى الإخفاق بسبب إصراره على نظريته الجراحية التي أراد تطبيقها توفيراً لفتحٍ تقليدي لصدر المريض، وهذا الحوار تكرار لما صفحات سابقة (المترجم).

(269) هذه العبارات ممَّا يرد على ذهن (تيوفان) من أقوال زوجته حين همت بالرحيل عنه، وسبق أن مرَّت بنا (المترجم).

- (أنطونيا)! ، أعطني وقتاً. أرجوكِ. فما زال الأمر مبكّراً جدًا.

- كم من الوقت، يا (تيو)؟

- إن ما أحمله ثقيل جداً. وواسع جداً. إنني..

- نحن الاثنان نحمل صلباناً تبدو لنا أثقلَ من صلبان الآخرين، فهل عليَّ أن أذكِّرك بكلماتك الخاصة؟

وأوردتُ:

- «مَن تحسَبين نفسَكِ؟ هل تتصوَّرين أن كل شيء مسموح به لك بسبب إعاقتِك؟ وأن على الناس أن يجثوا على ركبهم أمام أعضائك التعيسة ويلتمسوا العفو؟ لا، يا (أنطونيا)! أنت مخطئة تماماً». أوَلم تنسَ، يا (تيوفان)، أليس كذلك؟ لقد عذَّبْتَني كثيراً يومذاك. والآن، اشرح لي لماذا عليَّ اليوم أن أقبل ما رفضتَه لي؟

- اليوم، المهم هو نحن. الحاضر. وأن تعرفي ماضِيًّ لن يفيدك شيئاً. ومن نحو آخر، لم يبقَ منه سوى مجموعة من الأطلال، وجيشٍ من الأشباح. لا شيء.

- إنها أشباح لا تزال، مع ذلك، تلاحقك. أنت تريد أن تعالجني من آلامي الطبيعية، وأن تكون صانعَ فَخّاري. أنا موافقة. وأنا جاهزة، شكّلني كما تشاء، فأنا صْلصالٌ بين يدك. ولكن قبل ذلك يجب عليك أن تدعني أصبح (أثيناكَ)[270] ton Athéna. غير أن رياث الجحيم ستلاحقنا كلانا. فهل تتمنّى ذلك؟

فلم يكن بإمكانه إلا أن يكرِّر طلبَه قائلاً:

(270) أثينا: هي إلهة الحق والفنون والعلوم في الأساطير اليونانية القديمة كما سبق أن أشرنا من قبل (المترجم).

- الوقت، أرجوك، امنحيني وقتاً، وعما قريب، وليس بعد ألف سنة، سوف أحرِّر روحك من تساؤلاتها. ولكن قبلُ..

تردَّد، ثم قال:

- أودُّ أن أحاول تحرير جسدك.

فقطَّبتْ حاجبيها، وقالت:

- عَمَّ تتحدَّث؟

- على شاطئ (سابسيلا)، قلتُ لك إنني أفكِّر في مدخل آخر، في علاج آخر للتخفيف من الآلام المفصلية. بالتأكيد، لن يتطلَّب هذا العلاج أن نوقف المعالجة التقليدية، ولكنه سيلعب دوراً مكمِّلاً. وسيكون طويلاً، وهو بلا شكّ مُمِلٌّ، ولكن يمكن في آخر الطريق أن تشعري بتحسُّنٍ في حالتك العامة.

وأسرع في تحذيرها قائلاً:

- انتبهي، وأشدِّد هنا على أنك لن تستعيدي استعمال الساقين في أي حال.

- وفي هذه الحالة، أين الفائدة؟

- لقد أشرت للتو إلى ذلك: إنه تحسين الحالة العامة. وعودة الثقة. والسَّكِيْنَة. وإن كنت ترغبين، يمكننا أن نبدأ غداً صباحاً.

وبعد لحظة من التردُّد، أجابت بقولها:

- لِمَ لا؟ ولكني أحب، مع ذلك، أن تشرح لي ما تفكِّر فيه.

- أفكر في أن أقدِّم لك صديقاً. صديقاً عزيزاً جداً.

ها هي روحُها تخوض معركة منذ عدة أيام. هل يمكن للمشروع أن ينجح؟ ألم يكن قد التزم أكثر من اللازم حينما وعد (أنطونيا) بأن تكون أفضل؟ لقد أخذ على نفسه عهدًا مجنوناً. وغيرَ منطقيّ. وهو يشبه إلى حدٍّ ما الذي حاولَه قبل ثلاث

سنوات، خلال المداخلة الجراحية المميتة. وهذه المرة تزن المجازفة وزناً ثقيلاً. وإذا ما خسِر (تيوفان)، فلسوف يخسر الكائن الوحيد الذي أصبح يهمه في حياته.

* * *

كان هنالك صوت أقدام، لا يكاد يُسْمَع، صوتٌ في ظلمات الليل، فجعله ذلك ينتفض.

هنالك طيفٌ يقترب ببطء. وكأنه كان يطفو فوق الأرض. فقال:

- (تيمور)؟

- نعم، يا أبتي.

- ألست نائماً في هذه الساعة؟

- كنتُ نائماً. وأنت أيقظتني.

- آه.. متأسِّفٌ.

قبع الفتى المراهق بجنب أبيه (تيوفان)، وقال:

- توقَّف عن الشرب، يا أبتي. فيم يفيدك هذا؟ اخرج مرة واحدة من السُّكْر، فلا واحدة من مشكلاتك حُلَّتْ. من فضلِك.

ألقى الطبيب بالزجاجة في الفراغ، وقال:

- ها هي. عُدْ إلى النوم.

التصق (تيمور) أكثر أيضاً بأبيه، وقال:

- عليك أن تبوح بأسرارك، يا أبتي. (أنطونيا) عندها حقّ.

- فعلاً، لا يستطيع المرء أن يخفي عنك شيئاً. وأنت تذكِّرني برواية (1984)[271]. أنت لم تقرأها بالتأكيد، نظراً لأنَّك لا تقرأ.

(271) انظر الهامش التالي (المترجم).

- لا تكن عدوانياً. إنني لا أحب القراءة، ولكن هذا لا يمنعني من أن أكون ذكياً، أليس كذلك؟

- إن الذكاء بلا معارف يشبه سريراً بلا وسائد. فإن كنت تريد أن تواصل النوم منبطحاً..

- عَمَّ يتحدَّث، كتابُك؟

- إن مؤلِّفَه (جورج أورويل)[272] George Orwell يتصوَّر (إنكلترا) خاضعة لنظام شمولي يكون أي فعلٍ أو حركة من السكان فيه مراقباً بشبكة من الكاميرات المسماة (الأخ الأكبر) Big Brother.

ضحِك (تيمور) بهدوء، وقال:

- أنا إذن (أخوك الأكبر).

- بشكلٍ ما، نعم.

- ولِمَ تضِق به ذرعاً؟

- ليس هنالك مساءاتٌ كهذا المساء الذي تبدو فيه وديعاً.

- هذا استثناء. لا توهم نفسك. فأنت تعلم أن بإمكاني أن أظهِر نفسي صعبَ المِراس، أليس كذلك؟ ويمكنني أيضاً أن أُرهِبَك لو أنني قرَّرْتُ ذلك.

وعلى الفور، استنتج من وجه (تيمور) شيئاً من الخداع، وقال:

- حسناً جداً، ماذا عليَّ أن أفعل؟

(272) (2) جورج أورويل: هو (إيريك آرثر بلير) Eric Arther Blair، كاتب إنكليزي (1903 - 1950)، كانت روايته هذه التي تحمل عنوان (1984)، ونُشِرَتْ سنة 1949، قَدْحاً لاذعاً وقوياً في الأنظمة الشمولية، وتابع هذا القدح في أمثولته الخرافية (مزرعة الحيوانات) التي انتقد فيها الشيوعية، ومن كلماته المأثورة المخترعة (الأخ الأكبر) والـ (novlangue) أي: الكليشيهات الجاهزة التي توضع الحقيقة بواسطتها جانباً، أو بمعنى اللغة الخشبية الجاهزة المحفوظة عن ظهر قلب وتُكرَّر كما هي حسب الظرف أو المناسبة، منفصلة عن الواقع الحقيقي، وهذه من أبرز ميزات تلك الأنظمة، وهي لغة تجمِّد الفكر وتقتل الإبداع عند الناس (المترجم).

- تكلَّم مع (أنطونيا). من غير أن تخفيَ عنها شيئاً.
- وتُدرِك، مع ذلك، أن عليَّ عندئذٍ أن أكشف لها عن حياتِك.
- آ.. لا! لا شيء يجبرك على ذلك. أنت وأنا شيئان مختلفان. وأفضِّل أن أبقى مجهولاً مدة طويلة جداً بالقدر الذي أراه ضرورياً. ولكن لا تخشَ شيئاً، فسيأتي ذلك ذاتَ يومٍ..

ابتعد (تيوفان) عن الصبي، وقال:

- لسوف أفكِّر. ولكن اعلَم أنني قبل أن أكلِّمها، أريد أن أُجْري تجرِبةً. وهذا رِهان.
- نعم. إنني أعرف ما هي. وأعتقد أنك تصنع خيراً. بقي أن تعرف إن كنت ستنجح.
- إن لم أحاوِل، فإننا لن نعرفه أبداً. والآن، اذهب إلى النوم..

هبَّت ريحٌ دافئة، فحرَّكتْ قممَ أشجار الزيتون التي كانت تحيط بالمنزل. وانسحب (تيمور).

* * *

رفع (تيوفان) رأسَه نحو الليل. كم هنالك من نجوم؟ وكم بينها ما لا يزال حيّاً؟ وكم من بينها ما لا يمثِّل سوى صورة خادعة؟ تناقضٌ ظاهري مطلَق يضعنا أمام حقائق مزيَّفَة. أوَلم تكن هنالك نجوم بعيدةٌ جداً عنا ولا يزال نورها يتابع طريقه ليصل إلينا، في حين إنها ماتت منذ زمن طويل؟ ضوء حقيقيٌّ ينبعثُ من مصدر اختفى. هذه هي، في الحقيقة، خلاصة الوجود. كائن عزيز يغادرنا، ولكنه لا يكفّ عن أن يَشِعّ علينا. حبيب يموت، ولكنه يغوص في ذاكرتنا. إنها البصمات الشهيرة التي لا تَمَّحي لـ (تيوفان).

هنالك حقيقة مع ذلك في تشابك ارتداداتها هي: تكلُّف المسافة الغريبة التي ظهرت بين (أنطونيا) وبينه في وقت هِياج

مشـاعرهما في مياه (سابسـيلا). وفجأةً، ها هـي الظروف تقدّمُ لهمـا فرصـة ثانية لإعـادة البناء بينهمـا. هذا السـيلُ الداخلي الذي تفجَّر، ألا يجرِف الوعد بفجر جديد؟

إنني سأبحث عن سِرِّكَ، وسأجده، وأستولي عليه.

من زمان بعيد، حتى وهو شـاب، كان لديه حياء غريب يمنعه مـن أن يكشـف لأي كان أفـكاره الحميميـة. فلقـد كان يفتقـر دومـاً إلى هذا الإيمـان النقي، إيمانِ الأشـخاص الأتقياء الذين يتوجَّهون إلى ربٍّ ويعترفون له بأسرارهم الأكثر خَفاءً. وربما كان هذا يفسِّر لماذا لم يكن الألم والاكتئاب يغادران روحه حتى يعودا إليها. وأخيراً، وبسبب عدم ثقته إلا بنفسه، وبفحصها، انتهى به الأمـر إلى أن يغـرق في بحر القنوط، غيرَ سـاعٍ أكثر إلى الكفاح ضد المصير وقدراته الغامضة.

إنني سأبحث عن سِرِّكَ، وسأجده، وأستولي عليه.

ولو أنه جنَّب نفسه هذا المسلك.. لاحتفظ بسلطته عليها.

نهض فجأة. كان يختنق. كان عليه أن يبوح لأحدٍ ما. أن يُفْرِغ روحَه. وأن يرتفع لآخر مرة خارجَ الجحيم.

(17)

اجتاز (تيوفان) المسافة التي كانت تفصِله عن منزل (ديمتري) في نحو عشرين دقيقة كما لو كانت ربات الانتقام في أعقابه. ونزل عن دراجته النارية وطرق الباب. مرةً، مرتين. كانت الساعة الرابعة صباحاً. يبدو أن (ديمتري) كان ينام مثل جِذْعِ شجرة. فضاعف الضربات وهو ينادي بالاسم الأول لصديقه. وأخيراً، فُتِح مصراع الباب قليلاً، فأتاح رؤيةَ وجهٍ كثيف الشعر.

- (تيو)، ماذا تفعل هنا؟

- هنالك أمر عاجل.

سدَّ اليوناني عليه الطريق، وقال:

- قِفْ! قُلْ لي ما الذي يجري. فأنا..

- ألا تعتقد أننا سنكون مرتاحين أكثر في الداخل؟

- الأفضل.. الأفضل أن نتناقش هنا. فأنا..

- أنت تمزح؟

حاول (تيوفان) مرة أخرى أن يجتاز العتبة، غير أن صديقَه واصل مقاومته لذلك.

- تباً! بأي شيء تلعب؟

فهمَس اليوناني بقوله:

- لستُ وحدي.

- ومـاذا بعـد؟ لقـد سـبق أن رأيـتُ عنـدك سـائحاتٍ! ولـن نزعجَهُنَّ.

ومن غير أن ينتظر، دفع (تيوفانُ) اليونانيَّ، وتقدَّم خطوة إلى الأمام وهزمه بجلاء. فرأى أمامه (بيبا فاسِّيلي) متلفِّعة بمُلاءةٍ. شـعرها مسترسِـلٌ علـى كتِفيهـا، ولا يكاد جسـدها يسستر.

اعتذر الطبيب قائلاً:

- أنا خَجِلٌ، لم أكن أعلَم.

- لا، يا (تيو). لا بأس.

وأضافت تقول مع ابتسامة بريئة:

- ليس لديَّ ما أخفيه.

فتظاهر بالذهاب، قائلاً:

- أدعُكما.

احتجَّتْ (بيبا) وقالت:

- ابقَ، ابقَ. لسوف أعود للنوم.

وألحَّ (ديمتري) بدوره، قائلاً:

- عندها حقٌّ، ابقَ، بما أنك دخلت الآن الماخور..

نظر الطبيب إليه، ثم إلى (بيبا)، وارتمى على كرسي موسد.

اقترح عليه اليوناني قائلاً:

- سأصنع قهوةً، فهل ترغب فيها؟

فأجاب برأسه: لا.

ولما ذهب (ديمتري) نحو المطبخ، اقتربتْ (بيبا) من (تيوفان) جداً. كانت رائحة الحب تفوح من جسدها. وقالت:

- كل شـيء سـيكون على ما يُرام. لقد قرأتُ ما يرهِق روحك. وأنت لستَ الوحيد في العالَم.

لقد خاطبتُه بضمير المفرد[273]. فهل كان يفهمها؟

وتابعت تقول:

- إنني أعلَم أن تعاسة الآخرين لا تُعَزِّينا عن تعاستنا، ولكنها تسمح لنا بجعلها نسْبيّة. هل تتذكّر؟ كنتَ تحاول أن تعرف لماذا كانت صديقاتي يلقِّبْنَني باسم البطلة اليونانية (بوبولينا). وأرغب في أن أقول لك ذلك الآن.

رفعَتْ (بيبا) الملاءة التي كانت قد انزلقتْ وجلستْ قُبالة (تيو). وقالت:

- منذ أن استولت اللجنة العسكرية على السلطة سنة 1967، انخرط والد (أنطونيا) في المقاومة. وكان يُدْعَى (بافلوس) Pavlos. إنه كائن قوي ومقدامٌ كما كان اليونانيون الحقيقيون. وحاولتُ عبثاً أن أُفْهِمَه أنه يعرِّض نفسَه للمخاطر، وأن عليه أن يفكِّر فيَّ، وفينا، وفي ابنته أكثر من وطنه (وكان عمر أنطونيا آنذاك سبع سنوات)، فلم يُصْغِ إليَّ. لقد كانت أذناه تَطْرِبانِ لكلمات (حرية)، (عدالة)، (استقلال). وعندما حملوا جثمانه إليَّ بعد سنة، ذات صباح من صيف 1968، مثقَّباً بالرصاص، وأطرافه محطّمة، وعيناه مفقوءتان، شعرتُ بأنني قد انتهيتُ، وأن روحي وقلبي تحطما إلى الأبد. وخرجتُ إلى الشارع وصحتُ من ألمي كذئبةٍ أمام جثة صغيرِها. وبعد أيام وليالٍ مليئة بالدموع مضتْ ساعة الغضب، وجاءت الرغبة في الانتقام.

(273) يعني بالضمير (أنت = tu) الذي يتخاطب به الأصدقاء والمعارف عند الفرنسيين، بدلاً من الضمير (أنتم = vous) الذي يكون الخطاب به للغرباء وفي الرسميات وللاحترام (المترجم).

سنَدَتْ (بيبا) نفسها في أريكتها، وأدخلت أصابعها في شعرها المشَعَّث، وقالت:

- لقد رويتُ لك أننا كنا نتعرَّض، عندما كنتُ أعمل في (إيبيفانيا)، لزيارة هؤلاء السَّفَلَة من (الكولونيلات). واحدٌ منهم كان يتردَّد علينا بانتظام. في كل يوم إثنين. في الساعة الثانية عشرة تماماً. فاحْزرْ لماذا! هذا الشخص كان قريباً لـ (ستيليانوس بَتَّاكوس) Stylianós Pattakós [274]، أحد المحرِّضين على الانقلاب. وكانت الفتياتُ يكرهْنَه. وكُنَّ يسمينَه (موسُوليني)[275] Mussolini، لأنه كان يحمِل الرأس نفسه لمتخلِّف عقلياً مثل قَزَم (إيطاليا). وقد رقتُ في عينيه. وعلى الرغم من مراودته لي، ومئات الدولارات التي صَفَّها أمام ناظريَّ، رفضت دوماً أن أنام معه. فقد كان يبعثُ الغثَيانَ في نفسي. وبالفعل، أصابه هذا بالهستريا. وانتقل من الغضب إلى التوسُّل. وهذا ما جعل منه شخصاً محتقَراً. أنت تعرف كيف يكون بعض الناس: يكفي أن يُرْفَضُوا حتى يتذَلَّلُوا.

لوَتْ (بيبا) شفتيها، كما لو أن شيئاً من الدَّنَس لامسهما، وقالت:

(274) ستيليانوس بَتَّاكوس (1912 - 2014): أحد أعضاء اللجنة العسكرية المعروفة بلجنة (الكولونيلات)، عيِّن بعد انقلاب 1967 وزيراً للداخلية، اعتقل سنة 1974، بعد إسقاط الدكتاتورية، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف إلى السجن المؤبد، ومن ثم أخرج من السجن لأسباب صحية (المترجم).

(275) موسُوليني: هو (بينيتو - Beneto)، رجل دولة إيطالي (1883 - 1945)، أسس (الحركة الفاشية) fascisme. وتولى السلطة سنة 1922، وتحالف الـ (دونْشَة) duce، وهو اللقب الذي كان يحمله (بمعنى: الزعيم)، مع (هتلر) Hitler في الحرب العالمية الثانية، هرب من روما عند دخول الحلفاء إلى إيطاليا، فخلعه (المجلس الفاشيستي الأعلى) من منصبه، سنة 1943، واعتقله ملك إيطاليا في اليوم التالي وسجنه، لكنه هرب من السجن، وحاول الالتحاق بـ (هتلر) ولكنَّ بعض رجال المقاومة الشيوعية واليسارية ألقوا القبض عليه في شمال إيطاليا وأعدموه فوراً سنة 1945، ونقلوا جثته إلى (ميلانو)، وعُلِّق من رجليه مع آخرين في محطة قطار ليراه الجمهور (المترجم).

- وبعد شهر من اغتيال (بافلوس)، دخلتُ في علاقة مع أحد أصدقائه المقاومين. لم أكن أريد مسدَّساً، لأنه يحدِث ضجيجاً وغيرُ فعّال بما فيه الكفاية بالنسبة لما كنتُ أنوي أن أفعله.

توقَّفتْ حتى تتقصَّى، وقالت:

- هل سبق لك أن امتلكت أيكورن يو.إس.م7 [276] (Eickhorn US M7)؟ والأمر هنا لا يتعلَّق بسكين صغيرة، ويمكنك تصديقي. إنها سكين لحَّام حقيقية. وفي يوم الإثنين، وصل الكولونيل العزيز. وكعادته طَلبني. وكنت قد أبلغَتُ (مدام داليا) وصُوَيحباتي. وقبلتُ هذه المرة أن أتبعَه.

وقطَعتِ الحديث مرة أخرى، لأن (ديمتري) عاد، وبيده القهوة، وقال:

- أزعجكما؟

قالت (بيبا):

- لا، ويمكنك أن تنضمَّ إلينا. أنت تعرف القصة.

وأوضحَتْ قائلة:

- لقد رويتُ كلَّ شيء لـ (ديمتري).

ثم كرَّرتْ بصوتٍ مشدَّد:

- كلَّ شيء.

وإذا كان (تيوفان) تلقَّى الرسالة، فلم يُبدِ أي ردة فعل. من قَبيل:

(276) نوع من السكاكين أو الحِراب (السِّنْكات) التي تستعمل مستقلة أو تُثَبَّتُ على رأسِ بندقية حربية للقتال القريب بما يسمى السلاح الأبيض، ويكون بعد استنفاد طرفي القتال ما لديهما من ذخيرة لسلاحهما الناري، و(أيكورن) شركة أمريكية متخصصة بصناعة أجيال من هذه السكاكين أو الحراب ومن كل الأنواع وتطويرها ونشرها في كل أنحاء العالم منذ مئة وأربعين عاماً (المترجم).

مـاذا تفعلـين هنـا؟ مـاذا تأمُلـين؟ عَـمَّ جئـتِ تبحثـين هنا؟ الشَّفَقة؟ المغفِرة؟

حاول الطبيبُ أن يركِّز على الحوار الداخلي لدى (بيبا) التي استأنفت تقول:

- إذن، هـذا الكولونيـل الشـجاع تقدَّمنـي إلى الغرفـة، وكان يهتـزّ مثـل راقصـة تسـتعِدّ لتلقي عبـارات التشـجيع. ومـا كاد يدخُـل، ابـنُ الخِنْزير هذا، حتـى انقضَّ عليَّ، وأراد أن يلمسـني، وأن يخلَع ثيابي. وكان يُهَذْرِم بكلماتٍ شهوانية. إنه داعِرٌ حقيقي. فكبَحْتُه على الفور. كان بإمكانه أن يكتشـف السـلاح الذي كنتُ قـد دسسْـتُه في واحدة من جواربي. فطلبـتُ إليه أن يخلع ثيابه أولاً، بحجـة رغبتـي في رؤيـة الرجل الذي ينهمـك في (التعري التدريجـي) strip - tease. وطلبـي له تأثير يجعله أيضاً أكثر جنونـاً. ومـن ثم، أصـررتُ على أن يأتـي قربي وأن يُلصِـق ردفَيه بأسفل بطني. وهذا ما سارع إلى فعلِه. وعندما قطعتُ حلقه، لم يصدر أي صرخة. لا شيء. فقط أصدر نوعاً من القرقرة المقرِفة. وسـقط علـى الأرض. فجثوتُ قربه. ونظرت إليه يلفظ أنفاسـه الأخيرة، ولكن قبل أن يلفظ نفَسَه الأخير، تمتمتُ في أذنه: «أنت (صباح الخير) لـ (بافلوس)». ثم قطعتُ له مَتاعَه.

قال (ديمتري):

- لقـد صنعـت صنيعـاً حسـناً. ولكـن كان عليـك فقـط أن تقطعي سوءته أيضاً.

- لقـد فكَّـرتُ فـي ذلـك، تصوَّرْ. لكـن رائحـة الدمـاء كانت لا تُطاق. وأعتقد أنني لم أتقيَّأْ قطّ إلا في ذلك اليوم. أنت ترى، يـا (تيـو)، أنه في مسـيرة حياتنا، قـد يقع حدَثٌ فجـأةً فيجعلنا

ننفّـذ أعمالاً وخيمةً كنا نحن أنفسَـنا نعتقـد دوماً أننا عاجزون عن ارتكابها. والمهم هو أن نفتدي حتى الخلاص. فبلا فداء ليس هنالك خلاص. إننا منذورون للعيش في جحيم. في هذه الحياة، وفي الحياة الآخِرة.

وختمت تقول:

- أنـت لا تملِـك الإيمان. ولا تعتقد إلا بما هو موافق للعقل. فأنـت علْمَانيّ. واعلَـمْ، مع ذلك، أن الخلاص يأتي من الأمر غير المتوقَّع. ورسـولُ الفرص يظهر في يومٍ ما، أو في سـاعةٍ ما. فإما تعترِضه وتقرأ ما يقترحُه عليك أو تمر بجانب الخلاص.

كان (تيوفان) يلاحظها بصمت، ثم قال:

- ابقـي، يا (بيبـا) مقتنعة برسـول الفرص، فلقـد التقيتُه. وعقدنا أنا وهو اتفاقاً.

ثم ذهب إليها، وقبَّلها على الجبين. وقال:

- هل أستطيع استعارة سيارتِك هذا الصباح؟

- سيارتي؟ بالتأكيد.

وتوجَّه إلى (ديمتري) قائلاً:

- سأمر بك لآخذك نحو الساعة العاشرة.

- في الفجر![277] لماذا؟

- بقي لديك نحو خمس ساعات كي تجد الجواب.

(277) من الغريب أن يقول (ديمتري): (في الفجر! àl'aube) عندما تكون السـاعة العاشـرة صباحـاً، لأن الفجر يكون قبيـل انبلاج النور الأول للنهار، ويبدو أنه ممـن يتضاحَون في النوم، ويشعرون أن الضحى فجرُهم (المترجم).

(18)

كانت الشمس تغمر التلال بأشعتها المائلة. هناك حيث تُكسِّر الكرومُنورَهـا، فكانت قطاعات عريضة منيرة تشـكل على الأرض مـا يشـبه جلد حمار الوحـش. وهناك نوع من الوقـار كان يخيِّم على الأرض، وكأنها في حالة انتظار.

هزَّتْ (أنطونيا) رأسها من اليسار إلى اليمين، في تعبير مرير، وهي جالسـة علـى الأرض، ومسـندة ظهرها إلـى حائط صغير، وعكّازاها ممدَّدان قربها، وقالت:

- أتيتَ بنا إلى هنا من أجل حصان؟

وأشـارت إلى (جيهول)، الذي كان على بعد بضعة أمتار، وزَوْرُه معرَّضٌ للشـمس، وينتظر بطواعية في وسـط شُـجَيرات العنب. كان شعر عُرفِه الناعم يتيح لبعض الخصلات أن تمرّ بين الأذنين، وكان جلده مستعداً لأن يرتعِش لدى أقل لمسة.

فرد (تيوفان) بهدوء:

- نعـم مـن أجل حصـان، إنه حيـوان رائع لا يطلُب سـوى أن يَعْتَنِي بك.

- يعتَني بي؟ هذا الحيوان..

- هذا الحيوان..

- هل أنت في كامل عقلك حقاً، يا دكتور (دِبّانِه)؟

- نعم، يا آنسة (فاسيلي)، لم أكن في يوم من الأيام أكثر صفاءَ ذهنٍ من الآن. أمس، سألتِني مَنْ أكون. بعيداً عما تتمنَّيْنَ معرفته عن ماضيَّ، هل يمكنني أن أذكِّرك بأنني طبيبٌ؟ أعني طبيبك، يا (أنطونيا)؟ وواجبي الأول هو أن أسعى إلى تخفيف آلامك، وإعطائك وسائل إعادة بناء الدفاعات الفيزيائية والنفسية التي أضعفها مرضُك.

- بتعليمي ركوب الخيل؟ في حالتي؟

- الأمر لا يتعلّق بركوب الخيل. وما أقترحه عليك إنما هو تجرِبة علاج مختلف لا أكثر ولا أقل، من غير أدوية، ولا منتجات كيميائية. والشروع في شكل آخر من المعالجة. إن المسكِّنات والمواد الأخرى التي تتناولينها منذ سنوات لتهدئة آلامِك لا تفيدك فقط.

- فسِّر لي.

- لنتصوَّر أنه ذاتَ صباحٍ ظهر على ذراعِك طَفْحٌ جلديّ نتج عن احتكاكٍ بنبتةٍ أو حشرةٍ. فستشعرين بالحاجة إلى حكِّه. لماذا؟ لأن جسمك كان له رد فعل بإنتاج جزيءٍ يثير الحساسية هو الـ (هِسْتامين) l'histamine. وكما يعلَم جسمُك أنه سيكون من غير المعقول ومن المضِر أن يُطْلِق ردة الفعل الدفاعية هذه في مجمل الجسم، فإنه ينشره فقط في المكان الضروري وبالزمن المتوجِّب. هل أنا واضح؟

فوافقت على ما قال. وتابع هو يقول:

- إن أغلبية المنتجات الصيدلانية لا تفيد للأسف بهذه النوعية. فعندما تُدخلِين إلى المعِدة مضاداً للهستامين من

أجـل تهدئـة الحُـكَاك، فـإن المنتَـج ينطلـق عبر مجمـل جهازك ويرصـد جميع مسـتقبلي الـ (هِسْـتامين)، في كل مـكان يكونون فيـه. وعندمـا تصِل المـادة الكيميائية إلـى مخِّك، فإنها تفسـد السِّـيَالةَ العصبيةَ والوظيفة العصبية. ومن هنا تأتي حقيقةُ أن المرضى الذين يتناولون مضاد الـ (هِسْتامين) يرون تخفيف الألم مصحوباً بتأثيرات ثانوية: كالخمول مثلاً.

وسكَتَ ليقدِّر تأثير عرضه قبل أن يتابع قائلاً:

- أنـتِ سـمعتِ بالتأكيـد حديثـاً عـن الـ (أوسـتروجين) œstrogène. لقـد اثبتَـتْ الدراسـات أنـه يلعـب دوراً أساسـياً فـي عمـل الأوعيـة الدمويـة، والقلـب والمـخ. واليـوم، يصفونـه بانتظـام بشـكل اصطناعـي لتخفيـف أعراض سـن اليـأس. وإذ بالـ (أوسـتروجين) الكيميائي، على غِرار مضاد الـ (هِسْـتامين)، يتصـرَّف تصرُّفـاً بوليسـياً أعمـى ويشـوِّش مجمل المسـتقبلين، وعلـى وجه الخصـوص كلَّ ما ذكرتُه للتو، مسـبباً، ودفعةً واحدة، أمراضاً قلبية - وعائية وعصبية. فعند السـعي إلى شـفاء الألم، يظهر منه أحياناً ألم آخر مخيفٌ جداً أيضاً.

أخذ الطبيب استراحة جديدة، ثم قال:

- ولهـذا أحِـبّ أن أجـرِّب علاجـاً مكمِّـلاً. وبإمـكان الحصان أن يسـاعد فـي العثـور على الحيـاة الغافية في كلٍّ منـا. وتوجد بيننا وبينه روابط صُحبة. فتصبح قوَّتُه قوتَنا، وسرعتُه سرعتَنا، وإحساسُه بالمناظر إحساسَنا.

- أنت تتكلَّم الصينية.

- تصـوَّري أننـي لا أتكلَّـم قـط اليونانيـة بوضـوح تـام. إن كل مـا قـد رويتُـه لـك للتـو يسـتمد أصلَـه مـن أرض وطنِـك. نعـم،

يا (أنطونيا)، من أرضِك. إن الاحتكاك بالخيل تمَّت الإشادة به منذ زمـن بعيـد هنا، في بلادِك. وقـد كان اليونانيـون القدماء يعلَمون أن الاحتـكاك بالحصان يمكـن أن يخفِّف بعض الأمراض البدنية، بتقوية عضلات الجسـم. وأنـه كان يتيح أيضاً تسـكين ردود الفعل المفرطة لدى الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عقلية و..

- قُلْ على الفور إنني مختلَّة العقل!

وللمرة الأولى، يرفع (تيو) صوتَه، قائلاً:

- توقَّفي، يا (طونيا)!

وأمسك يدَيها بحماسة، وقال:

- أتشُكِّين فـيَّ؟ موافق.. هـذا حقُّك. ولكـن ألا ترغبين على الأقل في الثقة بأجدادِك؟ وبالطاقة التي انتشرت من كل قطعة صغيرة من هذه الأرض؟

قطَّبـتْ (أنطونيـا) جبينها وأشـارت بإصبعها إلـى (جيهول)، وقالت:

- كيف تريد أن أمتطي هذا الوحش؟ وأنت تعلَم أن دميةً من الخِرَق أقوى مني؟

- أنتِ لستِ بحاجةٍ إلى سـاقيك. ومن جهة أخرى، وكبداية، لن تجلِسـي عليه، بل ستتمدَّدين. وسنرفعك أنا و(ديمتري) على مِرقاةٍ صنَعتُها خصِيصاً لدى نجّار (شورا).

- لقد هيّأتَ هذه التجرِبة إذًا من قبل.

- نعم. منذ بعض الوقت.

وتابع شرحه قائلاً:

- وبمجرَّد أن تجلِسـي، سوف تميلين إلى الأمام حتى البطن، وستضعين رأسَك بلطفٍ على عنق الحصان. وهذا كلُّ شيء.

- وهل سيدعني حصانُك أفعلُ ذلك بلا ردة فعل، نظراً لأنه لا يعرفني؟

- إنه يعرفني، وهذا يكفي. ولسوف يعرفك.

- وهل سيقبَلني؟

- بالتأكيد، لأن ذلك سيكُون فكرتَه.

ثم سارع (تيوفان) إلى تصحيح ذلك قائلاً:

- هذه الفكرة صدرت، في البدء، مني، ولكني رتَّبتُ الأمر لجعلها فكرتَه. أوَ لا ينفِّذ المرءُ دوماً ما يختاره، أو ما يعتقد أنه اختاره بحرية، بشكل أفضل مما لو أُكرِه عليه؟

نظرتْ (أنطونيا) بمؤخِّرة عينيها إلى المطية بارتياب، قائلةً:

- ليس عليه سَرْج؟

- أنا أردتُ ذلك. لسوف تركبينه عارياً. لا أريد لشيء أن يفصل بينكما.

بدت (أنطونيا) مستجمِعَةً أفكارها قبل أن تعلن قولها:

- لا أكثرَ من عشر دقائق.

صاح (تيوفان):

- (ديمتري)، أَحضِرِ المِرقاة!

قامت (أنطونيا) علَى عكّازتيها، واجتازت ببطء المسافة التي كانت تفصلها عن (جيهول)، بصُحبة (تيوفان). وأمام الحصان، سألت الفتاة الشابة دفعة واحدة وبصوتٍ ينمّ على الفزع:

- والآن؟

- الآن، سوف تعرِفين بنفسِك. اقتربي ودعيه يشعُر بك. لا تخافين. إنه لا يأكل غيرَ التفاحِ، والجزرِ، والتِّبْنِ. تأكدي على وجه الخصوص أن الحصان هو الأكثر هلعاً من بين جميع

الحيوانات على البسـيطة. وهو ليس مفترساً بل فريسة. ويكفي أن ينبَـح كلـبٌ، وأن تمـر ذبابةٌ، وأن يبكي طفلٌ، أو شـيء ما، حتى يَجْفُـل. والحاصـل هـو أن دور الفارسِ قبل أي شـيء أن يُطَمئنَه، وأن يُؤَمِّنَه. وإذا توقَّع خوفَك، فإنه يخاف. وإذا شـعر بأنك سـيِّدة الموقِف، فإنك تصبحين أيضاً سيِّدتَه.

قالت (أنطونيا):

- الكلام سهل.. ألا ترى قامته وقامتي؟

وتقدمت على استحياء خطوة إلى الأمام.

وعلى الفور، مدَّ (جيهول) أنفَه نحو خدِّ الفتاة الشـابة، وفتح مِنْخَريهِ وشرع بشمِّه كما يشُمّ المرءُ فاكهةً مجهولة لديه. وعندما رفَعَـتْ يدَها، كردة فعل، لحماية نفسـها، لعَقَها، وحكّ رأسـه بها، وهو يحمحم بهدوء.

فأبدى الطبيب ملاحظة بالقول:

- أنت ترين، ليس فيه شيء من غول شقيّ.

وبعد بضع دقائق، قال لها:

- تعالَيْ.

وكما كان قد حملَها بين ذِراعَيه على شـاطئ (سابسـيلا)، قام برفعهـا، ولكن هذه المرة بمسـاعدة (فالسـتافّ)، وأجلسَـها بحذرٍ علـى ظهـر (جيهول). وفـي الوقت الـذي انحنَتْ فيـه نحو عنقِ الحيـوان، وسـاقاها مرتخيتـانِ علـى جانبيـه، اجتاحـتْ جسـمَ (أنطونيا) ارتعاشـاتٌ. هل كان ذلـك نتيجةَ الخوفِ، أو الاحتكاكِ بجلدِ الحصان، أو دفءِ شعرِ عنق الحصان الذي لامس خدها؟

صاحت:

- إنني.. إنني سأسقط، يا (تيو).

- لا. لا يمكن أن تسقطي. فنحن هنا. طوِّقي عنق الحصان جيِّداً بذراعيكِ. وبحنان ومحبَّةٍ أيضاً. واجعلي (جيهول) يدرك أنك تحبِّينه.

- أتريد أن تضحك؟

وبينما كان (ديمتري) يحتفظ بيدٍ على وسط الفتاة الشابة لحمايتها، وهو مستعدٌ لإمساكها في حالة ما إذا انزلقت، كان (تيو) يمسك العِنان المرتبط برأس الحصان ومن غير أن يتلفَّظ بكلمة واحدة، تحرَّك (جيهول) بخطى متسارعة.

صاحت (أنطونيا) مرتعبة:

- ليس بسرعة كبيرة!

واصل الحصان تقدُّمَه والطبيبُ يقوده. وتابع (ديمتري) بذات الإيقاع وهو يفكر: إلامَ يهدف هذا المشهد؟ وماذا يرجو (تيو)؟ أن تنتصِب الفتاة الشابة كما بفعل السِّحر وتنطلق عدوًا؟ لقد كان يكره الخيول، متسائلاً غالباً عن متعة ركوب كتلةٍ عضليةٍ من خمسمئة كيلو يمكنها، في لحظة جنون، أن تعامل فارسها بقسوة كما لو كان الأمر يتعلَّق بحزمة قَشٍّ!

بدأ (جيهول)، وهو ما يزال تحت رقابة الطبيب، يشْرَع بدائرة واسعة.

أبدت الفتاة الشابة قلقها، قائلة:

- إلى أين نذهب؟

ردّ (تيوفان):

- لا إلى أي مكان. لا تفكري فينا. استرخي. وتنفَّسي بهدوء.

صوتُ (تيو) كان يدوِّي بطريقة أحادية الوتر تقريباً، مليئةٍ بصفاء عذب. ولكنه، في الوقت نفسه الذي كان يتوجه به إلى

(أنطونيا)، كان يتكلَّم إلى (جيهول)، ولكن بصوتٍ داخلي، وكان (جيهول) يجيبه. وعندما يسكت (تيوفان)، لا يكون هنالك سوى الصمت تهدهده نسمةٌ خفيفة، وصوتُ سنابك (جيهول) التي تلامس الأرض، وأنشودة الشمس التي يستحيل وصفها.

مضت عشر دقائق. وربما أكثر. وعندئذٍ قال (تيوفان):

- (أنطونيا). ما أجملُ آخِر ذكرى لك؟

تمتمتْ وخدها ما يزال على عُرف الحصان:

- إنها ذكرى شاطئ (سابسيلا). عندما كنا داخل البحر وضممْتَني بين ذِراعَيك.

- إذن، أغلقي عينيكِ واجعلي هذه الصورة نُصْبَ عينيك. لا تفقِديها. اجعليها نصب عينيك. لا تنظري غيرَها. وانظري إليها وكأنها منيرة. وبقية العالَم مظلمة، ولا يوجد هنالك سوى هذا النور.

ثم مرت خمس دقائق أخرى. ثم عشر.

أوقَف (تيوفان) الحصان على مستوى المِرقاة واقترب من الفتاة الشابة، وقال:

- انتهى الأمر، يا آنسة (فاسِّيلي).

وقالت مندهشة:

- عشر دقائق؟ بهذه السرعة؟

- لا. إنها أقل بقليل من عشرين. لا بأس، لا، بالنسبة للنزهة الأولى.

قالت لـ (ديمتري):

- إنه يكذب. إنه يكذب، أليس كذلك؟

أكد اليوناني قائلاً:

- من المؤكَّد أنه يكذب. فحسب ساعتي، أمضينا بالضبط ثماني عشرة دقيقة.

رفعها الرجلان بهدوء لحملها إلى الأرض، وبينما كان (ديمتري) يحضِر العُكّازَين، واصل (تيوفان) الاحتفاظ بـ(أنطونيا) مشدودة إليه. وسألها:

- والآن؟ ما التأثير؟

- جميل.

- هذا كلُّ شيء؟

- جميل جداً. في الحقيقة، لقد تألَّمتُ لإرخاء قبضتي. بسبب الخوف بلا شك.

- إنه لأمر عادي. في المرة القادمة، سيكون عدمُ الاستسلام أكثرَ من كليّ. ولا تنسَيْ أن هلعَه منكما سيكون أكثرَ.

- هل سمعتُ جيداً؟ المرة القادمة؟

ووضَّح بجدية كاذبة، فقال:

- إن الدكتور (دِبّانِه) يصِف لك أربع جلسات في الأسبوع.

فقالت:

- ما أجرأَك! من الذي أوحى إليك أنني مستعِدَّة لإعادة الكرَّة؟

تبسَّم (تيوفان)، وقال:

- (جيهول)، (جيهول) أوحى إليَّ.

* * *

التهم (ديمتري) قطعتي (قطايف) الواحدة بعد الأخرى ولَعَق بنهم بقايا العسل التي التصقت بأصابعِه.

ثم تمتَم قائلاً وهو يلتقط قطعة ثالثة من الحلوى:

- لا أدرك شيئاً مما تصنعه. وأي هدف ترمي إليه؟ وماذا يعني هذا الدرس في ركوب الخيل؟

(تيوفان) كان يركز، وهو مشغول البال، على المرسى حيث كانت سفينة (النجمة الزرقاء) قد ألقت للتو مِرساتها. قبل بضعة أسابيع، كانت هذه السفينة نفسها قد أوصلت أسرة (فاسُيلي) إلى المرسى. واليوم مَنْ؟ أي مسافرين جدد بإمكانهم أن يفسدوا برنامج (تيوفان) اليومي، وينبثقوا من أعماق الأرض؟ وفكَّر في أن ذلك مثير للفضول، كما ستجد حيواتنا نفسَها يوماً ما منقلبةً رأساً على عقِبٍ بسلسلة من الأحداث التي نكون عاجزين عن السيطرة عليها، وكذلك عن التنبؤ بها. (القاهرة)، (باريس)، (باريس)، (باتموس)، عدد كبير من مفترقات الطرق المستبعدَة للوصول إلى كائن وحيد: (أنطونيا). أهي المصادفة؟

لقد كان يقترب من سنته الثامنة عشرة، يوم وقع على مؤلَّفٍ في مكتبة والده عنوانه: (كتاب المصادفات الكبير)[278] .Le Grand Livre des coïncidences

كانت قراءتُه مسلية جداً. وبعد ثلاثين سنة، جعلته بعض الحكايات المحفوظة في ذهنه يضحك منها أقل. وكانت قصة

---

(278) لم يذكر (تيوفانٍ)، أعنيِ مؤلِّف الرواية، اسم مؤلُف الكتاب المذكور، ويبدو أن إعجابه به ظل طيلة حياته، حتى ألّف كتاباً مستوحى منه ظهر في 25 حزيران/يونيو سنة 2015 في دار (تيليماك) Télémaque بباريس (في 224ص). قال (سينويه) في تقديمه له: (ليس الكتابُ رواية، وإنما كانت هذه الصفحات تعيش بداخلي منذ ما يِقرب من 15 سنة، ولم تكن تتطلب سوى النقل. وبدأ كل شيء سنة 1996 بسعادة كبيرة جداً بأولئك الذين التقيتهم مرة أو مرتين خلال الحياة وأثروا فيَّ إلى الأبد). وكتبتِ الناقدةُ الصحافية (أوليفيا دو لامبيرتري) Olivia de Lamberterieتقول: «هذا (الكتاب الصغير للمصادفات الكبيرة) يطمَح إلى دعوتنا إلى أن نفتح عيوننا وأن نوقظ انتباهنا لهذه الحوادث غير المرئية التي تغيب عن مراقبتنا، ولكنها ربما تصنع منا ما نحن عليه الآن» (المترجم).

(لينكولن)[279] Lincoln و(كينيدي)[280] Kennedy من بينها.

كان (لينكولن) قد انتُخِب في (الكونغرس) سنة 1846، وانتُخِب (كينيدي) فيه بعد مئة عام[281]. كان (لينكولن) يكافح من أجل تحريم الرّق، وكان (كينيدي) يكافح من أجل حقوق السود. وكلاهما تم اغتياله في يوم جمعة، وبرصاصة في الرأس، وبوجود زوجتيهما. وقاتلاهما تمَتْ تصفيتُهما قبل أن يُحْكَم عليهما. وكان خليفةُ (لينكولن) يدعَى (أندرو جونسون)[282] Andrew Johnson، وخليفة (كينيدي) يدعَى (ليندون جونسون)[283] Lyndon Johnson. وكان كلاهما من الحزب الديمقراطي في الجنوب[284]. فهل هذه مصادفات؟

وهنالك قضية الخنفساء. فقد رَوَتْ إحدى مريضات (كارل يونغ)[285] Carl Jung، له، أثناء معالجتها، أنها رأتْ حلماً تلقَّتْ فيه خنفساء من ذهب. وفي الوقتِ نفسِه، سمع

(279) لينكولن: هو (أبراهام - 1865 - 1809) (Abraham)، رئيسٌ جمهوري للولايات المتحدة من 1861إلى اغتياله. حرَّم الرِّقّ سنة 1863 (المترجم).

(280) كينيدي: هو (جون فتزجيرالد - John Fitzgerald)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1961 إلى اغتياله (المترجم).

(281) كان(كينيدي) قد أصبح فعلاً، سنة 1946، عضواً في الكونغرس (المترجم).

(282) أندرو جونسون (1808 - 1875)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1865 إلى سنة 1869 (المترجم).

(283) ليندون جونسون (1908 - 1973)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1963 إلى سنة 1969 (المترجم).

(284) يضاف إلى التشابه بين الخليفتين أن الثاني ولد بعد مئة عام من الأول وولِد الاثنان في السنة الثامنة من القرنين 19و20، وأن نهاية رئاستيهما كانت بفارق مئة عام أيضاً، أي في عام 69 من القرنين 19و20، وأن كلاً منهما تولى بعد اغتيال رئيسِه (المترجم).

(285) كارل يونغ: عالم نفسي وطبيب نفساني ومؤسس مدرسة خاصة به في (علم النفس التحليلي)، ألماني سويسري (1875 - 1961)، كان لنظرياته تأثير في الفلسفة، والأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، والأدب، والدراسات الدينية الغربية (المترجم).

الطبيب النفساني، خبطة على زجاج النافذة سبَّبَتْه حشرة. فلما أمسكها وتحقَّق منها، فإذا هي.. خنفساء. فهل هذه مصادفات؟

وفي سنة 1898، نشر الكاتب (مورغان روبرتسون)[286] Morgan Robertson رواية بعنوان: (إس.إس. تايتان) S.S.Titan. تصفُ الروايةُ انطلاقَ سفينة ركّاب ضخمة جداً، عابرة للمحيط الأطلنطي، من (ساوثمبتون)[287] Southampton في يوم تدشينها. وبعد بضعة فصول تصف الرواية اصطدام السفينة الضخمة بجبل جليدي وغرَقَها. وقد كان وصف (روبرتسون) لسفينة (إس.إس. تايتان) يكاد يكون صورة طبق الأصل تقريباً لوصف الـ (تايتانيك)[288]. فهل هذه مصادفات؟

ماذا نستخلص من كل ذلك؟ نستخلص القول: إمّا أن هذه المصادفات لم تكن شيئاً أكثر من فعل مصادفة، وكلّ فائدتها تقوم على تغذية الأحاديث في الصالونات، وإمّا أنها جزءٌ من آلية (ميكانيكية) ذاتِ مستوى عالٍ أكثر تعقيداً تخفَى علينا فحواها الحقيقية إلى هذا اليوم.

آلية. ما هي؟ هل كل شيء إذن mektoub[289]، منذ الولادة؟

(286) عنوان هذه الرواية كما وجدتُه هو (The Wreck of the Titan ، or Futility)، أي: (تحطُّم التايتان أو العبث)، نُشِرتْ طبعتُه الأولى في التاريخ المذكور، والثانية في سنة الكارثة الحقيقية 1912 نفسها، ربما على إثر وقوعها (المترجم).

(287) ساوثمبتون: ميناء شهير يقع وسط الساحل الجنوبي لبريطانيا ويطل على بحر المانش (المترجم).

(288) ومن التوافقات أن سفينة الـ (تايتانيك) انطلقت في رحلتها من ميناء (ساوثمبتون) نفسه أيضاً في أول رحلة لها بعد تدشينها (المترجم).

(289) كتب المؤلِّف كلمة (مكتوب) العربية هذه في المتن بالحروف اللاتينية، ويعني بها أنه (مقدور)، وكتب معناها الفرنسي إلى جانبها بالفرنسية (écrit) (المترجم).

وحرِّيَةُ الإرادة الشهيرة[290]؟ هل هي وسيلةُ لطمأنة الإنسان؟

نبَّه (ديمتري) ثانية فقال:

- (تيو)، إنني أكلِّمك. فهل عليَّ أن أكرِّر السؤال؟

- لا. هل ركبتَ حصاناً قط؟

- يحفظني الله من ذلك!

- إذًا، لن تستطيع الفهم.

انتهر (ديمتري) الخادم، قائلاً:

- هيهْ، أنت، هناك، يا (نيكوس)! أحضر لنا بعض الـ (لوكوماد)[291].

ثم انحنى نحو (تيوفان)، وسأله:

- ومن أجل الدكتور؟

فقال (تيوفان):

- زجاجةً من كَرْم صديقي، لأنني ساعدتُه في البقاء على

(290) في الإسلام وأديان أخرى معتقدان مختلفان في ظاهرهما: الأول ما يعرف بـ (الجبرية) أي أن الإنسان مسيَّر لا اختيار له في أقواله وأفعاله، وكل شيء يأتي أو يحدث من الخالق وبإرادته، وهذا هو المبدأ التسليمي بكل شيء، وهو يبعث حقاً على طمأنينة الإنسان. والمعتقد الثاني هو ما يُعرَف بـ (القَدَرِيّة) أي أن الإنسان مخلوق مخيَّر في أقواله وأفعاله، وهو ذو إرادة حرَّة فعلاً، وهذا المعتقد يفسِّر لماذا يحاسب الناس على أقوالهم وأفعالهم يوم الحساب فيثابون أو يعاقبون بها. والحقيقة أن الإنسان مسير حقاً في أشياء فرضت عليه وليست من اختياره فيسلِّم بها، وهو مخيَّر في أشياء أخرى: فلا يعاقب الإنسان لأنه طويل أو قصير، عربي أو عجمي، أبيض أو أسود، جميل أو قبيح. وأما أن يَقتُل أو يزني أو يسرق فإنه يعاقَب على ذلك، لأن الله أعطاه وسيلة للتمييز بين الخير والشر، وهو (العقل)، الذي هو مناط الحساب. وأما أن يبني مسجداً، أو يرعى الأيتام، ويعطف على المساكين، فهذا أيضاً من اختياره ويُثاب عليه لأنه داخل في باب الخيرات. وهذان المعتقدان متكاملان تماماً، ولا تناقض بينهما. وقد عنى المؤلف بسؤاله عن حرية الإرادة الباعثة على الطمأنينة (القدرية) خطأً، وهو يقصد (الجبرية)، لأنها هي مبعث الطمأنينة (المترجم).

(291) مر سابقاً أنها نوع من الحلوى تدعى في الشام (العوَّامة) وهي كرات صغيرة من العجين المقلي بالزيت، وتحلى بغمرها بقطر السكر، أما في اليونان فتحلى بالعسل. ويبدو لي أن التسمية المصرية (لقمة القاضي) مأخوذة من ظاهر اللفظ اليوناني (لوكوم آدي)، أو أن الكلمة اليونانية مأخوذة من التسمية المصرية (المترجم).

قيد الحياة. هل ستأكل حقاً أيضاً فطيرة بالعسل؟

- هل تريد أن تجيبني؟

قام (تيوفان) بحركة وقحة من يده، وقال:

- ما أبحث عنه؟ إنه تحسين حالتها الصحية.

- بجعلها تركب حصاناً؟

- تماماً.

خطَفَ الطبيبُ فطيرة من الطبق الذي كان الخادم قد أعده للتو.

- إن الركوب على حصان لا يمثِّل عملاً تافهًا، على الأقل بسبب الجهد الفيزيائي الذي يتطلَّبه. فالحصان يحرُك لدى الفارس أكثر من ثلاثمئة عضلة، سواء أكان الفارس سليماً أم يعاني إعاقة، كما هو الشأن في حالة (أنطونيا). وفيما يخص الفوائد النفسية، فهي موجودة أيضاً، على الرغم من صعوبة قياسها.

- والخلاصة؟

- لا شيء. إنني أجري تجربة. هذا كلُّ شيء.

- وأنت مع ذلك تدرك أن (أنطونيا) لن تتمكَّن من الجلوس على سَرْج.

هزَّ (تيِوفان) رأسَه، وقال:

- خطأ. ستتمكَّن من ذلك على سَرْجٍ مناسب. امنحني فقط أسبوعين.

عَقَدَ (ديمتري) ذراعيه فوق كِرْشه وتأمَّل صديقه بتعبير ارتيابي، وقال:

- أليس هذا من باب الغرور مثلاً؟

- هـذا الأمـر أكثر تعقيـداً. فأنا مرعـوبٌ ومنبهِـر في الوقت نفسـه: مرعوبٌ لأنها أصغر سناً مني بعشـرين سنة. ومنبهِر من اكتشافي بأنني لم أكن ميِّتاً تماماً.

- إذًا أنت مغرور. وهنالك سـؤال لم يكن لديَّ الوقتُ لطرحه عليك: عندما دخلتَ إلى بيتي في الساعة الرابعة صباحاً، لا بد من أن يكون لأمر مهمٌ للغاية. فماذا كنتَ تريد؟

- فقط الحاجة إلى الكلام.

- إذًا تكلَّمْ.

- الوقتُ متأخِّر، ومن غير المفيد الآن.

قال اليوناني:

- لقـد أرهقتَنـي، أيهـا الـ giatros(الطبيـب)! وأنـت تُغيظُني. ليس الوقت متأخِّراً أكثر من ليلة أمس، وكنتُ أقول لنفســي إننـا قـد تعارفنا منذ ثلاث سـنوات، وكنـت ما زلت لا أعرف شيئاً عنك. إنك الرجل الأكثر غموضاً بين الناس. أسوأ مـن محـارةٍ. ولم تكـن هنالك وسـيلة لانتزاع كلمـة أكثر مما قـرَّرْتَ انـت أن تتلفَّظ به. وأُذكِّرُك بأنني صديقُك. إذن لماذا لم تقرِّر البوح لي؟

- هنالك مثل عربي يقول: إن كان حبيبُك عسـلاً فلا تلحسْه كلَّه[292]. وأنا أحاول الاحتفاظ بك مدة طويلة.

ثم أعلن معتمداً نغمة أخف:

- بخصوص الصداقة، لسوف أقوم بزيارة لجارِك.

- (سيفاكيس)؟ متى؟

(292) ترجمة المثل إلى العربية حرفياً كما ورد في المتن: (إن كان صديقك من عسـل فلا تأكله كلّه تماماً)، ولذا راعينا الأصل العربي لهذا المثل كما هو (المترجم).

- فقد اقترحتُ عليه قبل بضعة أيام أن أشتري الأرض التي تطمع فيها.

قال (ديمتري) وكاد نفَسُه ينقطِع:

- وماذا بعد؟

- لقد رفض بذريعة أنه يعرف العلاقة بيننا، وبأنني سأبيعك ما اشتريتُه بمجرَّد حصولي عليه. وقد شرحتُ له عبثاً أن صداقتنا لا تدخل في الحساب، وأنني كنتُ أريد هذه الأرض لي، ولم يفلح الأمر.

- أوَلم أُعلمْكَ أنه كان مخبولاً؟ آ.. يا له من (mallakass)[293] واشكر لك محاولتَك.

- أنتَ تعرِف (سيفاكيس) أفضلَ مني. ولا توجد أي وسيلة للضغط عليه. العمدة، والرهبان، وماذا أعرف!

- أتشكّ في أنني قد حاولتُ. لا. لا شيء. فهو لا يخاف إلا الله. وهذا على الأقل ما أكَّدَه. إنه يذهب إلى الكنيسة في كل صباح، ويعترف في كل الآحاد، ويكون على رأس جميع الاحتفالات الدينية. وأخشَى، للأسف، أن يكون ذلك بلا نتيجة. فبئس الأمر! وليختنق بأرضِه. ومن الآن، أكِّدْ لي أنه إن قبِل، فإنك ستبيع لي[294]، أليس كذلك؟

ابتسم (تيوفان)، وقال:

- بالتأكيد، بمضاعفة السعر.

(293) هذه كلمة يونانية بحروف لاتينية تعني (غبي) أو (أحمق)، وهي بالحروف اليونانية (ςακλαμα)(المترجم).

(294) كلمة (illico) من أصل لاتيني تقابل في الفرنسية كلمة (immédiatement) بمعنى (مباشَرةً)، أو (aussitôt) بمعنى (فوراً) (المترجم).

مال اليوناني برأسه إلى الجانب، وقال:

- بالتأكيد.

وتابع يقول:

- وأنت أيضاً شخص غريبٌ جداً، أيها الـ giatros(الطبيب)! فأنت غريب، متقلِّب، وغير متوقَّع.

- ليس أكثرَ منك. ويكفي أن يرى المرء بأي سرعةٍ تم إبعاد معاييرك في اختيار المرأة إلى غياهِب النسيان. فكيف حال السيدة الجميلة (فاسِّيلي)؟

- آه.. (بيبا)! (بيبا)، إنها شيء آخر. (بيبا فاسِّيلي)، إنها طبَقٌ سلطاني. أغلق عينيك وتصوَّرْ. تصوَّرْ: باذنجانات، وبصلاً مشرَّحاً، وطماطمَ مقطَّعة مكعَّباتٍ وشرائحَ رقيقة، وجزرةً صغيرة مبشورة، وفليفلةً حمراء هنغارية، وبقدونساً مفروماً، والكلُّ موشَّىً بخبز محمَّصٍ مفتَّتٍ ومذهَّب بالفرن. وفي النهاية، تحصل على الطبق الأكثر لذة ممكنة، ويدعَى: (الإمام بايِلدي) l'imam baïldi، ويعني: (الإمام الذي أُغْمِيَ عليه)، وذلك لأن إماماً، حسب أسطورةٍ قديمة، قد أُغْمِيَ عليه من السعادة بعد تناوله هذا الطبق. وأنا هذا الإمام!

- توقَّفْ! إن (بيبا فاسِّيلي) ليست امرأة. إن (اليونان) كلَّها فيها هي وحدها!

(19)

صعِد (أليكسيس) إلى سطح الماء وأخذ يحَمْحِم محدِثاً سحابةَ من الزَّبَد، وقال:

- كم؟

أعلن (تيوفان) قائلاً:

- أعتقد تماماً أنك قد ضربت رقماً قياسياً جديداً: دقيقةً واثنتين وخمسين ثانية. فتحيّةً لك!

- رائع!

كان الصبيّ يلهث، ويَغَصّ، لكن من غير أن يُقْلِع عن ابتسامة مشرقة.

- لسوف أصل إليه! وسترى أنني سأصل إلى أكثر من دقيقتين.

- مهلاً! ليس بسرعة. إنني أجد أن لا بأس أن تلهث. فالمرء لا يجبر الآلة. اتفقنا؟

قال (أليكسيس):

- اتفقنا، اتفقنا.

ثم وضع يديه حول فمه بشكل مكبِّر صوت وصاح لـ (أنطونيا) بقوله:

- دقيقةٌ واثنتان وخمسون ثانية!

فحيَّتِ العملَ الباهر برفع إبهامِها نحو السماء.

قال الطبيب:

- هيّا، سنعود إلى النُّزُل.

قال الصبي:

- نعم.. لسوف أبحث عن (ميخاليس) وأنضم إليكم.

- لقد تأخر الوقت. لا تتلكَّأْ كثيراً!

خرج (تيوفان) من الماء وسار نحو (أنطونيا). لم يكن من قبل قد رآها قط أكثر تألُّقاً. لقد كانت الفتاة الشابة قد تحوَّلت، وهي تعزف بحزن على الـ (باغْلَما)، إلى شخصيةٍ مضيئة. وجليلةً أيضاً. لقد مرَّ نحوُ عشرين يوماً منذ المواجهة الأولى مع (جيهول) ولم يكن يتصوَّر قط أن تأثيراً متبادلاً يمكن أن ينشأ في مدة من الزمن قصيرةٍ جداً. فقد جعلتْ (أنطونيا) المطية مطيتَها. وكان (جيهول) قد سحرها.

وفي آخر اليوم الثالث، ركبا دراجةً بمقعدين مترادفين، بسرعة. لحظات سحرية، غنية بالاهتزازات، والاثنان متحدان في الحركة نفسها، مرتفعان بذات الإيقاع، القلبان والجسمان يأخذان النفَس ذاتَه. المرحلة الجديدة سوف تبدأ بعد أن يعدِّل (ليونيداس) Léonidas، النجّار العجوز في (شورا)، السَّرْجَ الـ (كامارغيّ)[295] camarguaise الذي كان (تيوفان) قد طلبه خصِّيصاً من (فرنسا). لم يكن المسكين (ليونيداس) يصدِّق عينيه. فهذه تماماً هي المرة الأولى التي يُطلَب إليه أن يعدِّل في سَرْج، وهو الذي لم يكن سَرَّاجاً. وإذا ما كان (تيوفان) قد اختار السرج

(295) السرج الكامارغيّ: نسبة إلى منطقة (كامارغ) Camargue الواقعة على الساحل الجنوبي لفرنسا غربي مصب نهر الرون الكبير، وتوجد فيها محمية طبيعية وطنية (المترجم).

الـ (كامارغـيّ)، فذلـك لأنـه يملـك قَرَبوسَـين[296] من الأمـام ومن الخلف، ومَقْعَدَةً واسعة على شكل حوض حمّام صغير، وفي تجويفها ستتمكّن (أنطونيا) من أن تتخِذ بلا خطر وضع الجالس. ويبقى أن يضاف إليه مِقبَضٌ على القربوس الأمامي ومسندٌ على الخلفي.

قال (تيوفان) ساخراً، وهو يتمدّد قربها:

- أوَلم تشتاقي إليَّ كثيراً؟

- مطلقاً. كنتُ أخاف من عودتك.

- أشكّ في ذلك.

فوضع رأسَه على كتِف الفتاة الشابة وأغلق عينيه.

فـي العشـية، اجتمعـا وكان لا يجـرؤ أن يأخذها بـين ذراعيه، يتأمّـلُ كلَّ جـزء من وجههـا، والعروقَ الزرقاء التـي كانت تَنْبض في صدغَيْها. كانت تشعر بعودة الحياة إليها. انفجرت بالنحيب، فرفعها إليه، وقد احتفظ هو نفسه بدموعه.

وقد سمعها وهي تهمس تقريباً بقولها:

- أنـت تعلَـم يا (تيو)، كنتُ أظـنّ أنني لا أزال أهلاً للحب، في حـين إننـي كنت مقتنعةً تمامـاً أنّ أحداً لا يرغـب في هذا الحب أبـداً. ولا يمكنـك أن تـدرك أي ألـم كانـت تثيره نظـرة الآخرين عندما كانت تقع على كائنات مثلي، سلبتهم الطبيعة: إنها قشرةُ تفضُّل، وإصبعٌ من شفقة، وآخَرُ من رحمة.

اتّكأ على كوعه، وقال:

- لا يمكنني في الحقيقة أن أُدركه. ومن الآن، يجب أن تعلمي أنني لا أنظر إليك هكذا: لا شفقةً ولا تفضُّلاً.

(296) قَرَبُوسا السَّرج هما المقبض الأمامي ليمسكه بيده أو كلتا يديه مع الفِنان، والمسند الخلفي للفارس ليسند ظهره عليه (المترجم).

فقطّبتْ جبينَها وقالت:

- لا شيء؟ ولا أي انفعال أمام شقاء الآخر؟

- إن الحرمان من اكتشاف المرض، في كثير من الأحيان، ويا للأسف! يجعله أقوى من العِلْم. فلو كان على الطبيب أن يجعل من شقاء كل مرضاه شقاء له، فسينتهي به الأمر إلى الهلاك. لا، يا (أنطونيا)، ليس هنالك رحمة. هنالك فقط الرغبة الشديدة في قتالي بالنيابة والأمل في الانتصار.

فقالت ساخرةً:

- وهذا ما أباح لك أن توبِّخني في اليوم الذي كنا فيه في (غريكوس). إن جسمي هو الملتَبِس، لا ذاكرتي. لقد كنتُ سأقتُلك في ذلك اليوم!

- ولكنك لم تفعلي، والشكر لله!

وقال فجأة:

- قولي لي، يا (أنطونيا)، هل ترافقينني إلى (مصر)؟

وفتحت عينيها الواسعتين قائلة:

- هل أنت جاد؟

- جادٌّ جداً. عودة قصيرة إلى الجذور.

أمعَنَت النظرَ فيه حائرة، وقالت:

- يبدو لي أنني أتذكَّر اقتراحاتك في المساء الأول الذي تعشَّيتَ فيه في منزلنا. فقد تحدَّثتَ عن البصمات التالفة. وكنتَ تقول إن إعادة رؤيتها تتَّضح أسوأ بكثير من مواجهة العدم. وتكلمتَ عن أطلالٍ وقبورٍ مغْبَرَّة. فهل نحو هذا الديكور ترغب في اصطحابي إليه؟

- نعم. بفارقِ هو أنني سأراه عبر نظرتِك أنتِ. ومن ثم،

لن نأخذ سوى تذكرةً للذهاب. وألحَ على ذلك.

أبدتْ مفاجأتها قائلة:

- بطاقة للذهاب؟

أمسك قبضة رملٍ وتركها تنساب ببطء من بين أصابعه، وقال:

- نعم، يا (طونيا). لأنني «أنا»، هذه المرة، أنا وحدي مَنْ سيقرِّر متى سنعود. وإن أحداً لن يفرِض عليَّ سفري.

قبضت، وهي متأثِّرة، يدَ (تيوفان)، وقالت:

- كما تشاء. سأرافقك. نعم. كما تشاء.

ثم قالت بغتةً:

- لماذا هذه الرغبة المفاجئة في مساعدتي؟ بدافع الحب؟

- لا. بدافع الأنانيَّة. فللمرّة الأولى منذ زمن بعيد، شعرت بالرغبة في أن أساعد نفسي. ولكي ألعب دوراً لطيفاً معك، عليَّ أن أتعلَّم كيف أعاني اللطف بحقي أنا. ومن أجل أن أمنحك قليلاً من القوة، عليَّ أن أعالج نقاط ضعفي، ولأعرف كيف أكلِّمك، عليَّ أن أستردَّ صوتي. ربَّما أخيِّب أملك، ولكن الحب لا يدخُل في تفكيري.

- أفضِّل ذلك. وهكذا سأشعر أنني أقل أنانية. وإذا ما كان بإمكان إعاقتي أن تعالجك نهائياً من إعاقتك، فسوف تراني مُلَبِّيَةً. ولكن لا تنسَ وَعْدك، يا (تيو): عليك ذات يوم أن تقول لي كلَّ شيء. هل نسيتَ؟

بدأت كرة الشمس، في الأفق، بالنزول خلف حدود البحر.

ردَّ (تيوفان) عِوَضاً عن الجواب بالقول:

- ألا تعتقدينَ أن وقت الانصراف قد أزِف؟ فقد بدأتُ أشعر بالبرد.

ثم صاح:

- (أليكسيس)، حان الوقت!

سار الثلاثةُ نحو سيارة الـ (فيات). كالعادة، كان (تيوفان) يحمل (أنطونيا) بين ذراعيه. في الوقت الذي كانا فيه على بعد بضعة أمتار منها. وعندها ظهر رجلٌ في الاتجاه المعاكس. وبومضةٍ واحدة، رفع (تيوفانُ) (أنطونيا) عالياً جداً كي يحجب ملامحه جزئياً بجسم الفتاة الشابة، ووسَّع خطوتَه.

احتجَّتْ (أنطونيا) بقولها:

- ما الذي جرى لك؟

- لا شيء. إني بردان.

- هذا هو الرجل الذي سبق أن التقيناه، رجل الكهف، أليس كذلك؟

- ربما.

- هل تمزح، يا (تيو)؟ ألم ترَ الطريقةَ التي كان ينظر بها إليك؟

- أثار فضولَه بلا شك رؤيتي وأنا أحملُك.

ثم تصنَّع الطبيب ابتسامة، وقال:

- أو أنه مُعْجَب.

جلس خلف المِقْوَد، وصفَقَ الباب، وأدار السيارة.

كرَّرتْ (أنطونيا)، وهي تفكِّر:

- مُعجَب؟

انطلقت السيارة وسط سحابة من الغبار.

* * *

سحَبتْ (بيبا) نفَسَيْن من سيكارِها، ووضعت ساقاً على أخرى، وراقبت ردة فعل (آخيل). وهو غائص في كرسيّه، والهيئة غائبة، وهو يلعب بحبات مسبحته الكهرمانية.

ألحّتِ اليونانية في الطلب، قائلة:

- هل سمعت كلَّ ما قلتُ لك؟

- طبعًا.

- وماذا بعد؟ بمَ تفكِّر؟

قام (آخيل) بتدوير مسبحته مرةً أخيرة قبل أن يجيب، بقوله:

- لقد تحدَّثنا عن ذلك سابقاً. وأعتقد أن التنصُّت على الأبواب أمرٌ بشِع.

- ماذا تقول؟ إنني موجودة هنا في الصالون، وكانا هما على الشرفة. ولم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً غيرَ أن أستمع إليهما. وها قد مضى أكثرُ من أسبوعين وأنا أدير وأُعيد إدارة هذه المسألة في رأسي. ولعلي أصبح مجنونة منها.

وسحبت المرأة بعصبية نَفَساً من سيكارِها، وقالت:

- (تيوفان) شخص غامض. والورق لم يكن ليكذب. هذا الرجل يحمل في نفسه سِرّاً. وعندما توسَّلتْ إليه (أنطونيا) ليبوح لها، كان جوابه..

تابع (آخيل) الجوابَ عنها بملل:

- «أعطيني وقتاً. فالوقت مبكِّر الآن». أعلَم. لقد رويتِ لي سابقاً كلَّ شيء.

- حتَّى إنه حدَّد قائلاً: «إن ما أحمِله ثقيل جداً».

رفع (الباشا) ذراعيه إلى السماء، وقال:

- (بيبا)، يا عزيزتي، إلامَ تريدين الوصول؟

- أنـت إذًا لـم تفهم؟ أليسـتْ (أنطونيـا) ابنتـي؟ أوَليس من المنطقي أن أقلق لأجلها؟ هل تتصوَّرها عاشـقةً لرجلٍ أكبر منها بعشرين سنة؟ رجلٍ من المحتمل أنه لا يبادلها أبداً هذا الحب؟

دسّ (آخيل) مسبحته في جيبه، وقال:

- أهـذه أنـت؟ أنـت التـي تكتشـفين فـارق السـن؟! mech ma'aoul [297] هـل نسـيتِ أن ثلاثين سـنة تفصل بيننـا؟ إنها ثلاثون سـنة! لا عشـرون! فهل كانت حياتُك جحيماً؟ ومن نحو آخر، أنتِ تُغْفلينَ جزئية هي: أن عمر (أنطونيا) ألفا عام، لا ستةٌ وعشـرونَ عاماً. (أنطونيا) روح قديمـة، وصدِّقيني، أنا أعْلَم أنني عرفـت فيهـا واحدة عندمـا التقيتُها. إضافة إلى ذلـك، أجد أنه لا حـقَّ لـك أن تتحدَّثـي عنها كمـا لو كانت ابنتَـك. لا، يا (مدام فاسِّـيلي)، إنها أيضاً ابنتي. لقد حملتُها بين ذراعيّ، وهدهدتُها، وقـد أعطيتُها نصيبي من الحب وهي تسـتحق تماماً نصيباً من أمٍّ. فإن كان هذا الرجل يشـكِّل تهديداً أياً ما كان لها، فإنني أؤكِّد لك أنني، على الرغم من سني الكبيرة، سأجِد القوة لإمساكِه من تلابيبِه وطرده.

- لكن.. لكن..

- دعينـي أنهـي كلامـي! أنـتِ تتكلمـين، دائمـاً تتكلمـين. إن (تيوفان) رجلٌ جيِّد. وأجزِم بذلك. إنه رجلٌ عَمِل كل ما يستطيع مـن أجل خيـر (أنطونيا)، ولا يمكن أن يكون هـذا الوحشَ الذي يصـوِّره لك مـخُّ العصفـور الذي هو مخُّـك. أوَلم تـري ابنَنا كم تغيَّـر؟ وكيـف توصَّل (تيوفـان) إلى إخراج (طونيا) من السـجن

(297) كتبت العبارة العربية من اللهجة العامية بمصر (مِشْ معقول!) بالحروف اللاتينية، وتلاها المؤلِّف بترجمتها الفرنسية (c'est insensé) (المترجم).

الذي كانت تعيش فيه بخمول حتى الآن؟ لقد حقَّق معجزةً وكلُّ شيء يحمِل على الاعتقاد بأننا لسنا إلا في بداية الأمر.

- وسرُّه..

- كُفِّي عن إثقال سمعي بحكاية السرّ هذه. فنحن جميعاً لدينا أسرارٌ صغيرة بائسَة مكتومةٌ في قلوبنا الصغيرة البائسَة.

ثم رفع سبّابتَه نحو (بيبا) قائلاً:

- وأنت أليس لديك أسرار؟ أوَ لا تُخفين عني أموراً في رأسِك الصغير، وهل أنتِ مقتنعةٌ بأنني عاجز عن استشفافِها؟ لا بأس! وفي اليوم الذي يقدِّر فيه (تيوفان) أن الوقتَ حان ليبوح بسره، فلسوف يفعل. وبانتظار ذلك، وإذا كنتُ أسمح لنفسي أن أقدِّم إليك نصيحة..

- نعم.

- سالِميهما!

- (آخيل)! كيف تكلِّمني؟

اتَّخَذ (الباشا) هيئة متسامحة، وقال:

- كيف؟

(20)

كانت (أنطونيا) تعطي، وهي جالسة باستقامة على السَّرْج الكامارغيّ، صورةَ فارسةٍ ماهرة. وعلى بعد خطوات، في مركز دائرة افتراضية، كان (تيوفان) يقود الحصان برسَنِه ويجعله يطوف الهوينَى.

وكان (ديمتري)، وقد تراجع، وجلس تحت شجيرات العنب، يراقب المشهد باهتمام جديد. وكان أكثرُ ما فاجأه هو ارتياحَ الفتاة الشابة. فمخاوِفُ الأيام الأولى غادرت المكان ليحل محلها اقترابٌ من السعادة، ولأسبابٍ وجيهة، لم «تكن تمشي»، أوَلم تستردَّ بطريقة غير مباشرة قُوَّة محرِّكةً كانت تعتقد أنها قد فقدتْها إلى الأبد؟ قال (ديمتري) لنفسِه إن شيطان (تيوفان)، في نهاية الأمر، كان بارعاً.

سألت الفتاة الشابة:

- ماذا تفعل ليطيعك من غير أن تنطِق بكلمة واحدة؟ لستُ أفهم.

- ولغةُ الإشارات؟ هل نسِيتِها؟ إنها مع ذلك موجودة. يوماً ما، سأصحبك لرؤية خيلٍ حرَّة. ويكفي أن تراقبيها لتكتشفي أنها تتحاور، بالمعنى المجازي طبعاً. إنها رسائل محدَّدة، تُسْتأنَف

بـلا انقطاع. إن أقل حركة تحصل لها سـبب ولهـا مغزى. ومثال ذلـك، أن الطريقـة التـي تضـع فيهـا الفـرس جسـمها، وأذنيها بالنسـبة إلـى مُهْرِها الذي تريد أن تروِّضَـه، غنيَّةٌ بالدروس. وأنا متأكِّـد أنـك، بقليـلٍ مـن الصبر، يمكـن أن تكوني قـادرةً على أن تحفظي عن ظهر قلبٍ مفرداتِ الصمت هذه.

وأمام ارتياب الفتاة الشابة، تابع الطبيب يقول:

- هنـود (أمريـكا)[298]، أنفسُـهم، كانوا قد اسـتوعبوا ذلك، خلافاً للـ (كاو - بويات)[299] cow - boys الكريهين الذيـن لم يكونـوا يفكِّرون إلا في «تحطيم» الحيوان للسـيطرة عليه. فهل تعرفـين كيـف كان الهنود ينظِّمون أمورَهم لأسـر الخيول؟ لقد كانوا يبدؤون بتحديد مكان القطيع، وكانوا يتَّبِعونه على الأثر في كلِّ تنقُّلاتِه، ويحرصون جيداً على مضايقته. وهذه الملاحقة السـلمية يمكـن أن تسـتغرق يومـين أو ثلاثـة أيام. ثـم، عندما يرون أن الوقت مناسِـبٌ، كانوا يرجعـون أدراجَهم ويبتعدون عن القطيع.

- والخيول؟

---

(298) هنود أمريكا: هم المعروفون بـ (الهنود الحمر)، وكانوا سـكان القارتين الأمريكتين، ومما يذكـر أنهـم كانوا في رقعة الولايات المتحدة الحالية نحو أربعين مليوناً في مطلع القرن التاسـع عشـر، الذي شهد بداية توغل المهاجرين الأوروبيين من مجرَّد الشريط الساحلي الشرقي المطل علـى المحيـط الأطلنطي، باتجاه الغرب، مسـتعملين كل أنواع السـلاح المتطـور لتطهير البلاد منهـم تدريجياً والحلول محلهم والاسـتيلاء على أراضيهم، حتى بقي منهـم اليوم ما يقرب من مليونين أو ثلاثة ملايين فقط، وقد أسـهمت صناعة السـينما الهوليوودية بشيطنة هذا الشعب المسـالم البدائي إلى أبعد الحدود، وصوَّرته بأبشع الصور، وكأنه هو الجزار، والمهاجرين البيض المستعمرين هم الضحية، وهذا أمر مؤسِف ووصمة عار على جبين الإنسانية (المترجم).

(299) الـكاو - بويات: هم رعاة البقر الأمريكيون على الخيل، وعلى وجه الخصوص في القرن التاسع عشر، لاتسـاع الأراضي الأمريكية، وكانوا بحاجة دوماً لأسـر الخيول البرية وترويضها وتطبيعها لاسـتعمالها في عملهم، وقد أنتجت صناعة السينما الأمريكية في (هوليوود) عدداً لا يحصى من الأفلام التي تروي قصصاً من واقع حياتهم، وتعرف بـ (أفلام الكاو - بوي) (المترجم).

- كانت دائماً تبادر بالقيام بنصف دورة وتتعقَّبُ خُطاهم.

- بدلاً من أن تفِرّ؟ لماذا؟

- لأن الهنود أدركوا أنهم عندما يُبعدون عنهم حصاناً، فإن غريزتَه كانت تأمره بأن يعود إليهم. بالطريقة نفسها عندما تضعين إصبعاً على جنب حصان وتحاولين دفعه، فإنه يقاوم ذلك بدلاً من أن يستجيب له.

- شيء مدهِش.

أوقف (تيوفان) جولة (جيهول) واقترب من الفتاة الشابة، وأعلن لها وهو يبتسم قوله:

- أعتقد أن الوقت قد حان الآن لأن تأخذي القيادة.

- القيادة؟

- ألم تتعبي قليلاً من الدوران، متِّبعةً لتوجيهاتي؟ أمسكي العِنان. من غير فظاظةٍ. وضعي كوعيكِ على جسمِك. ولسوف ندعو هذه الحركة: عِنان الافتتاح، لأنها تشبِه ما يفعله المرء عندما يودّ فتح بابٍ. وللذهاب يميناً، نفتح الذراع الأيمن بشكل قوس دائرة نحو اليمين. وللذهاب يساراً، نفتح الذراع الأيسر راسمين قوساً لدائرة نحو اليسار.

نفَّذت الفتاة الشابة ذلك بتهيُّب. فقال:

- تقريباً. نعيد. أديري جيداً المِعْصم الأيمن، مُبْعِدةً يدكِ إلى الأمام وإلى اليمين من غير أن تسحبي العنان، ولكن أرْخِي يدَك اليُسرى لتدعي عنق الحصان تنعطِف. وهذا أفضل. والآن أعيدي الحركة نفسَها، ولكن بالعكس. تمام! مرةً أخرى.

سألت الفتاة الشابة بعد بضع دقائق من هذا التمرين، قائلة:

- وإن أردت أن أجعلَه يتقدَّم إلى الأمام؟

- فـي هـذه الحالة، تلعب السـاقان الدور الرئيسـي في ذلك. وذلـك بنخـسِ بطن الحيوان نخسـاً خفيفاً، مـع إرجاع السـاقين من غير ضغطهما عليه، كما لو أنهما تبحثان عن رجلي الحصان الخلفيتين، وسيبدأ الحصان عندئذٍ بالجري. ومن أجل إيقافه..

صاحت (أنطونيا) مرتبكة:

- ساقَيَّ؟

- ليس هنالك ما يدعو للذعر.

حصَّـل (تيوفـان) خيزرانـةً لينـة، وناعمـة جـداً، بطـول متر تقريباً، وناولها للمرأة الشابة، وقال:

- هذه هي سيقانُك، يا آنِسَة.

- فسِّر لي، يا دكتور.

- لـيـس عليك إلا أن تعطي (جيهول) ضربةً خفيفة جداً من هذا القضيب، أشـبهَ بالمداعبة، فقط خلفَ بطة سـاقِك اليمنى. واحذري ضربه على البطن، ولا على ردفه، وإلا سينطلق بسرعة!

فتَحتْ (أنطونيا) عينيها الكبيرتين، وقالت:

- بسرعةٍ؟

- يعنـي أنه سـيرفع ردفه ويحاول أن يقذف بـك. إذن، ضربةُ صغيرة لطيفة ستمكِّنك بصحبة طَرْطقةٍ باللسـان أو ببسـاطة تأمره بالقول: «هَرْوِل» Trotte.

- ولإيقافه؟

- سوف تميلين إلى الوراء بخفَّة، وأنتِ تسحبين العنان برِفقٍ. وبلطف.

تفحَّصـت (أنطونيـا) الخيزرانة بفُضُولٍ كما لـو أن أحداً قدَّم لها للتو خاتَماً سحرياً.

وقالت:

- هل.. هل أستطيع أن أجرِّبَها؟ ألن يخافَ الخيزرانة؟

- على الإطلاق. لقد استعملتُها أكثر من مرة لمداعبته في كل جسمه. ولا يمكن أن يخاف منها.

المرأة الشابة فكَّرَتْ بعضَ الوقت بسرعة، وتنفَّسَتْ بعمق، وأمسكت العِنان، وكما أوحى إليها (تيوفان)، نقرت نقرة على بطن الحصان وهي تطرطِق لسانها.

فحرَّك (جيهول) الخمسمئة كيلو التي هي وزنه.

نهض (ديمتري) مرتبكاً، مانعاً نفسَه من أن ينطق أي كلمة، خوفاً من أن يتحطَّم الجمال. واستمر الجمال. ووصل إلى آخر الكرم، أرخت (أنطونيا)، تبعاً لرسالة تعليمات الطبيب، يدَها للأمام وإلى اليمين. فاستجاب (جيهول) للإشارة وبدأ بنصف دورة.

رسم اليونانيُّ إشارة الصليب عدة مرات وهو مبهور، وهو يقول:

- Panaghia![300] هذا مستحيل. لقد نجحَتْ!

وعادت (أنطونيا) إلى نقطة الانطلاق، مطبِّقةً مرَّة أخرى الإشارات التي تعلمتْها، وعاد الحصان للانطلاق بطواعية أيضاً في الاتجاه المعاكِس. كان (ديمتري) يرى في هذا الذهاب والإياب مشهداً كان ينتمي إلى ما فوق الطبيعة. فهذا كائنٌ لم يكن يفعل، منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة، سوى أن يَدْرُج بشقاء، ويتوازن غير مؤكَّد، وهو مهدَّدٌ دوماً بالسقوط، وهو اليوم حُرٌّ ويتحرَّك، كسيِّد.

(300) كلمة يونانية بحروف لاتينية تعني (أيتها المقدَّسة!)، وتكتب الكلمة بالحروف اليونانية (πavaγia) (المترجم).

سألتْ (أنطونيا) وهي تحرِّك (جيهول) إلى أمام الطبيب قائلة:

- هلّا ساعدتني على النزول؟

عندما أصبحت بين ذراعيه، تركت نفسها تذهب إزاء صدره وبقيت ساكنةً من غير أن تنطق بكلمة. ولكن (تيوفان) كان بإمكانه أن يسمع بوضوح أنها تهمِس بقولها: (شكراً).

* * *

رمَى (الباشا) زهر الطاولة بعنفٍ وهو ينفجر ضاحكاً ويقول:

- أنتَ مع ذلك غير معقول! فأنا لم أرَ حظاً كحظك. إنك تلعب بغباء، ومع ذلك تجد سبيلاً إلى الفوز.

- هذا بالضبط ما قاله لي (ديمتري). فماذا أفعل؟

- هل أنت مدرك بأنك تلعب خلافاً لكل القواعد؟

فردّ (تيوفان) قائلاً:

- وربما أفوز لهذا السبب؟ حتى في تطبيقي الطب، وكان يحصُل لي أن أستخفّ ببعض المواضعات.

صاحت (أنطونيا) قائلة:

- وأنا . أشهد بذلك. كيف تقول باللهجة المصرية Magnoun؟[301].

فأكد (الباشا) قائلاً:

- مجنون، نعم.

ومال نحو (تيوفان) وتمتم له بلهجةِ مَنْ يبوح بسِرّ، قائلاً:

(301) كتب المؤلِّف هنا كلمة (مجنون) بالنطق القاهري للجيم وبالحروف اللاتينية، وقد ذكر (الباشا) بعد هذه الكلمة ترجمتها بالفرنسية وهي (Fou)، ويلاحظ أنها مما بقي عالقاً بذهنه من أيام عيشه في مصر قبل مغادرته منها (المترجم).

- نسيتُ أن أقول لك: لقد أنجزتُ القضية مع مَنْ تعلَم.

- رائع! لن أستطيع شكرك بما يكفي أبداً. ولم يَرْتَبِ الرجلُ الطيِّب بشيء كما أتصوَّر؟

- مطلَقاً. ولقد قفز من الفرح. لكن هذا اللئيم رفع السعر أمام اهتمامي.

- كم؟

- أَزْيَد بعشرين في المئة.

- ليكن! ستتسلَّم التحويل المصرِفيّ خلال ثمانٍ وأربعين ساعة..

- عَمَّ أو عَمَّنْ تتحدَّثان؟ كنتُ أودّ أن..

كانت (أنطونيا) تهم بمواصلة كلامَها عندما دخل فجأة رجلٌ إلى الصالون. كان له من العمر نحوُ خمسين سنة وشعره أصهب. وسأل بلهجة انزعاج:

- أين (مدام فاسيلي)؟

وعندما شاهد (الباشا)، كرَّر سؤالَه بإنكليزية تقريبية.

قال (آخيل) بإنكليزية أوكسفوردية[302]:

- مَنْ أنتَ، يا سيِّد؟

- (جورج ديهيه) Georges Deshaies. وأشغل الغرفة رقم 12.

- تشرَّفْنا. هل أنت فرنسي؟

أكَّد الرجل ذلك. فقال له (الباشا):

- إذًا، لنتكلَّمْ بلغتِك. سيكون هذا أسهل بالنسبة لك. وأقدِّم لك نفسي: (آخيل أناغنوستاكيس). ماذا تريد؟

- لا يوجد ماء في حمّامي.

---

(302) يعني بلغة إنكليزية مصفّاة أو راقية (المترجم).

- آه.. في هذه الحالة، الأفضلُ بالفعل أن تتحدَّث عن ذلك إلى (مدام فاسِّيلي). وتجدها في الحديقة.

وبغياب ردة فعل لمحدِّثِه، سأل (الباشا) قائلاً:

- الرَّجُل؟

ظل الآخر ساكتاً، ويحتفظ بعينيه مثبَّتَتَيْنِ على (تيوفان)، ثم انتهى به الأمر إلى أن ينطق قائلاً:

- (دكتور دِبّانِه)؟

تردَّد الطبيب قليلاً، ثم قال:

- نعم..

- لقد كنتُ متأكِّداً! حينما رأيتُك على شاطئ (سابسيلا)، وقد شككتُ للحظة. وعلى كلِّ حال، كان ذلك قبل نحو ست سنوات. فهل تذكرني؟ أنا (ديهيه).. (جورج ديهيه).

- آسِف. هذا الاسم لا يُذكِّرني بشيء.

- مستحيل! إذًا انظُرْ!

كشف الرجل عن صدره، وباعد طرفي قميصه ليظهر قفصه الصدري لعيني الطبيب، وقال:

- انظرْ! عملٌ جميلٌ، أليس كذلك؟

كان في وسط صدره نَدَبةٌ تمتد على طول قفصه الصدري، وقال:

- في 18 شباط/فبراير سنة 1980. في مشفى (كوشان) Cochin. انقَذْتَ حياتي.

أصر (تيوفان) على القول:

- آسِف، ربما التبس عليك الأمر مع شخص آخر.

- كان تجسيراً رباعياً! ومداخلة من يد معلِّم! وبفضلِك، عُدْتُ إلى الحياة.

ردّ (تيوفان) بنفاد صبر قائلاً:

- أقول لك إنك مخطئ، ومن نحو آخر، أنا لستُ جراحاً.

قطّب الفرنسي جبينَه غيرَ مصدِّق، وسأل:

- أولستَ حقاً الدكتور (دِبّانِه)؟

- يمكن أن يكون هنالك نحو ألف (دِبّانِه) في العالم.

- لكن، يا دكتور، هذا مستحيل.

ألحّ الفرنسي على القول بتضرُّع تقريباً:

- شباط/فبراير سنة 1980. مشفى (كوشان).

انفجر (تيوفان) قائلاً:

- أكرِّر القول إنك مخطئ!

ونهض بسرعة واقترح على (أنطونيا) قوله:

- لنذهب إلى الحديقة. إننا نختنِق هنا.

وبينما كانا يجتازان عتبة الصالون، كانت الكلماتُ الأخيرة التي سمعتْها الفتاة الشابة (من الفرنسي موجَّهة إلى (الباشا)):

- أُقسم لكَ إنه حقاً الدكتور (دِبّانِه). أكبرُ جرّاح قلبٍ في العالَم. وأؤكِّد لك ذلك، يا سيِّدي.

فكان ردُّ (آخيل):

- ما دام قال لك إنه ليس جراحاً!

* * *

عندما وصل (تيوفان) إلى أمام عريشة تقع قرب مدخل البيت اقترح قائلاً:

- هل ترغبين في الجلوس؟

فامتثلَتْ له بصمت.

كانت السماء مغطّاةً وكان الضوء الذي تصفّيه السحُب يفقد صفاءَه.

قال (تيوفان) بغيظ:

- غير معقول، هذا الشخص! يا لَه من لحوحٍ!

بقيت (أنطونيا) محافظة على صمتِها.

واستأنف هو يقول:

- يقال إن الجوَّ سيتحوَّل إلى عاصفة. والسماء لم تمطِر بعدُ على (باتموس).

تغيَّر اتجاه الريح فجأة مثيراً زوابع حَلَزونية من الغبار، وأدى إلى اضطراب أغصان الدالية التي تمتد على طول عوارض العريشة. وخلال لحظةٍ، أعطى الطبيبُ انطباعاً بالتحوُّل إلى مكان آخر، للاستماع إلى ما لا يدري. صوت خطوات؟ صوت الصدى الذي لم يكن، مع ذلك، يقول شيئاً. الذهاب والإياب للظِّلال. هل هنالك طيفٌ مختبئ في الظل؟

- ماذا عليَّ أن أفعَل؟

- تكلَّمْ إلى (أنطونيا). من غير أن تخفيَ عنها شيئاً.

رفع (تيوفان) ذراعيه وتركهما يسقطان، وقال:

- حسناً جداً. هل أنت مستعِدَّة للاستماع إليّ؟

- إنني مستعِدَّة منذ زمن طويل.

ضمَّ يديه حتى يخفيَ اضطرابَهما، وقال:

- كان هنالك في يوم من الأيام طالب متألِّق. وكان ابناً وحيداً، رباه أهلٌ رائعون وأبٌ يدلِّله، في مِصْرَ سعيدةٍ. إلى يومَ أن ظهر كولونيلٌ يُدْعَى (ناصراً)[303]. وكان ذلك في 23 تموز/ يوليو سنة 1952. كان قومياً، ووطنياً كبيراً، وبطلَ حرب،

(303) كان عبد الناصر عند انقلابه برتبة (بكباشـــي) أي (مقدم) لا برتبة (كولونيل) اي عقيد (المترجم).

وسرعان ما حيّاه الجميع بحماسة. هل كان شيئاً فوق الطبيعة؟ أكثر من ثلاثة قرون مرَّت و(مصر) يحكمها متسلِّطون أجانب. قام الكولونيل بإجلاء المحتلّ الإنكليزي خارج البلاد، وهذا ما ضاعف إعجابَ شعبه به. وفي سنة 1956، قام الغرب، الذي لا يزال متأثرًا بالعقلية الاستعمارية، بالهجوم على البلاد. وبعد إخفاق تامٍّ ومدوٍّ، قام هذا الغرب نفسُه بالانسحاب وذيله بين ساقيه، غير مدركٍ للبركان الذي أيقظه. وبين عشيَّةٍ وضُحاها، أُشِيْرَ بالأصابع إلى طوائف الأقليات، المؤلَّفة من اليهود[304] والنصارى[305]، من كل الأصول، والذين كانوا يُعَدُّون مصريين، واتُّهِموا بأنهم كانوا متواطئين مع المعتدين. ووالدي، الذي لم يكن غنياً جداً آنذاك، رأى مستقبلَه، وبالنتيجة مستقبلي، يتبدَّد

---

(304) إنصافاً للحقيقة، كان اشتراك (إسرائيل) في العدوان الثلاثي على مصر، سبباً في إثارة النعرة ضد اليهود في مصر، كما أن الصهيونية لعبت دوراً في تعبئة يهود مصر للهجرة إلى فلسطين، وقاموا بأعمال عدوانية على اليهود والمصريين والمصالح الغربية في مصر لتحقيق هذا الهدف، فزرعوا الرعب في قلوب اليهود المصريين، فبادر كثير منهم إلى مغادرة مصر إلى جهات مختلفة (المترجم).

(305) يركز الغرب منذ حملة نابليون على مصر والشام، وطوال القرن السابع عشر في لبنان على حماية النصارى العرب، وركز الاستعمار الإنكليزي لمصر والفرنسي لسورية ولبنان بعد ذلك على تعميق شعور النصارى العرب بالخوف من أبناء جلدتهم في العروبة، تطبيقاً لمبدأ (فرق تسد) الاستعماري، وإذا كان ذلك انطلى على فئة قليلة جداً منهم، فإن الأغلبية العظمى كانت مع إهلهم المسلمين، والدليل على ذلك أن كل من تعاون مع حملة نابليون وأخلص لها، ترك البلاد وتعلّق بأذيال الفرنسيين عند عودتهم إلى فرنسا، وبقيت الأغلبية المطلقة من نصارى مصر الأقباط في بلادهم وعلى أرضهم آمنين. غير أن الاعتقاد الوارد لدى المؤلف ربما كان يتعلّق بالجاليات اليونانية والإيطالية وغيرها، لأنها كانت مقيمة في مصر لحاجات اقتصادية لا بهدف التوطن، ونتيجة لمبدأ التأميم الذي خرج به عبد الناصر على الناس اندفعوا إلى الرحيل عن مصر خوفاً على مصالحهم الاقتصادية تلك، والذي يؤيد ذلك ويحتج لصحته أن عدداً كبيراً من أثرياء مصر وإقطاعييها رحلوا عنها أيضاً مع أنهم مواطنون مسلمون أصلاء فيها، وحدث مثل ذلك في سورية أيضاً أيام الوحدة مع مصر وبعدها، ومع ذلك لايزال الغرب يحمل فكرة حماية الأقليات من الأكثريات، مع أن هذا المبدأ خاطئ أصلاً في ظل مفهوم المواطنة التي تساوي بين كل الناس أمام القانون بغض النظر عن أي فارق بينهم (المترجم).

دخاناً. فكان لجوء والدي إلى لبنان، ولجوئي أنا إلى باريس. لماذا (باريس)؟ لأنني كنتُ أحلُم بها، على غرار جميع أبناء ديني، في (فرنسا) منذ مولدي[306]، فقد عُلِّمْتُ حب هذا البلد الذي لم أعرفه إلا من خلال الكتب المدرسية والسينما. وكنتُ آنذاك أرغب في أن أكون طبيباً.

بعد سنة من وصولي إلى (باريس)، علمتُ بوفاة والدي، نتيجة أزمة قلبية. وقد بيَّنوا لي، فيما بعد، أنه لم يتحمَّل اللجوء والانحطاط، وفضَّل العودة إلى (مصر)، مثلما تنزوي الضواري عندما تشعر باقتراب الموت. وخَمَد وحيداً. بلا أضواء. إن حَشْدَ الطفَيلِيينَ الذين كان يطعِمهم طوال السنوات الباذخة كان قد تبخَّر، كما لو كان مصادفة. وفي الحقيقة لم يذهب أبي نتيجة توقف القلب، بل نتيجة الغمّ. وعلى النقيض، وعوضاً عن أن أتحطَّم، فإن هذا الفَقْد نفَخَ فيَّ شجاعةً ورغبةً في الانتصار الذي كنتُ أظُنّ أنني أهلٌ له. ونظراً لأنني فقدتُ مملكتي، فقد بدأت ببناء مملكة جديدة تماماً. ولن أتوسَّع في سنوات الشقاء. فهي مماثِلَةٌ لجميع السنوات التي يعيشها أغلبُ اللاجئين. نجحتُ في السنة الأولى في الطب وفي السنوات التالية بتفوُّق، يحرِّكني شُعارُ أن أكون الأول في كل شيء، وفي كل وقت. ثم بعد قليل كنتُ ذاك الذي يعُدُّه الأساتذة مثالاً. وعبقرية في المستقبل. وعندما طُرِح موضوع اختيار تخصُّصي، فقد كان من الطبيعي جداً أن ألتفتَ نحو قاتل أبي، وهو: القلب. وهذا القلب رمز أيضاً للحياة، فهو يحتوي على مشاعرنا وأحلامنا. لقد كانت

(306) لا شك في أن هذا الحكم حكمٌ تعميميٌّ خاطئٌ وغير منطقي على المواطنين العرب النصارى في البلدان العربية، مع الإقرار بأن لكل قاعدة شواذٌ (المترجم).

لـديَّ دوماً موهبـةٌ في يدَيَّ. فحين كنتُ صغيـراً جداً كنتُ أجمع نماذج مصغَّرة، وعلى الخصوص السفن، والشراعية منها، صانعاً أشرعتَها وصواريها بشكل أكثر إتقاناً من أصابعَ صغيرةٍ لخيَّاطةٍ. وقرَّرتُ أن أضع هذه الموهبة في خدمة الجراحة القلبية.

ولمسَ جبينـه حيـث كانـت تلمـع بضـع قطـرات مـن العرق. فانتهزت (أنطونيا) ذلك لإبداء ملاحظة قالت فيها:

- إذًا كان الحق مع سيد (ديهيه) هذا.

أشار (تيوفان) برأسه: نعم. ثم قال:

- ومنـذ ذلك الحـين، فُتِحَتْ لـي أبواب المجـد. وأعتقد أنني كنتُ في ذلك العصر جرّاح القلب الأكثر شـباباً في (فرنسـا)، إن لـم يكن فـي (أوروبا). إنه المجد، يا (أنطونيا). والشـهرة. والقوة. ولـو تعلمين أيَّ مخدرات تمثِّل! إنها تلقي سُـمَّها ببطء، من غير علمنـا، وتلوِّثنا نهائيـاً. ويظُنّ المرء أنه خالدٌ، ولا يمكن أن يُمَسّ، مـاذا أقـول! إنـه خالـدٌ! اسـجدوا، أيها السـادة، فها هـو الدكتور (دبّانه) الذي يمُرّ! لقد كنتُ أشـبَهَ شـيء بـ (أوديب) الذي سَـمَلَ الغرورُ عينيه. إن أي مداخلةٍ (جراحية) لم تكن تخيفني، سـواء أكانت معقَّدة أم خطِرَة. كل الأعمال الجراحية الباهرة وُلِدَتْ بين يـدَيَّ: يَدَي المعجـزة، كما كانوا يقولون عنهمـا. وكان بإمكاني أن أجري عمليةً في غرفة مظلمة من شدة ثقتي بنفسي.

وفجأة، اجتاح وجهه تعبير قلِقٌ، فسكت بغتةً، ثم قال:

- أتصوَّر أنكِ تكرهينني الآن..

- لا! أبداً! أبداً! تابِعْ، أرجوك.

حاول الابتسام، ولكن شفتيه شكلتا تكشيرة، وقال:

- وفـي هـذا الوقـت تزوَّجتُ. في غايـة الشـباب، وكان عمري

فقط سبعة وعشرين عاماً. كانت زوجتي ممرِّضة. امرأة جيِّدة تتزوج شخصاً غير جيِّد. وربما خُنتُها أكثر مما لـ (كازانوفا)[307] Casanova من غزوات. كانت النساء تُطْريني وتتزلَّف إليَّ، ولم أرَ مجدياً أن أقاومَهن. وكان الغرور، دوماً ولا يزال، هذا الغرورَ اللعين. وكان لنا طفلٌ.

- حقاً؟

سكت (تيوفان).

كانت أجراسُ كنيسة (القديس يوحنا) قد بدأتْ تُقرَع.

والغريب، لم تكن هذه المكاشفةُ لتُحدث له ألماً. لقد انسلَّ خارجَ نفسه كالدموع التي تسيل ببطء، فاترةً وغير مستمرّة.

غادر كرسيَّه، وسار بالطول والعَرض، وظهرُه مقوَّسٌ خلال دقائق طويلة. وعندما عاد للجلوس، كان صوتُه قد وجد ثباتَه، وهو يقول:

- ومنذ نحو ثلاث سنوات، في 3 حزيران/يونيو سنة 1983 بالضبط، حضر شابٌّ إلى عِيادتي. وكان يعاني اضطراباتٍ قلبية. وعلى الفور شخَّصْتُ حالته بوجود (اتِّصالٍ أُذَيْنِيّ في القلب). وهو تشوُّهٌ خَلْقِيّ وِلادِيّ. وليس فيه شيء خطير، ولكن كان يجب إجراء عملية له. وهذه مداخلةٌ تافهة. وتافهةٌ جداً مثل استئصال الزائدة الدودية. فقط هذا، أنا الدكتور (دِبّانه)، لم يكن بإمكاني أن أقتنع بمداخلة تافهة! وكان بإمكاني، كما كان

(307) كازانوفا: هو (جاكومو جيرولامو – Giacomo Girolamo)، مغامر نسائي من الدرجة الأولى، وكاتب مذكرات يصف فيها مغامراته التي كان يغوي بها النساء بأساليب متعددة من أبرزها الذكاء والشجاعة والجرأة والكرم وحسن التصرف، كما يصف فيها كل ما تعرَّض له من مشكلات من جراء ذلك، عاش في الفترة (1725 – 1798)، ومذكراته مترجمة إلى العربية (المترجم).

كل الناس ينصحونني، أن أطبِّق نشـر القفص الصدري نصفين. أي شـقّه على طول القصّ[308]. وبهذه الطريقة، ينقسم القفص الصدري نصفين، فيصبح بالإمكان الوصول بسهولة إلى القلب. فرفضـت ذلـك بذريعة خاطئـة. لأن هـذه الميزة إن كانت تسـمح بإجـراء العملية بأمان تـام، لكن هذه التقنية تترك على المريض نَدَبَـة[309]. وهكـذا أجريـتُ العمليـة، خلافاً وضد جميـع الآراء، بجراحـةٍ أقـلَّ رَضِّيَـةً، وقرَّرْتُ أن أدخل من المسـلك الأوسـط[310] la voie médiane: هنا!

وأشار إلى الجانب الأيمن من قفصه الصدري. ثم قال:

- إن مأسـاة المغروريـن[311]، يـا (طونيـا)، هي أنهـم يعتقدون أنفسـهم أقـوى مـن الطبيعة، وأقـوى من المـوت. وذاتَ يـوم كنتُ أقضـي عُطلـةً فـي واحـدة مـن جُـزُر (آران)[312] Aran، فـي (إيرلندا) Irlande، فذكر لي صيادُ سمك بأكبرِ قدْرٍ من الجِدِّيَّة في العالَـم بأنه رفض طيلـة حياتـه أن يتعلَّم السـباحة. وحين سـألتُه عن السبب، أجاب بقوله: «بسـبب التواضع. فليس للمرء

(308) القصّ: هو عظمة وسط الصدر الذي تنغرز فيه رؤوس الأضلاع (المترجم).

(309) هذا الشق يترك ندبة، والطريقة التي اتبعها تترك نَدَبَة أيضاً، ولذا قد يكون قصد الكاتب هنـا أن قصّ عظم القصّ يضعضع القفص الصدري علـى المدى البعيد ويضعفه، وربما هذا ما عناه بعد قليل من هدف طريقته بأنها ستكون (أقل رضِّيَّةً) (المترجم).

(310) المسـلك الأوسـط: يعني به إجراء شق عمودي في منتصف البطن، يمتد من أسفل عظم القـصّ إلى أعلى السُّـرَّة بقليل، حيث يتم الكشـف عن القلب تماماً، ويتـم تجنب إيذاء القفص الصدري بأي شـق للعظم، وهي الطريقة التي يتبعها اليـوم بعض جراحي القلب، وهي موضوع الحديث عن إخفاق بطل الرواية في تطبيقها للمرة الأولى في تاريخ جراحة القلب، حسب سياقها (المترجم).

(311) وهذا هو شأن المتصدِّرين في قمة السلطة والسلطان، والمتفردين بالشهرة، أو المنصب، أو المال، أو القوة، في كل الأزمان، إلا من وقاه الله شر الغرور وشرِ نفسه (المترجم).

(312) جزر (آران): تقع على السـاحل الغربي الأوسـط تقريباً لـ (إيرلندا) غربي خليج مدينة (غالْوي) Galway (المترجم).

أن يتحدَّى البحر أبداً ». وفي يوم العملية ذاك، كنتُ أتحدَّى البحر. واثقاً بنفسي جداً، وكنتُ على وجه الخصوص في غاية التغطرُس، فاقترفتُ أول خطوة خاطئة لي.

وكلما كان (تيوفان) يتكلَّم، كان لديه انطباعٌ بأن يداً جحيمية كانت تنبُش في جسده. وأعلن:

- ومات مريضي. ومنذئذ، وأنا أعيش في خِزْي، ليس الخزيَ الذي يلحقُه الآخرون بالمرء، وإنما الخزيُ الذي يفرضه المرء على نفسه. فعرفتُ العذابَ، ذلك العذاب الذي يجعل المرء يُعاني الشعور المريع بالذنب. لقد قتلتُ نفْساً، ومحوتُ حياةً. ومنذ ذلك اليوم، تحوَّلتْ حياتي إلى كَوْمة بائسَة من الرماد. فرحلتْ زوجتي عني. ولم أعُدْ شيئاً. كل زاوية في شارع، وكل بيت كان يذكرني بفعلي المفجع. ألبستْني السماء ثياب (قابيل)[313] Caïn، وأصبح القبر (باريس). وذاتَ صباح، لم أعُد أتحمَّل شيئاً، حزمتُ حقائبي إلى (اليونان). وجئت إلى (باتموس). لأن جدتي لأمي تنحدر من هذه الجزيرة. واتخذتها ملجأ لي. على الأقل لأن أحداً لم يكن يعرف أن الدكتور العظيم (دِبّانه) تحوَّل قاتلاً.

صاحت (أنطونيا):

- لا. كان ذلك حادثاً!

- لا! إنه قتلٌ!

قالت:

(313) قابيل: حسب الديانات السماوية الثلاث هو ابن آدم الذي قتل أخاه (هابيل) Abel، فكان قتله أول جريمة في تاريخ البشر على الأرض، وكان الدافع إلى ارتكابها الغَيْرة والحسَد (المترجم).

- هـذا خطـأ! خطـأ. حادثة. خطـأ طبي كما يحـدث في كل مكان، وكل يوم، في العالَم.

ومدَّتْ ذراعيها نحو (تيوفان)، قائلة:

- تعالَ، أرجوك، اقترب. إني أحبُّك.

جثا على ركبتَيهِ أمامَها، ووارَى وجهَه في ثنايا ثوبها.

وفي شـبه العتمة، تمتم صوت (تيمور)، قائلاً: «كذبة تم البوح بنصفها، وغُفِر نصفها الآخر».

(21)

عَزَفَ (تيوفان) الفواصلَ الأخيرة من معزوفة (ذكريات قصر الحمـراء)[314] Recuerdos de la Alhambra واحتفظ بالآلـة إلـى جانبِـه. كان يحـب لمـس صنـدوق الرنـين، فهـو يهـدِّئ بالـه. إن كل الأخشـاب الثمـينة المأخوذة من أشـجار: أرز (كنـدا)cèdre، وصنـوبـر جبـال الـ (الـب) épicéa des Alpes، و(باليسَّـانـدر)[315] جـزر الـهنـد الغربـيـة، والـ (بادوك)[316] padouk الأفريقـي، و(أكاجـو)[317] acajou الـ (هُنـدوراس)[318] Honduras، ويسـتعملها صانعـو الآلات الموسـيقية الوتريـة، لصناعة هذه الآلة، كانـت تنقل تاريخها. كم كانت الآلة تسـتغرق من سـاعات الصبر حتى ينبثِق الصوتُ من أوتارها؟ وكم من الليالي مضت في الشـك؟ وعلى غِرار الكائنات

---

(314) ذكريات قصر الحمراء: معزوفة موسـيقية من وضع المؤلف الموسـيقي الإسباني وعازف الغيتار الكلاسـي من العصر الرومانتي (فرانثيسكو تارّيخا) Francisco Tárrega (1852 - 1909)، ألفها سنة 1896 حين كان في (غرناطة) (المترجم).

(315) الباليسَّـاندر: نوع من الأشـجار التي يتميز خشـبها باللون البنفسجي والبني والصلابة ومقاومـة الرطوبة وتُصْنَع منه التحف والأثاث، وهو ذو رائحة طيبة أيضاً، ينبت في مناطق خط الاستواء، وبخاصة: البرازيل، والهند، ومدغشقر (المترجم).

(316) البادوك الأفريقي: نوع من الأشجار يتخذ من لحائه بعض المصنوعات (المترجم).

(317) أكاجو (هندوراس): نوع من الأشجار يتميز خشبه باللون الزهري والأحمر (المترجم).

(318) هندوراس: من دول أمريكا الوسطى (المترجم).

البشرية، فإن أي غيتار لا يشبه غيتاراً آخَر وكل جهاز يثير صوره الخاصة وأحلامه المتنوعة جداً والمعقدة كالروح البشرية.

تقدَّم (تيمور) على كرسيِّه وصفَّق بحرارة في نهاية المقطوعة. وقال:

- لا بأسَ عموماً. انت لم تعزف قط أحسن من ذلك.

فسارع (تيوفان) إلى إضافة قوله:

- أشكر لك أنك لم تكشف عن حياتي لـ (أنطونيا).

- نعم. أنا أيضاً كذبتُ.

- كذبة تم البوح بنصفها، وغُفر نصفها الآخر.

- لديك فلسفة غريبة، يا بُنَـيَّ. على أي حال، وبغض النظر عن أمنيتِك، ليس لديَّ نيةٌ قط للذهاب إلى ما هو أبعد. والأمر الجوهري تم قوله.

- إذًا فرَّجتَ الهمَّ عن نفسك هكذا؟

- لا بأس!

أدخل (تيوفان) غيتاره في قِرابه.

أبدى الفتى المراهق ملاحظة بقوله:

- في النهاية، كان الظهور غير المنتظر لـ (ديهيه) هذا فرصةً. لقد قالت لي العُصفُورة إنه لولا ذلك لما كانت لديك الشجاعة لتمرير الاعترافات.

- به أو بغيره. يؤخِّر المرء الاستحقاق، ويعتقد أنه قادر على إدارة التهرُّب، إلى اليوم الذي تمسكنا فيه يدٌ من تلابيبنا وتعود بنا إلى مربَّع الانطلاق. ولديَّ قناعة أكثرَ فأكثر بأننا لا نتحكَّم في حياتنا الخاصة إلا جزئياً.

وسكَتَ الطبيبُ لمراقبة ابنه بانتباه. ثم قال:

- لو تحدَّثنا، ذاتَ مرة، قليلاً عنك؟ كيف حالُك؟

اجتاح تجهُّمٌ واضح عيني الصبي، وقال:

- إنني مرهَق.

- مرهق!

- إنني أختنق في كل يوم أكثر. وأنا أذوي. كنتُ أحبّ كثيراً أن أكون حرّاً. وأن أنطلق، وأن أتحرَّك، وأن أطير، وأن أهيم حتى بلا هدف. ومن نحو آخر، سيكون هذا بلا هدف، نظراً لأنني لا أعرف شيئاً عما ينتظرني.

ثم مال بجذعه إلى الأمام وأضاف قائلاً وهو يثبِّت عينيه في عيني أبيه:

- ثلاث سنوات، إنها مدة طويلة.

- وما المخرج؟ أنت تعلم جيداً أنني مضطر إلى البقاء هنا، في (باتموس)، وأنت لا تزال فتياً جداً حتى تنطلق وحيداً تماماً في العالَم. ونحن الاثنان كلٌّ منا سجينٌ في الآخر. فأنت أنا، وأنا أنت. فكيف الخلاص؟

دسّ (تيمور) أصابعه في شعره المنفوش وتنهَّد قائلاً:

- لو كان بإمكاني فقط أن أتصوَّر حلاً.

غطّى ملامحَه، وهو ينطق بهذه الكلمات، حزنٌ لا حدود له.

قال (تيوفان):

- تعالَ، تعالَ قربي. أنا أعلَم أنك تعسٌ. وأرى ذلك جيداً. فأنت لستَ (تيمور) الذي أعرفه. لقد غيَّرتْك الكآبة. أنت بعيد. أنت قريبٌ وبعيد في الوقت نفسِه. كما لو أن علاقتي بـ (أنطونيا) أبعدتْك عني.

- وأبعدتني عنك. ربما كان هذا صحيحاً قليلاً، أليس كذلك؟

فهي تشغل من الآن حيِّزاً كبيراً. وهي تدفعني نحو الخروج، من غير أن ترغب في ذلك، وهذا ما لا يزعجني، وأعترف لك بذلك، ولكن الباب أُغْلِق. والمفتاح ليس مع أحدنا.

- أياً ما كانت علاقتي مع (طونيا)، فأنت تبقى دوماً ابني وأحبك دوماً كثيراً. والحقيقة هي أنني لن أصبر أبداً على فقدانك نهائياً.

رفع (تيمور) وجهه نحو (تيوفان) وقال بجديّة:

- غير أنه سيقع.

نظر الطبيب إلى ساعتَه فجأة، وقال:

- أُفٍّ! لقد تأخَّرتُ. عليَّ أن أذهب.

وأخذ مفتاح دراجته النارية.

سأله (تيمور):

- إلى أين تذهب؟

- لأعلن نبأ طيباً لـ (ديمتري).

* * *

تحت تأثير المفاجأة، ألقى (ديمتري) كأسَ الـ (أُوزو) على أرض المقهى - المطعم فتحطَّم. ونادى:

- (سبيروس)! هاتِ كأساً على الفور لـ (تيوفان)، وآخر لي، من فضلك.

ثم صاح هذا اليوناني وهو يمسح ذقنَه بطرف كُمِّه، قائلاً:

- هذا غير صحيح! هذا مستحيل!

- وهو مع ذلك صحيح. أين المشكلة؟

- سيِّد (أناغنوستاكيس) اشترى أرض (سيفاكيس) حقاً؟

- قطعاً. وحسب المتَّفَق عليه، سوف يبيعني إياها في أسرع وقت.

- وكم دفَع؟

- عشرةَ ملايين (دراخما)[319] drachmes. أكثر مما كنتُ أتوقَّع.

- عشرة ملايين؟ هذه الأرض لا تساوي أكثر من ثمانية! يا لَه من لص!

- اهدَأْ. وإلا أصابتك أزمة قولون.

- لا تتحدَّث عن السوء! وإذا غيَّر (أناغنوستاكيس) رأيَه؟

هزَّ (تيوفان) رأسَه، وقال:

- أرى أنك لا تعرِف (الباشا). إنه ينتمي إلى فئة من الرجال في طريقها إلى الزوال. فهو يفضِّل أن يموت على أن يخون كلمةً أعطاها.

حرَّك (ديمتري) رأسه برفقٍ، وهو مرتبك، ثم قال:

- ومع ذلك تبقى هنالك عقَبةٌ، يا (تيو). وهي أنني لا أملك وسائل دفع عشرين بالمئة أكثر من المتوقَّع. ولن أستطيع أبداً أن أشتري منك الأرض.

- تشتري الأرض مني؟

- حسناً.. ألست تنوي أن تحتفظ بها؟

- كيف سأفعل ذلك ما دامت الأرض لك؟

وسَّع اليوناني عينيه الدائريتين.

كرَّر (تيوفان) قولَه:

- نعم، هي لك. هدِيَّة مني.

ضرب (ديمتري) بقبضته الطاولة، وكان على وشك أن يُطيحَ

(319) الدراخما: هي الوحدة النقدية في اليونان قبل انضمامها إلى منطقة الـ (يورو) والاتحاد الأوروبي (المترجم).

بالمقبِّلات mezzes التي كانت عليها، وقال:

- هـذا غيـرُ وارد! لقد فقـدتَ صوابَك. فهل تعتقـد أنني، أنا (ديمتري هاتسيس Hatzís)، سوف أقبل؟

- أرجـوك. انْسَ هذا النوع من الخطـاب. أنا أملك هذا المال، ولا ينفعني في شيء.

- (تيو)!

- توقّـفْ! هل تعلَم ماذا قالت لـي (أنطونيا) ذاتَ يوم؟ قالت: فـي أغلب الأوقات، يفتقـر الرجال الكرماء إلى الأموال، وأما من يحصلـون على هذه الأموال فيفتقرون إلـى الكرم. وقد أمضيت حياتي في الأخذ. واليوم حانت ساعة العطاء[320].

دفـع اليونانـي الطاولـة، ونهـض، وهو يُشَـبِّر كامرأة شِـرِّيرة، ويتحدّث بصوت مرتفع تحت نظر أعين الزبائن المذهولة، ويقول:

- هـل تريـد نصيحـة؟ عليـك أن تذهـب لاستشـارة طبيب. بسرعة! الآن!

ووضّح قائلاً:

- أنـت لا تعـرف اليونانيين، يا عزيـزي. وأنـا يونانيٌّ أكثر من جميـع اليونانيين في الـ (أتّيْـك)[321] l'Attique. وإذا ما قبلتُ بعَرْضك فلن أسـتطيع معاشـرتَك. والأسـوأ أنني لن أتمكّن من معاشرة نفسي! Katalavénis[322] مفهوم؟

(320) هنالك حكمة فرنسية حول هذا الموضوع تقول: (يجب أن نعطي، قبل أن نأخذ) il faut donner، avant de prendre (المترجم).

(321) الأتّيـك: منطقة يونانية حول أثينا، كما أشـرنا من قبل، ويبـدو أن أهلها أكثر اليونانيين عراقة في الأصل اليوناني (المترجم).

(322) هذه الكلمة اليونانية بحروفها اللاتينية تعني الكلمة الفرنسية: مفهوم (compris) التي وردت في المتن بعدها (المترجم).

- اتَّفقنا. أعرِض عليك حلاً. سأبيعُك أرض (سيفاكيس) بالسعر الذي تفكِّر فيه.

- ماذا تفعل بالعشرين في المئة التي ستسدِّدها لـ (الباشا)؟

- هذا سهل. لسوف تجعل مني شريكاً لك.

- اتفقنا. خمسون بخمسين.

- هذا غير وارد. وغير نزيه. ثمانون بالمئة لك.

ضرب اليوناني الطاولة مرة أخرى براحة يده، وقال:

- أتريد أن تحقِّرني أيضاً؟ أوَليس لديك إذن قلب؟ لك سبعون بالمئة مقابل ثلاثين لي. وإلا سأتخلَّى عن الأمر، ويمكنك الاحتفاظ بالأرض.

تنفَّس (تيوفان) الصُّعَداء، وقال:

- اتفقنا. لي سبعون بالمئة مقابل ثلاثين لك. كما تشاء.

- لقد كنتُ دوماً أعرف أنك مجنون، أيها الـ giatros[323] (الطبيب)!

- أكثر مما تتصوَّر، يا صديقي. والآن، أدعك. فـ (أنطونيا) تنتظرني، وكذلك (أليكسيس) على وجه الخصوص. إنه يوم غطسِه.

* * *

كان المرء يرى الموجات البيضاء تجري على سطح البحر، وكان الماء يضرب الرمل بأمواجٍ مسطَّحة طويلة.

كان هنالك زوجان سِتِّينِيّان يَسْبحان غيرَ بعيدَينِ عن (أليكسيس) الذي كان يلهو مع مجموعة من الرفاق. لم

(323) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتكتب باليونانية (ςογιατρ) (المترجم).

يكن الجو بمثل هذا الصفاء، كان لون بحر (إيجة) شديد الزُّرْقة. إنه وقتٌ نادرٌ بالنسبة لما بعدَ الظُّهر، فقد كان ذا سكونٍ لا نظير له.

(وصيفُ الأنوار يستمر بلا كلَلٍ
فوق هذه البلاد البرونزية التي تنبثق منها الآلهة
ولا تزال الآلهة دوماً بلا نهاية
في تقطُّعِ الأمواج ونظرةِ العيون)

من أين جاءتْه هذه الأبيات؟ وأين قرأها؟

قالت (أنطونيا):

- (تيوفان). علينا أن نتحدَّث.

التفتَ إليها، وكانت المفاجأة بجديَّة صوتها. فمنذ وصولهما، كانت تحتفظ بهيئة حزينة، رافضة للمرة الأولى النزولَ إلى الماء.

قال (تيوفان):

- إني أسمعُكِ.

فقالت:

- انتهى كل شيء، سأتوقَّف.

- انتهى؟

- (جيهول)، ركوب الخيل، وكل هذا (السيرك).. سأتوقف. إني أضحك من ذلك. فهذه المغامرة لن تُفضِي إلى شيء.

بذل (تيوفان) جهداً للإجابة بصوت هادئ، وقال:

- هذا حقُّك. لكنني أحب أن أعرف السبب.

- لاشيء. كل شيء ولا شيء. إنني تَعِبةٌ، يا (تيو). وأشكر لك محاولتَك. أشكر لك من أعماق قلبي، ولكنني أجد هذا

العِلاج مملّاً جداً. فمن أجل تقدُّم صغير جداً، هنالك ساعات من التمرين. للوصول إلى أي شيءٍ؟ لأصبح فارسةً ماهرة؟ لن أكون كذلك أبداً..

- لم يكن هذا هو الهدفَ.

- إذًا ما هو؟ أن أهرول، أهرول، أن أمشي الهوينى، أن أكتفي بحرث كرم (ديمتري)؟ إني أتخلّى عن ذلك.

وتابعت تقريباً على حافة البكاء تقول:

- لقد حاولتَ. والله يعلَم أنك حاولتَ.

ثم كرَّرتْ مراراً قولها:

- أنا تَعِبةٌ يا (تيو).

انتظر (تيوفان) بضع دقائق قبل أن يردّ بقوله:

- اسمحي لي مع ذلك أن أقول إنه أمر مؤسِف. فليس (تيو) الذي يتكلَّم، وإنما الطبيب. وبهذه الصفة، أرى أن قطع العلاج لن يكون قراراً سليماً.

- علاج؟ أتصِف هذه الطقوس بأنها علاجٌ؟ اشرح ذلك إذًا لـ (جيهول)! وسترى ماذا يظننها.

- إنّ (جيهول)، مثل كل الخيول، لا يتعذَّب كما نتعذَّب نحن. إنه يذهب مباشرة إلى المشكلة، من غير أن يسأل نفسَه إن كان هذا يزعجنا أم لا. ذاتَ يوم، في (فرنسا)، في نادي الفروسية الذي كنتُ أتردَّد عليه، رأيتُ بنتاً صغيرة مصابة بالكُزاز[324] أمام حصان. جاء الحصان نحوَها، ووضع أنفَه على قلبها، وكان هذا

(324) لا أظن أن الكاتب قصد، هنا، مرض الـ (تيتانوس) tétanos المعروف في العربية باسم (الكُزاز)، ومن أبرز أعراضه تشنج مؤلِم في العضلات، وإنما قصد ظهور ما يشبه ذلك من شدة هلع الفتاة أمام الحصان، حتى آنسها وركنتْ إليه فزال هذا العرض (المترجم).

كافياً لتنخرِط في البكاء وتخطَّت الحاجز العاطفي الذي كان يشلّها. لقد كان ذلك إذن يتعلَّق بعلاج.

بقيت (أنطونيا) صامتة، ووجهها غامض. وعندئذٍ تابع يقول:

- أوه بالتأكيد! إن الفوائد لا تكون جلية. فالأمر ليس مثلما يتناول المرء حبة (أسبيرين) لإزالة ألم في الرأس. ولكن، صدقيني، هنالك عملٌ داخليّ يتِمّ إنجازه، في الأعماق، في أغوار الجسد. ويمكنني أن أؤكِّد لك أن التأثيرات المؤاتية تمتدّ أكثر من حبة (الأسبيرين). أرجوكِ، يا (طونيا). لا تهجريه الآن.

- لا! إنني لم أصل إليه. ولن أصل إليه أبداً. إن أحداً في مثل حالتي لن يتمكَّن منه.

- أنت تخطئين.

- أثبِتْ ذلك!

أخرج مربعاً من الورق مثنيّاً أربع ثنيات من حقيبة يده وناوله للمرأة الشابة، وقال لها:

- اقرئي!

فتردَّدتْ. فكرَّر قوله:

- اقرئي. وبعدئذٍ، تفعلين ما تشائين.

فضَّتِ الورقة. وكان الأمر يتعلَّق بمقال مقطوع من صحيفة. وقد برز العنوان بحروف سميكة سوداء:

(لِيْسْ هارتِل.. المأثُرة المستحيلة

الألعاب الأوليمبية الصيفية، (ستوكهولم)، 12 حزيران/ يونيو، 1956

- بفضل النتائج القياسية الباهرة للفارسة الدانماركية (ليس هارتِل)، فإن التجربة الفردية للتدريب عرَفَتْ لحظة من

السعادة الخالصة. وقد رفعَت الفارسة، ذاتُ الخمسة والثلاثين عاماً، يدها عالياً بالميدالية الثانية (الفضية)، مبرهنةً على سيطرة استثنائية. وما كان، في حالة السيِّدة (هارتِل)، ولنلفِت إليه النظر، يبقى إنجازاً عظيمًا.

- لنتذكَّر أن هذه الفارسة المتألِّقة قد ولدت سنة 1922، وأنها كانت في سن الثالثة والعشرين ضحية لشلل الأطفال، الذي تركها مشلولة الطرفين السفليين. وبمساعدة مدلِّكتِها الطبية، (إيليزابيت بوديكِر) Elisabeth Bodiker، وبعد ثلاث سنوات من إعادة التأهيل المركز على الحصان، توصلت إلى أن تستردَّ تدريجياً الاستعمال الجزئي لعضلاتها، مع أنها بقيت مشلولةً ما تحت الركبتين.

- وعلى الرغم من أنها كانت دوماً في حاجةٍ إلى مساعدةٍ على ركوب الحصان والنزول عنه، فقد كانت في عِداد الفارسات الأوليات اللواتي سَعَيْنَ للمشاركة في الألعاب الأوليمبية في (هلسنكي) سنة 1952، حيث حصلت على ميدالية فضية للـ (دانمارك). واليوم، في (ستوكهولم)، وأمام جمهور مبهور، كرَّرتْ مأثرتَها.

- ولا يسعنا إلا أن نحيِّيَ هنا قوةَ إرادة امرأةٍ سمحت شجاعتُها وتصميمُها، في تاريخها، بإحداث تفكيرٍ عميقٍ في فائدة الحصان للعناية الجسدية، وبفتح الطريق لتطبيقات علاجية جديدة، والعلاج بركوب الخيل واحد منها)[325].

(325) في سنة 1965، صُنِّفَتْ (ليس هارتِل)، في (الدانمارك)، بين أفضل عشرة رياضيين في كل الأزمنة. ومنذ سنة 1922، سُجِّل اسمُها في (بانثيون) panthéon الشخصيات الإسكندنافية الأكثر شهرة. وقد توفِّيتْ في 12 شباط/فبراير من سنة 2009 (المؤلِّف).

- منذ متى وأنتَ على علم بذلك؟

- بعد وقتٍ قليل من اللقاء بك. وقد وقعتُ بالمصادفة على الخبر في صحيفة يومية فرنسية كانت تحصي أكبر المآثر الرياضية النسائية. وفي البداية، لم أُجْرِ مطلقاً مقارنة مع حالتِك المرضية. ولم افكِّر في الأمر إلا في وقتٍ متأخِّر. هل تعرفين الدكتور (باباداكيس)؟

أجابت برأسها: لا.

- لسوف أقدِّمه إليك. إنه رجل عظيم. ومنذ بضعة أسابيع، حدَّثتُه عنكِ وعن (هارتِل). وكنتُ أريد رأيَه. فإن كان هذا العلاج أظهر فاعليته في حالة هذه الفارسة، فلِمَ لا يكون له تأثير فيك؟ وقد أيَّدني. ويجب أن تعلَمي أن (باباداكيس) هو نسيج وحده. وطبيب غيره ربما كان سيهزأ بي.

وخلص إلى القول:

- ها قد عرفتِ كلَّ شيء.

أعادت الفتاة الشابة المقال إليه، قائلة:

- عليَّ أن أفكِّر. و..

ودوّت صرخة، صرخة حادَّة، تلتْها صرخاتُ صدَىً لها، فقطعت (أنطونيا) جملتَها. ووثب (تيوفان) وتركَّزت نظرتُه على الزوجين الستينيين. وظن أن «أحدهما قد أصيب بوعكة». ولكن بسرعة فائقة، أدرك أن الأمر لا يتعلَّق بالزوجين.

كان هنالك رجلٌ يسحب جسداً نحو الشاطئ.

إنه جسد (أليكسيس).

(22)

كان الصبيُّ يَلهَث إلى حدّ الاختناق. وكانت رئتاه ترتفعان بغير انتظام، بحثاً عن نَفْثةٍ مستبعَدة. وكانت حَدَقتاه منقبضتين، وعيناه المذعورتان تدوران في حَجَرَيْهما باختلاج. وكانت شفتاه، وكذلك أطرافُ قدميه ويديه، بلون أزرق ضاربٍ إلى البنفسَجِيّ.

شرَع الرجل الذي أخرجه للتو من الماء في شرحٍ محمومٍ، قائلاً:

- لقد كان يغرَق. وعندئذٍ..

لم يكن (تيوفان) يُصغي له.

كان يفحَص، وهو جاثٍ على ركبتَيهِ، نبضَه. فوجده متسارعاً، وغير منتظم بالمرة.

كان (ميخاليس)، صديق (أليكسيس)، قد لجأ إلى حضن أمه وانخرط في بكاء حارّ.

اقترح أحدُهم قائلاً:

- يجب استدعاء طبيب.

قال (تيوفان):

- أنا طبيب.

وصفَع خدَّ (أليكسيس) صفعة خفيفة، وقال:

- هل أنت بخير، أيها الصغير؟

فخرجت كلمة (نعم) ضعيفة من بين شفتيه. فقال له (تيوفان):

- لقد ظللتَ ترغب في المراهنة على (مايول)، على ما أظن.

قال الصبي وهو يلهث:

- لقد حطَّمتُ الرقم القياسي بدقيقتين وثلاث ثوانٍ.

- نعم. مع نتيجة مؤسفة. تنفَّسْ بهدوء. واستَرخِ.

وأمر الطبيبُ حلقة الفضوليين أن يبتعدوا، وأخذ (اليكسيس) بين ذراعيه وأوصله إلى (انطونيا). وبادر إلى طمأنتِها قائلاً:

- اهدَئي، كلُّ شيء على ما يُرام. إنه بلا شك مرهَق قليلاً.

ومدَّد الصبيَّ على إحدى الحشايا، وجسَّ نبضَه، ولاحظ أن مضاعفة الخفقة الثانية التي اكتشفها عند طرف الشاطئ قد زالت. وسأل الصبيَّ:

- تشعر بتحسُّن؟

- بُفْ.. ليس الأمر مخيفاً.

- هل رأيتَ ما الذي يحدُث عندما تَدفَع الآلة أبعد من اللازم؟

دوَّت صَفَّارة مركب. لقد دخلت سفينةُ الـ (بلو ستار) المرسَى.

فكَّر الطبيب بضع لحظات. ورأى أن الازرِقاقَ المشاهد لا يمكن إهمالُه. فهل يكون تقطُّعاً في تدفق الدم بالقلب؟

وأعلن وهو ينهض قوله:

- لسوف آخذه إلى المستوصَف.

قالت (أنطونيا) بذعر:

- لماذا؟ الوضع خطير إذًا؟

- للاطمئنان. أودّ أن أجري فحوصاً إضافية. بقصد الاطمئنان.

- سأرافقك.

أراد أن يرفض، ولكنها قاطعتْه فجأة بقولها:

- لا تحاولْ!

* * *

لم يكن (تيوفان) في حاجة إلى أن يفحص مرتين نتائج تخطيط القلب: فهنالك انحرافٌ في محْوَر الـ (QRS)[326] نحو اليمين، وكتلة في الفرع الأيمن، وتضخُّمٌ بُطَيْنِيّ أيمن.

على أي لعبة (سادِيَّة)[327] sadique ينصرف الأمر؟

سحب (تيوفان) الأقطاب الكهربائية الموضوعة على صدر (أليكسيس) واحدة واحدة، وأمر الصبيَّ بأن يرتدي ثيابه.

- سيكون الأمر بخير. أنت قوي. انتظرنا في الخارج. لن نتأخَّر عليك.

سألت (أنطونيا) إثر خروج الطفل:

- ما التشخيص؟

- أفضِّل ألا أتكلَّم. فقد طلبتُ صورةً شُعاعية للرئتين. وسأهتمّ أنا نفسي بصورة الرنين المغناطيسي للقلب.

- ومع ذلك لديك فكرة، يا (تيو). فأرجوك لا تحاول أن تراعيني.

(326) مركَّب الـ (QRS) هو اسم المقطع المكوَّن من ثلاث موجات في رسم تخطيط القلب، يطلق حرف (Q) على الموجة الأولى السفلية، والحرف (R) على الموجة الوسطى الصاعدة، والحرف(S) على الموجة السفلية التالية (المترجم).

(327) السادية نسبة إلى النزعة السادية (sadisme) التي تعني التلذُّذ بتعذيب الآخرين والاستمتاع برؤية آلامهم، وهي نسبة إلى الكاتب الفرنسي (مركيز دو ساد) Marquis de Sade (1740 - 1814) الذي عاشٍ حياةً فاضحة قادته إلى السجن، وقد ترك مجموعة كتب تمتلئ بذكر ممارسة الجنس العنيف والتلذذ به، ولذا نُسِبتْ إليه هذه النزعة (المترجم).

مشى (تيوفان) نحو النافذة، وترك نظرته تنطلِق نحو الأفق.

- (تيو)؟

أعلن من غير أن يلتفت قائلاً:

- إنها حالة اتِّصالٌ أُذَيْنيّ (CIA)[328] .

- وماذا يعني هذا بالنسبة لعموم الناس؟

عاد نحو الفتاة الشابة، وقال:

- لدينا في القلب أُذَيْنان. وهما منفصلان بحاجز. وفي حالة التشوُّه الخَلْقيّ، يكون هذا الحاجز مثقوباً، والدم الغني بالأوكسيجين يتسرَّب من الجهة اليسرى للقلب نحو اليمنى، ويذهب نحو الرئتين.

- والنتائج؟

- حملٌ زائد كبير على عمل الجانب الأيمن من القلب، نظراً لأنه يتضايق من إدارة كمية أكبر من الدم. ومن هنا يأتي لُهاثُ (أليكسيس) خلال جلسات الغطس.

- إذًا قلبه في حالة سيِّئة.

- ليس في حالة سيِّئة. لا. ولكنه يتعب عند بذل جهد أكثر مما ينبغي. وأبادر بأن أقول لك، لا لطمأنتك، إن الأمر لا يتعلَّق بمرض خطير وإن التقدير الأولي غير مُلْزِم. حتى إنني أضيف أن الأمر إن كان يتعلَّق بالـ (اتِّصال الأُذَيْنيّ) (CIA)، فسيكون (أليكسيس) محظوظاً جداً. فنادراً ما يُكتَشَف هذا التشوُّه عند طفل. ويمكن أن يعيش (أليكسيس) هكذا حتى سن الأربعين، إلى أن تظهر الاختلاطات الأولى: اضطرابات في دقات القلب، وضعف فيه..

(328) CIA: اختصار للكلمات (Communication Inter Auriculaire) (المترجم).

فحصت (أنطونيا) بفضول وجهَ الطبيب، وقالت:

- قلْ لي، يا (تيو). ألم يكن الرجل الشاب، الذي أجريتَ له العملية، قبل ثلاث سنوات، يعاني أيضاً المشكلة نفسها؟

فقال:

- الحالة نفسها، بفارق ثلاث سنوات؟ أليس ذلك غريباً؟

وتهرَّب من السؤال قائلاً:

- هيا نلحق بـ (أليكسيس).

وعندما مدَّ (تيوفان) يده لمساعدتها على النهوض، اكتشفت فيها اضطراباً خفيفاً.

* * *

صورة الصدر الشعاعية أظهرتْ ظلَّ القلب موسعاً، قياساً على توسُّع الأُذَين الأيمن والبُطَين الأيمن، وأظهرت توسُّعاً في الشرايين الرئوية وتمدُّداً رئوياً.

وبخصوص صورة الرنين المغناطيسي للقلب، فقد أكَّدتْ توسُّعَ التجويف الأيمن، وسمحت برؤية الفتحة في وسط الحاجز بوضوح، وهو الذي يفصل عادة بين الأُذَيْنين. لقد بانت الفتحة أوسعَ بكثير مما كان (تيوفان) يتصوَّر. ولم تترك اللوحة أي شك في ضرورة إجراء تصحيح جِراحِيّ.

أشعل سيكارةً، ونفَثَ الدخان في اتِّجاه الباب الذي كانت (أنطونيا) وأخوها ينتظران خلفَه.

إن توتُّر الساعات الأخيرة كان قد غيَّر ملامحَه، وكان يشعر أن التعب قد أنهكَه.

(لينكولن) سنة 1846، (كينيدي) سنة 1946. خنفساء (يونغ). (مورغان روبرتسون) وروايته (إس.إس. تيتان). واليوم 3

حزيران/يونيو سنة 1986: و(أليكسيس). يأتي بعد ثلاث سنوات يوماً بيوم بعد مأساة 3 حزيران/يونيو سنة 1983.

هل هي مصادفات؟

إن ربات الانتقام، لا يعرفن سوى قانونِهن الخاص، ويعاقبن مَنْ يخرِقه.

إن هذه الشرور كانت تلاحقه على الأثَر بوضوح. وإذا ما كان (تيوفان)، في لحظة سذاجة، يتصوَّر أن بالإمكان أن يتخلَّص منها، فإنها تأتي لتنبِّهه على ذكراه. وبأي طريقة!

إن ظهرك، يا أبتي، هذه المرة، إلى الحائط. No way out[329]. كما يقول الإنكليز.

وهذا بالتأكيد ما كان (تيمور) قد ردَّده، وهو مبتهج.

خرج (تيوفان) من الغرفة، ولقي (أنطونيا) في خارج المستوصف، وهي تثرثر مع أخيها. فأعلن بصوت هادئ:

- لقد تأكَّد الأمر. إنه يتعلَّق بـ (CIA).

ثم نفَشَ شعرَ (أليكسيس)، وقال:

- حسناً، يا سيِّد (مايول)! لسوف يترتب علينا أن نصلح قلبك الصغير. فاطْمئنَّ، إنها مداخلة بسيطة تماماً.

وكان السؤال الأول للصبي:

- هل ستُحْدث ألماً؟

- لا. إن بطلاً مثلَك لا يمكن أن يتألَّم. ولن يكون شيء من هذا. صدِّقْني.

- وبعدئذٍ؟ هل سيكون بإمكاني أن أستمرّ في الغطس؟

(329) هذا التعبير الإنكليزي يعني: (لا مهربَ) أو (لا سبيل إلى التهرب)، ويريد به أن على أبيه هذه المرة أن يواجه الأمر (المترجم).

- طبعاً، وأحسن! هذه هي المشكلة التي كانت تكبَحُك حتى الآن وتسبِّب لك اللُهاثَ. وعندما تُشْفَى، ستحقِّق نتائج أكبر. أعِدُك.

أضاءَت ابتسامة عريضة وجه (أليكسيس)، وقال:

- رائع!

وأشْهَد (أنطونيا) على ذلك، قائلاً:

- سمعتِ؟ هذا ممتاز، أليس كذلك؟

وافقت بهدوء، ولكن المرء كان يشعر أنها في مكان آخر.

قالت له:

- حان وقت العودة إلى النُزُل. فأُمُّنا تكون الآن قلِقة[330].

ثم ركبوا في سيارة الـ (فيات).

كان الأصيل يمتدّ على كل القسم الشرقي من البحر، مخيماً على جزيرتي (ليبسي) و(ماراثي) الصغيرتين، وأما من الجهة المقابلة، فقد كان بحر (إيجة) يدفع أمواجاً من نار، وكانت السماء تمتلئ بسحب ذهبية[331].

* * *

سكبَتْ (بيبا) قليلاً من الـ (أُوزو) وشربتْه جُرعةَ واحدة، وقالت:

- لا شيء مثل هذا لغسل الهموم!

فقال (الباشا):

(330) للتعبير عن القلق على غائب يستعمل الفرنسيون كناية غريبة هي (سيصير الدم حبراً) (se faire le sang d'encre) كما ورد هنا في الأصل الفرنسي مكان عبارتنا التي أثبتناها في المتن، وفي الكنايات العامية في بعض اللهجات العربية يقال: (دمه احترق) أو (دمه غِلِيّ) أي يَغْلي، إلخ (المترجم).

(331) الأمواج من انعكاس أشعة شمس الغروب وحركة تلك الأمواج، والسحب من تخلُّل تلك الأشعة فيها (المترجم).

- Kouklamou[332]، يـا دميتـي، إننـي لا أرى لماذا تضعين نفسَـكِ فـي هـذه الحالة. صديقنـا آتِ، ومرة أخرى، أكـرِّر لك أن العملية لا تشكِّل أي خطر. إنها بسيطة، إنها..

- إنني لسـتُ غبية ولا غيرَ مكترثَـة، يا (آخيل)! ولقد فهمتُ كل شـروح (تيوفـان). أنـت فقـط لا تَلُمْني إن لـم أتوقَّف إلا عند شـيء وحيد: هنالك شـخص لا أعرفه سـوف يفتح صدر طفلي ويجعـل قلبه الصغير عارياً. إن قلبه سـوف يتوقَّف عن الخفقان خلال عدة سـاعات. وسـيكون (أليكسـيس)، خلال عدة سـاعات، مثـل ميِّـت. ربما كان هذا الأمر تافهاً عند كل الناس، ولكنه ليس كذلك عند الأم.

تناولت (أنطونيا) يد (بيبا) وضغطت عليها بقوة، وقالت:

- بعد هذه المداخلة فقط سيستردّ (أليكسيس) عافيته. ولن يكون هذا الحدَث سـوى ذكرى سـيِّئة. والشـكرُ للـه (ونظرتْ إلى الطبيـب) أنـه وضع (تيو) في طريقنا. وكان يمكن لولاه أن يموت (أليكسيس).

قال (تيوفان):

- إنه لن يموت من (الاتصال الأذيني). في الواقع، ومن حيث الجوهـر، إن الاختلاطـات الملازمـة لهـذا المرض هـي التي تطرح مشـكلة. ومهما يكن، أريد أيضـاً أن أطمئنَك. لقد أجريتُ مكالمة هاتفيـة مـع الدكتـور (باباداكيـس) عندما كنتُ في المسـتوصَف، وعرَضـتُ عليـه الحالة. وهو يعرف أناسـاً كثيرين. وسـيجد لك جرّاحَ قلبٍ ممتازاً.

(332) سبق لنا التعليق على هذه الكلمة، وهي يونانية بحروف لاتينية، بمعنى (لعبتي) أو (دميتي) التي تلتها تماماً في الأصل الفرنسي، وهي بالحروف اليونانية (κούκλαμου) (المترجم).

تجرَّأت (بيبا) على السؤال باستحياء:

- وهـل تعتقد أن مثله يوجد فـي اليونان؟ أليس الأفضل أن نأخذ (أليكسيس) إلى (فرنسا) أو (إنكلترا)؟

ثار (الباشا) وقال:

- قولـي أيضـاً إننا بَدْوٌ[333]! أيُّ شـتيمةٍ هذه! بالتأكيد يوجد في هذه البلاد جرّاحون لامعون.

قال (تيوفان):

- (الباشـا) يقول الحق. وإن مداخلة كهذه لا يمكن أن تُجرَى هنـا، في (باتموس). فهي تحتاج إلى تجهيزات ضخمة لا يملكها المستوصَف.

ثم ألقى نظرة إلى ساعته، وقال:

- أعتقد أننا قد اسـتعرضنا المسألة. ولسوف أذهب إلى النوم وأنصحكم جميعاً أن تفعلوا ذلك أيضاً. وغداً نتدبَّر الأمر.

أوقفتْه (أنطونيا) قائلة:

- امنحني بضع دقائق أخرى.

وتوكّأتْ على عُكّازَيها، قائلة:

- لنذهب إلى الشرفة، موافق؟

فوافق.

كان الليل ندِيّاً، وعَبِقاً بروائح (الزعتر) و(الغار).

جلسـت (أنطونيـا) على مقعد، وأسـندت عكّازَيها إلى الجدار

(333) واضح من عبارة (الباشـا) هذه أنه يسـتخف بالبدو الذين يغلب على الذهن أن المقصود بهـم هنا هم بدو مصر التي عاش فيها معظم حياتـه، وعلقت صورتهم في ذهنه، وهو يجهل أن لهم طِبَّهم الخاص بهم، كما أن العيش في الصحراء ينقي أجسادهم من علل كثيرة، فتكون أصح من أجساد أهل الريف، وأهل الريف أجسادهم أصح من أهل المدن، نظراً لعوامل الشمس والهواء النقي والغذاء النظيف من التلوث على الأقل (المترجم).

الصغير الذي كان يحيط بالشرفة. قالت:

- لماذا البحث عن جرَّاحٍ، بينما لدينا واحدٌ، هنا، أمامَنا؟ وهو الأبرع.

- لأنه يجب البحث عن جرّاح.

- يمكنك أن تجري العملية لـ (أليكسيس). أنت تعرفها، أليس كذلك؟ وأنت تستطيعها.

- ولكنني لن أفعل ذلك.

قالت متردِّدةً:

- بسبب.. المداخلة الأخيرة سيِّئة النتيجة؟

- هذا من بين أسباب أخرى. عليَّ أن أعود إلى البيت. فأنا مرهَق.

- لا، يا (تيو)! انتظر! لا تتركني على حافَّة الفراغ.

- عن أي فراغ تتكلَّمين؟ من غير المجدي أن تُلِحِّي. لن أُجرِيَ العملية لـ (أليكسيس).

- لم تكن عمليتُك (المخفِقة) جريمة! لقد كانت سوء حظٍّ، وخطأً! أتوسَّل إليك أن تجريَها. اقلِبِ الصفحة. عليك أن تنهي بها أحوالَك النفسية. وأنتَ مَدِينٌ لنا بذلك.

تغيَّر وجه (تيوفان) بشدة. ومن نحو آخر، لم يكن هذا وجهَه مطلَقاً. إنه لم يكن (تيوفان دِبّانه).

تقدَّم خطوةً نحو الفتاة الشابة، وأمسكها من كتفيها، وقال:

- اسمعيني جيداً، يا (أنطونيا). أنا لا أدِين بشيء. لا لكِ ولا لأحدٍ. وإنما يتعلَّق الأمر بي. وبحياتي. وما دام لن يكون هناك نعش بمكانين، فسأبقى أنا معنياً بما تسمِّينه (أحوالي النفسية).

- لا! لا يمكنك الاستمرار في الهروب من الواقع. ماذا ترجو؟ عِقاباً؟

ضحك باستهزاء، وقال:

- فلْتأخذني رياتُ الانتقام.

- وأنت الذي يعطيني دروساً في الشجاعة؟ أنت، يا (تيو)؟ (مدام هارتِل) ومآثرها! كلام فارغ! أين الرجل الذي كان يحثُّني على تجاوز الذات؟ وكيف تريدني أن أستمر في تصديقِك إذا كنتَ أنت نفسُك لا تشبه هذا الذي تدعو إليه؟

فشدَّد قائلاً:

- أنا من أنا.

- وهذا الذي هو أنت له اسم واحد.

همَّ بخطوة نحو المنزل. فتابعت:

- الجبْنِ..

فدار إلى الوراء، وقال:

- الجبْن؟

في زاوية من الشرفة (عند (أنطونيا))، كان (تيوفان) غارقاً في العتمة، فرأى خيال (تيمور) الأثيري يتقدم، وقال لنفسه: أينما كنا، يوجد سُلَّم غيرُ مرئيٍّ، وعلى الأقل قد يكون نافذةً مفتوحة في الليل.

قال (تيمور):

- توقَّفْ، يا أبتي.

كان الفتى المراهق يرفع يده على سبيل التوسُّل.

واستأنف قولَه بصوتٍ أجشَّ:

- لا يمكنك أن تستمر هكذا. فكِّرْ فيَّ. إنني تَعِبٌ جداً،

يا أبتي. حرِّرْني. أتوسَّل إليك. حرِّرْني منك.

فقال (تيو) متلعثمًا:

- أنا أحبك يا بني.

- إذًا، تحرَّكْ! تصرَّفْ! تخلَّصْ!

وذاب بلمحة واحدة كلُّ ما كان قد بنى عليه مقاومتَه. وهجم عليه الواقع، مثل طوفان البَرَد الذي يدمِّر الزُّروع والأزهار. إن الظلمات التي لا تُخْتَرَق، والتي سترتْ عنه كلَّ السبل، قد أعمتْه، وابتلعتْ منذ ثلاث سنواتٍ وبلا رحمة كلَّ صرخات الضيق التي أطلقها، تبدَّدت الظلمات. وعندئذٍ أعلن بصوتٍ هادئ وبشكل مدهش، وهو يمد يده نحو الفراغ، قولَه:

- إنه هنالك. إنه هنالك، مريضي.

وجَّهتْ (أنطونيا) نظرها، وهي مرتبكة، إلى الاتجاه نفسِه الذي يشير إليه، ولكنها لم تجد سوى الليل المرصع بالنجوم وفوانيسِ الصيادين التي كانت تتراقص على سطح البحر.

وقال مرة أخرى:

- إنه هنالك، مريضي.

فصاحت:

- توقَّفْ! عمَّن تتحدَّث؟

- (تيمور). (تيمور)، ابني. قُتِلَ بيدَيَّ، في 3 حزيران/يونيو سنة 1983.

(23)

وعندما استيقظت، كانت لا تزال بجانبه. كانا قد ناما، مندمجين، وكأن حياتهما تتعلَّق بهذه المعانقة.

وكان (تيوفان) لا يزال نائماً.

انفصلت عنه بهدوء ولاحظته.

لاشيء من الطمأنينة على وجه الطبيب. فهو يحافظ على شفتين متراصَّتين، والجبينُ متغضِّنٌ. لقد كان يغط في النوم، ولكن من غير سَكِيْنة.

(تيمور). (تيمور)، ابني. قُتِلَ بيدَيَّ، في 3 حزيران/يونيو سنة 1983.

عندما أعلن هذا الاعتراف، اعتقدتْ على الفور أن خِنْجراً انغرس في قلبها. فكيف يمكنها أن تتصوَّر مثل هذه المأساة؟ وكيف كان بإمكان رجل أن يعيش طيلة ثلاث سنوات مع هذه الذكرى؟ وهو مسكون بشبحٍ. فليس في المنطق أن الأطفال يسبقون آباءَهم إلى الموت. ويبقى هذا الموت أسوأ من كل الجِراح التي تفرضها الحياة، وأقساها، وأكثرها ترويعاً. طفلٌ يمضي، يودِي به المرض، وها هي من قبلُ تجرِبةٌ لعينة. ولكن عندما يكون الأب - الأم مسؤولاً عن الوفاة، فإن المسألة لا تتعلَّق بتجرِبة،

وإنما بلعنةٍ.. لعنةٍ أبدية.

ومن الآن، وفي نظر (أنطونيا)، هنالك نتيجةٌ فرضَتْ نفسها: تسجيل الكلمة الفَصْل، ووضع حد لنفخة البوق البشعة التي أطلقتها شِرِّيراتُ رباتِ الانتقام. كان (تيوفان) قد مات في الوقت الذي مات فيه (تيمور). وكان على (تيوفان)، الآن، أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام. حُرّاً. متحرراً من الأغلال.

فتح الطبيبُ عينيه، وجفناه يخفقان. كانت كلماتُه الأولى قولَه:

- (باباداكيس). يجب أن أدعُوَه.

ووثب خارج السرير وانطلق نحو الهاتف.

ومن الحديث المتبادل بين الطبيبين، لم تسمع (أنطونيا) سوى نُتَفٍ.

أعلن (تيوفان)، عندما عاد إلى غرفة النوم، قولَه:

- هذا حسَنٌ. عثر (باباداكيس) على جرَّاح. ويبدو، حسب أقاويل الجميع، أنه ممتاز. حظٌّ لا يمكن التقليل من شأنه: لقد مارس أكثر من مرَّة هذا النوع من المداخلات.

أومأت الفتاة الشابة برأسِها، وهي صامتة.

أضاف (تيوفان) قولَه:

- سأصنع قهوة.

على (تيوفان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام.

كيف أقنعها بذلك؟ أين يجد الكلمات؟

ألقت نظرة احتقارٍ باتِّجاه عكّازتَيها، وتملَّكتْها رغبة مفاجئة في أن تلقي بهما إلى الطرف الآخَر من الغرفة. وكانت تشعر أنها مجرَّدة تماماً من السلاح، وعاجزة، وغير نافعة بالمرّة.

عاد (تيوفان) ومعه صينية صغيرة وضعها على فخذي الفتاة الشـابة: قهوة، وبضع بسكويتات باللوز، والـ koulourakia[334]، التي كانت مولعةً بها.

قالت:

- هذا لطف منك. إنك تحتفظ بها دوماً، فيما أرى.

- دوماً.

وقالت بصوت خفيض:

- أنت لم تحقد عليَّ بالأمس؟ بسبب تلك الكلمة؟

- كلمة (الجبْن)؟ لا. لقد ارتحتُ. كان عليَّ أن أفتح الخرّاج.

- لم أكن أتصور ذلك. لقد كنتُ بعيدة جداً عن الحقيقة.

- لن نتحدَّث عن ذلك أكثر. لِنقلِبِ الصفحةَ.

شرِبَتْ رشفة من القهوة، وقالت:

- لقـد قُلِبَت الصفحة. ولكن الكتاب مـا يزال موجودًا. وأنت تدركه، أليس كذلك؟

يبدو أنه لم يلتقِط الإشارة، وتابعت قولها:

- ما ينقص هو الكلمة الفَصْل، يا (تيو). وما دمتَ لن تكتبَها، فسوف يلاحقنا التاريخ.

اجتاح بريقٌ مُكَدَّر عيني الطبيب، وقال:

- إنـي أرى إلـى أين تريديـن الوصول من ذلك، يـا (طونيا). لا أستطيع. إن ذلك فوق قدراتي. إن ما تطلبين مني فوق طاقتي.

لم تعلق. وقالت ببساطة:

- (لِيْس هارتِل).

(334) كلمة يونانية بالحروف اللاتينية، وتدلّ على نوع من المعمول يشبه (الغريبة) تقريباً عندنا (المترجم).

- أنا لستُ (لِيْس هارتِل).

- أنت (تيوفان دِبّانِه). رجل شهم.

- لقد كنت كذلك. ولست الآن بشيء.

- لا، لا يصبح المرء «لا شيء»، بين عشيّةٍ وضحاها. ولا تتحوَّل موهبةٌ من الله دخاناً. إنها تبقى فيك. انظر. انظر يدَيْك. إن ساقيّ مبتورتان. ولا تزال يداك حيتين.

تشدَّد صوتُ (أنطونيا)، وهي تقول:

- ماذا ستفعل إذا ما وقعتُ غداً، أو يوماً ما، عن الحصان؟ قُلْ لي. وما الشيء الأول الذي تنصحني به؟

- العودة إلى الركوب فورًا.

- بالتأكيد. من أجل نسيان الحادث وعدم الاستمرار على الفشل.

- إن موت ابني لم يكن «حادثاً».

- أنت لن تعرِف قَدْر إجابتي: لقد كان حادثاً.

- (طونيا)!

زَمَّتْ (أنطونيا) شفتيها.

وعبرَ النوافذ المفتوحة، كانت سماءٌ ذات زُرْقَةٍ رائعة تتدفَّق داخل الغرفة.

قالتْ:

- أمسِ، على شاطئ (سابسيلا)، قلتَ لي: «أرجوك، يا (طونيا). لا تغادري. ليس الآن». والآن، أنا أطلب إليك اليوم الشيءَ نفسَه: لا تغادِرْ.

- يا إلهي! ولكن لماذا؟ لماذا هذا الإلحاح؟

- حتى لا تفقدني.

نظر إليها بدهشة، وقال:

- هل ستتركينني؟

- أبداً.

- إذًا؟

- إذًا، إذا واصلتَ التهرُّبَ، فلن نكون متساويين. فعندما أعود لأركب (جيهول) - ولسوف أعود إلى ركوبه - فإن الخوف والشكّ سوف يظهران في اللحظات الأولى، نظراً لأنك ستُعْدِيني بهما.

اضطرب (تيوفان)، وقال:

- أحتاج إلى التنفُّس.

* * *

خرج (تيوفان) من البيت وجلس على طرف الطريق. فرأى، في الطرف الأقصى، ساعي البريد (ستافروس)، الذي كان ينطلق، راكباً على دراجته.

تملَّكتْ (تيوفان) رغبةٌ لا تُقهَر في أن يسأله إن كان لديه بريد له، كما كان يسأل آلياً في الزمن الذي كان يفعل فيه ذلك، في حين هو يتهكَّم بأنْ لا بأس من معرفته أن ذلك سيكون أمراً جميلاً أم لا، يعني أن ينتظر رسائل من شخص، نظراً لأن أحداً ليس لديه أدنى فكرةٍ عن المكان الذي يعيش فيه.

- هذه المرة، يا أبتي، أعتقد أن ظهرك إلى الحائط.

لم يسمع (تيمور) يأتي.

- نعم، يا عجوزي، أنا مدركٌ لذلك.

- يجب أن أذكُر أن (أنطونيا) ماكرة بطريقة غير مألوفة. وهذا مدهش. إن المرء يتعلَّم كلَّ يوم. والآن؟ إن ما تطلبه مني فوق طاقة البشر.

- لقــد قالت: «على (تيوفــان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام».

تفرَّس (تيوفان) في وجه ابنه بذهول، وقال:

- من أين جئتَ بهذا؟ إنها لم تقل مثل هذه الكلمات أبداً.

- لا، ولكنَّهــا فكَّــرتْ فيهــا. وأنت تعلَم تماماً أنني من ســجني أســمع كل شــيء، وأن شيئاً لا يفوتني. على (تيوفان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام. هذه هي كلماتها.

وضع الطبيب وجهه بين يديه، وقال:

- لقد ضعتُ، يا (تيمور)، فساعدني.

- ما دمتَ قد أذِنْتَ لي، فإني أقترح عليك ما يلي: تخلَّصْ من ذكرياتك، فإن الذكريات ساعات جدارية متوقِّفة. وقد حان الوقت لتُقَدِّم لك ساعةٌ حقيقية. ساعة تعمل. في اليوم الذي تركتَ فيه الدكتور (باباداكيس)، ألقى إليك بملاحظة. هل تذكرها؟

أشار (تيوفان) بـ (لا).

- لقــد بيَّن لــك قائلاً: «اقرأ هذه الجمل في كل مســاء. ولكن لا شــيء يضطــرُّك إلــى ذلــك». وقــد دسسْــت الورقة فــي الجيب الداخلي لسترتك الكَتَّانية.

- أنا لا أذْكُر ذلك.

- ومع ذلك..

- ماذا تقول هذه الورقة؟

- أنــت وحــدك الــذي ينبغــي أن تذهــب لاســتردادِها. وهــي موجودة دوماً في المكان نفسِه.

- قُلْ لي..!

كان (تيمور) قد اختفى.

(24)

إنه لم يكن يَعْرَق.

وهـو لا يتذكّـر أنه عرِق قطّ، لا بسـبب الجهـد الفيزيائي، ولا تحت تأثير القلق.

ولم يكن قد عرِق قطّ.

واليـوم أيضـاً، لـم تترقـرَقْ قطرةٌ واحـدة من العـرق على جبينِه.

وبمهارةٍ مُطْلقةٍ، كانـت أصابعُه قد أنجزت الإجراءات التي كانت تتيح لقلب (أليكسـيس) الصغير، منذ توقُّفِه، أن يخفُق ثانية.

وخلفَـه، كان (تيوفان) يشـعر بالمِضخَّة النابـذة التي كانت تدفع في الجسم حجم دمه بدلاً من عمل القلب الخامد.

اتجهـتْ نظـرة (تيوفـان) للحظـة قصيـرة نحـو وجـه (أليكسيس)، مدركاً مع ذلك أنه لن يراه، لأنه مستتر بقنطرة صغيرة يقف خلفَها خبير التخدير.

لقد فكّر في هذا الجسد الرقيق الذي كان يَسْرَح في مكان آخر، حيّاً، ولكنه افتراضياً محروم من الحياة، إن هذا معجِزةُ الطب والتقنية التي تجَمِّد كائناً على حدود العدَم.

مـدَّ (تيوفان) راحـةَ يده نحو مناوِلـة الأدوات التي وضعت فيها حامل الإبرة.

لقـد تـم الاقـتـراب مـــن المرحلـة النهائية. وتحـت النور الأبيـض للمصبـاح المانع للظـــل، ثقب (تيوفـان) الأبهر من أجـل إفـراغ بقـايـا الهـواء التـي كان يحتوي عليهـا، وراقب الموجـات الأولـى مـن الدم التـي كانـت تتصبّب فـي تجاويف القلـب. وعندمـا امتـلأ القلـب تماماً، أعطـى إشـارة للجرَّاح الثاني.

وبصدمـة كهربائيـة صغـيـرة شـرَع القلـب فـي الخفقان إزاء الملقَط. باسـتحياء أولاً، وبنـوع من التعتعة العضلية، ثم بانتظـام. الأمـر عادي. لم تكـن فتـحة التطهير قـد خِيْطَتْ بعدُ.

وبعـدَ نحو ثلاثين ثانية، وقد تأكَّـد (تيوفان) أن القلب قد استأنف الخفقانَ الذاتي، أمر مناوِلة الأدوات قائلاً:

- الخيط 0/4

وكانت قد استبقَتْ طلبَه.

كان القفص الصدري مقسوماً نصفين، وقد ألقى (تيوفان) نظرة كاملة على مجال العملية، ثم قال:

- نجحنا!

لم تكن هنالك نبرة انتصار. وإنما فقط صيحة ارتياح.

اقترح مساعده قوله:

- هل تريد أن أغلق؟

- لا. أنا الذي سيقوم بذلك.

ولما كان يشعر أنه دوماً أيضاً سيدُ نفسِه، فقد نفَّذ المرحلة النهائية وقرَّر وهو يجمع قسمي القفص الصدري أنه سيثبِّتُهما بخيطٍ فولاذيّ.

كان الفريق الجراحي، حول (تيوفان)، يحافظ على صمتٍ شبهِ ديني.

وعندما نزَع، أخيراً، قِناعه، سمع صوتاً يتمتم بالقول:

- بطل!

بحث بنظره عن الذي أو التي عبَّرتْ عما في نفسها، فاكتشف (تيمور) واقفاً، وهو متكتِّفٌ، في زاوية من غرفة العمليات.

كرَّر الفتى المراهق قوله:

- أنت بطل، يا أبتي!

فذهب (تيو) نحوه، وقال:

- شكراً. كانت عملية جميلة، كما أعتقد.

- في منتهى الإتقان! سيتمكَّن (أليكسيس) أن يحطِّم كل الأرقام القياسية التي يتمناها.

كان الأب والابن ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر بصمت، ثم قال (تيوفان):

- سيغادر أحدنا الآخر هنا، على ما أظن؟

- نعم.

- ولكننا، سنلتقي، يوماً ما، وفي مكان آخر، أليس كذلك؟

- يوماً ما، وفي مكان آخر. بالتأكيد.

- إذًا كلُّ شيءٍ على ما يُرام.

- أظن أنك قد وجدتَ كلمة (باباداكيس)؟

أكَّد (تيوفان)، قائلاً:

- نعم. في سترة الكَتّان. عندك حقٌّ. مرة أخرى أيضاً. وتلا ما فيها وهو يبتسم:

(اعتقاداتُكم تصبِح أفكارَكم

وأفكارُكم تصبِح كلِماتِكم

وكلماتُكم تصبِح أفعالَكم

وأفعالُكم تصبِح عاداتِكم

وعاداتُكم تصبِح قِيمَكم

وقِيَمُكم تصبِح قَدَرَكم).

تشكُّرات

- الشكرُ الجزيل لـ (تييرّي جوليان) Thierry Jullien طبيب القلب والصديق.

- وإلى (باتريس دِرفانيان) Patrice Dervanian جرّاح القلب الشهير الذي تكرم وفتح لي قليلاً أبواب القلب.

- وإلى الدكتور (كريستيان لودو) Christian Ledoux الذي أولى عنايته لـ (أليكسيس)، و(ديمتري)، و(أنطونيا).

- وإلى (إيزابيل شوفرييه) Isabelle Chevrier الطبيبة النفسانية - والمعالجة بركوب الخيل، التي تمكنتُ بفضلها، وطيلةَ ساعات، أن أكتشِف العالَم السحري للعلاج بركوب الخيل.

- وإلى (رندا بركات) Randa Barakat الفارسة الماهرة، التي «كان الحصان دائماً في رأسها»، والتي ألهمتْني دور (جيهول).

- وإلى (جان - إتيين كوهين - سيا) Jean - Étienne Cohen - Séat على نصائحه الأدبية القيمة جداً.

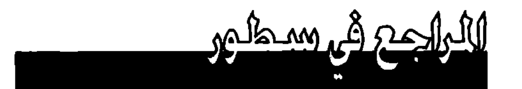
- وبالتأكيد إلى ناشِري الوفِيّ (تييرِّي بِيَّار) Thierry Billard الذي يلقّب بـ (خرْبَشة رفيعة) أو (رِجْل الذبابة) Patte de mouche.



المترجم في سطور

د. محمود فارس المقداد

- مولود في مدينة بصرى بمحافظة درعا سنة 1951.
- إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية 1974.
- دبلوم دراسات أدبية عليا 1975.
- دكتوراه دولة في أدب صدر الإسلام والعصر الأموي عن أطروحة «الترسُّل النثري عند العرب من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي»، جامعة دمشق - كلية الآداب - قسم اللغة العربية، سنة 1986.
- معيد فمدرس في جامعة دمشق قسم اللغة العربية 1978-1991.
- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بجامعة عمر المختار في البيضاء (ليبيا) 1991-1993.
- أستاذ مساعد في كلية التربية الأساسية - قسم اللغة العربية بالكويت 1993-2007.
- عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1993.
- أستاذ مساعد حالياً في جامعة دمشق - كلية الآداب الثالثة بدرعا - قسم اللغة العربية.



المراجع في سطور

حمادة إبراهيم محمد إسماعيل

- حاصل على دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون بباريس مع مرتبة الشرف الأولى، يوليو سنة 1975م.
- يعمل كأستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون.
- من كتبه باللغة الفرنسية:

1 - De la mort de l'entente à la mort biologique dans le théâtre de Ionesco. The periodical of the faculty of Arts، Mansourah University، Mai، 1978.

2 - Jean Tardieu، dramaturge initiatique، Les Livres de France، 1990.

- من كتبه باللغة العربية:

1 - الاتجاهات المعاصرة في تدريس اللغات الحية لغير الناطقين بها، دار الفكر العربي (1986).

2 - الطفل في القصة العالمية، هيئة الكتاب، القاهرة، (2010).

- من نصوصه في العروض المسرحية:

1 - أولاد العم كام، مسرح الطليعة عام (1995).

2 - شد حيلك، المسرح العائم (2001).

- له العديد من الدراسات والترجمات لأعمال أجنبية منها:

1 - الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي أوجين يونسكو. صدرت في خمسة مجلدات في الكويت (1973–1988) ثم في هيئة الكتاب (34 مسرحية، في مجلدين، القاهرة 1998).

2 - الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي ألفريد جاري، الكويت، في ثلاثة مجلدات (1991 / 1993).

3 - سباق الملوك تييري مونييه، سلسلة «من المسرح العالمي»، الكويت (1970).

- له العديد من المراجعات منها:

1 - رويسبير لرومان رولان، الكويت، (من المسرح العالمي)، العدد 81، (1971).

2 - 14 يوليو لرومان رولان، الكويت، (من المسرح العالمي)، العدد 20، (1971).

3 - خادم سيدين لكارلو جولدوني، (من المسرح العالمي)، الكويت، العدد 96، (1974).

4 - من الأعمال المختارة، للكاتب الإيطالي لويجي بيراندللو (من المسرح العالمي)، الكويت، العدد 99، (1975).

5 - الحصان المغمى عليه لفرانسواز ساجان، (من المسرح العالمي)، الكويت، (1978).

- قام بإعداد دورات وسلاسل متخصصة في تعليم اللغة العربية.

له عدة أعمال إذاعية ومسرحيات وقصص وروايات وأعمال شعرية بعضها من تأليفه وبعضها مترجم.

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	الييروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد .	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

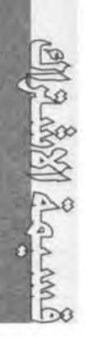
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندچي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو ميندیس

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليڤي
404	الرِّقة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنِّيْ أتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِينُوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هايْنِهْ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـو هـوا



قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

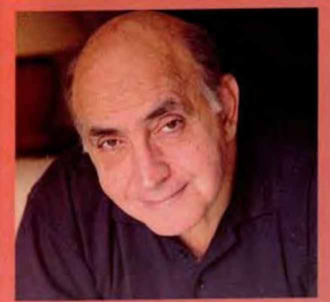
السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 /2/1/24826820	00965 /24826823	im_grp50@yahoo.com
			ثانياً: التوزيع الخارجي		
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966 /14419933 – 14418972	00966 /12121766 – 1212774	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	00973 /17617733 – 36616168	00973 /17617744	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 /3/2/43916501	00971 /43918354 – 43918019	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	00968 /24492936 – 24496748 – 24491399	00968 /24493200	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	00974 /44621942 – 44622182	00974 /44621800	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 /5/4/3/2/1/25782700 00202 /25806400	00202 /25782540	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 /5/1666314	00961 /1653259 00961 /1653260	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	00216 /71322499	00216 /71323004	sotupress@sotup.com.tn
10	المغرب	الشركة العربية الأفريقية	00212 /522249200	00212 /522249214	s.wardi@sapress.ma
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	00962 /6535885 – 797204095	00962 /65337733	alahafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	00970 /22980800	00970 /22964133	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	00967 /1240883	00967 /1240883	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	002491 /83242702	002491 /83242703	daralryan_cup22@hotmail.com daralryan_12@hotmail.com


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



المؤلف جِلْبِير سِينُويه

- كاتب مصري - فرنسي.
- ولد في القاهرة سنة 1947 من أم فرنسية والدتها يونانية وأب من أصول سورية - لبنانية مهاجرة إلى مصر.
- نشأ وتعلم حتى الثانوية العامة في مدارس اليسوعيين بالقاهرة.
- سافر إلى فرنسا وهو في العشرين من عمره لدراسة الموسيقى واستقر في باريس ونال الجنسية الفرنسية.
- كتب كلمات بالفرنسية لكثير من مشاهير الغناء بفرنسا، وكتب بالعربية كلمات «حلوة يا بلدي» لدليدا.
- أفاد من إتقانه الفرنسية والعربية في أعماله.
- له نحو سبعة وعشرين عملاً.
- ترجمت أعماله إلى كثير من لغات العالم الحية، وقد ترجم منها إلى العربية نحو تسعة أعمال، ولا يزال الكاتب ناشطاً.
- أهم الجوائز التي حصل عليها:

1 - جائزة «جان دور» Jean D'Heurs.
2 - الجائزة الأدبية.
3 - جائزة الحي اللاتيني.
4 - جائزة أصحاب المكتبات.

الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل

مـاذا يصيب المشـاهيرَ ذوي المجد والشـهرة والثراء عندما يُفقدون إنسـاناً واحـداً حياته. وعن طريـق الخطأ لا تعمُّداً؟ هل ينسـحبون مـن الحياة العامة والأضواء؟ هل يشـعرون بخيبة الأمل؟ هل يعودون إلى صفوف الناس للشـعور بنبض حياتهم وسـماع إيقاعات أمانيهم الصغيرة؟ أم أنهم يواصلون المسيرة متحدِّيـن الواقع متشـبثين بما وصلوا إليه من مكاسـب وامتيـازات ومن غير شعور بالذنب أو عذاب الضمير؟ لا شك أن هؤلاء فئتان: إحداهما تشعر بتأنيب الضمير ووجع الشعور بالذنب أو التقصير. وثانيتهما توغل في الخطأ ولا تهزها الأرواح المزهقـة لا خطأ ولا قصداً. وإنما تعمُّداً أحياناً باسـم أوهام يتخيلونها. أولم يقل النبي الكريم صلى الله عليه وسـلم: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسـؤول عن رعيته»؟

تمضـي هذه الروايـة في معالجة ذلك الشـعور المتضخـم بالألم وتبكيت الضمير والشـعور بالذنب الفظيع. لخطأ طبي وقع فيه جراح قلب شهير أودى بحياة مريضه رغماً عنه. فعاقب نفسـه بنفسه وانسـحب من مدينة الأنوار (باريـس) حيث المجد والشـهرة والمسـرّات. واختار منفى طوعياً لـه في جزيرة يونانيـة تدعى (باتموس) فـي بحر (إيجة). أهلها بسـطاء طيبـون. وأجواؤها هادئـة. وتعيش على ذكرى (يوحنا اللاهوتي) التي أقام فيها مدة وكتب (رؤياه) الشهيرة. زاعماً – أي الطبيب - أنه طبيب عام. ووضع طاقاته الخلاقة في خدمة مرضى الجزيرة. وبنى علاقات ودية مع أهلها. وبعد ثلاث سنوات من الإقامة. وقع في حب فتاة شـابة وصلت إلى الجزيرة مؤخراً مع أمها وأخيها الصغير. وكانت معاقة بسبب شلل أطرافها السفلية منذ سن الـ 12 سنة. وهي الآن في سن الـــ 26. وهي جميلة وذكية. وقد وصلت بالدكتور الشـهير إلى كشـف كل أسـراره وحياته الغامضة قبل قدومه إلى الجزيـرة. وتتعرف تفاصيل حياته في مصر وفرنسا. وتعيد إلى نفسه الثقة. ويساعدها بدوره على الخروج من عزلتها وكآبتها لتعود إلى الشعور بأنها إنسان سوي ابتُلي غصباً عنه بما هو عليه من إعاقـة. وفي هذه الرواية تفاصيل ومعـارف ومعلومات تعجز هذه العُجالة عن الإلمام بها. وأمتع ما في الرواية الوقوف على الطبيعة البشرية. وتحديد المواقف الإنسانية التي لا يمكن للمجتمعات البشرية أن تستمر وتسعد من غيرها.



ISBN: 978-99906-0-510-5